آموزش موضوعی احکام

الحج در رؤوس احکام

آیة الله الشیخ عبدالله جوادی آملی

ترجمه: حیدر حب الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحج رموز و حكم

كاتب:

عبدالله جوادی آملی

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الحج رموز و حکم ----- ۱۳
اشارة ----- ۱۳
اشارة ----- ۱۳
کلمة المجلة ----- ۱۴
مقدمة الترجمة ----- ۱۵
مقدمة المؤلف ----- ۱۷
القسم الأوّل أبعاد الحجّ ----- ۲۷
الفصل الأول الإسلام دین عالمی دائم ----- ۲۷
الفصل الثانی مکانة الحجّ فی الإسلام ----- ۳۱
الفصل الثالث معالم الحج فی القرآن الکریم ----- ۳۶
اشارة ----- ۳۶
وقفات مع الخطاب الإلهی الخاصّ بالحج ----- ۳۷
معالم الحج فی الروایات ----- ۴۱
سعة رحمة الحج ----- ۴۶
عظمة الحج فی أدعیة شهر رمضان ----- ۴۷
الشرف الزمانی للحج ----- ۴۹
تنظیم العقود باسم الحج ----- ۵۰
أبرز اتفاقات أیّام الحج ومواثیقها ----- ۵۱
الفصل الرابع الحج، تجسّد الأصول العقائدیة ----- ۵۳
مظهر التوحید ----- ۵۳
الوحی المجسّم ----- ۵۴
المعاد المجسّم ----- ۵۶

الفصل الخامس الولایة روح الحج ۵۹
تمهید: ۵۹
منشأ حرمة الکعبة وعزّتها ۵۹
ارتباط الحج وشؤونه بالولایة ۶۱
عرفات دون معرفة الإمام ۶۳
الفصل السادس الحج و الوجه السیاسی ۶۸
الحج مظهر الحکومة الإلهیة السامیة ۶۸
المظهر التام للتبرّی من الطاغوت ۷۲
محور البراءة من المشرکین ۷۴
القسم الثانی أماکن الحجّ ۷۷
الفصل الأول المیقات ۷۷
وجوب الإحرام من المیقات ۷۷
الفصل الثانی الحرم الإلهی ۸۲
اشارة ۸۲
أمن الحرم ۸۳
اشارة ۸۳
۱- الأمن التکوینی ۸۵
۲- الأمن التشریعی ۸۸
ساحة أمن ولایة المعصومین: ۸۹
الخصائص الفقهیّة للحرم ۹۰
الفصل الثالث مکة المکرمة ۹۳
مکّة، أنموذج المدینة الفاضلة ۹۳
بعض الخصوصیات الفقهیّة لمکّة ۹۸
الفصل الرابع المسجد الحرام ۱۰۰

الحرمة الخاصّة للمسجد الحرام ---- ۱۰۰
إدارة المسجد الحرام وولايته ---- ۱۰۱
الفصل الخامس الكعبة المشرّفة ---- ۱۰۵
الموضع المركزى للكعبة ---- ۱۰۵
المحاور الأصيلة للوحدة ---- ۱۰۶
اشارة ---- ۱۰۶
۱- عالميّة القرآن الكريم ---- ۱۰۷
۲- عالميّة رسالة الرسول الأكرم ---- ۱۰۷
۳- المركزية العالمية الخالدة ---- ۱۰۸
خصائص الكعبة ---- ۱۰۹
اشارة ---- ۱۰۹
۱- تجلّى العرش ---- ۱۱۰
اشارة ---- ۱۱۰
المراحل الأربع لأركان الدّين ومعارفه ---- ۱۱۱
۲- قيام أسس الكعبة على التوحيد المحض ---- ۱۱۴
۳- تشييد أركان الكعبة على الخلوص الأصيل ---- ۱۱۶
۴- مركز الطهارة ومطاف الطاهرين ---- ۱۱۶
۵- محور القيام والقيامة ---- ۱۲۱
اشارة ---- ۱۲۱
دور الاعتقاد والاقتصاد فى قوام المجتمعات الإنسانيّة ---- ۱۲۳
۶- بيت الأحرار ومحور الحرّية ---- ۱۲۳
اشارة ---- ۱۲۳
إذا جاهدت وسعيت غدوت مَلَكاً ---- ۱۲۵
۷- مظهر المساواة ---- ۱۲۵

۸- الکعبة مرجع الخلق جمیعاً ---- ۱۲۶
۹- مرکز الاتّحاد ---- ۱۲۷
۱۰- أقدم المعابد العامّة ---- ۱۲۹
۱۱- أفضل المعابد ---- ۱۳۱
۱۲- منشأ البرکة ---- ۱۳۲
۱۳- الکعبة وسیلة الهدایة ---- ۱۳۲
۱۴- حمایة الکعبة ---- ۱۳۳
۱۵- الولایة روح الکعبة ---- ۱۳۴
۱۶- علامة القبلة ---- ۱۳۷
القبلة هی البُعد الذی لا یتغیّر للکعبة ---- ۱۴۰
قبلة الأنبیاء: ---- ۱۴۱
الکعبة أشرف من بیت المقدس ---- ۱۴۲
الخصوصیّات الفقهیّة للکعبة ---- ۱۴۳
عبقٌ من تاریخ الکعبة ---- ۱۴۵
الفصل السادس الحجر الأسود ---- ۱۴۹
السرّ فی تشبیه الحجرالأسود بمقام الرسول الأکرم (ص) ---- ۱۴۹
نزول الحجر الأسود من الجنّة ---- ۱۵۰
شهادة الحجر الأسود یوم القیامة ---- ۱۵۲
الفصل السابع ألحطیم وحجر إسماعیل ---- ۱۵۴
الفصل الثامن مقام إبراهیم ---- ۱۵۷
اشارة ---- ۱۵۷
کیفیة تکوّن مقام إبراهیم ---- ۱۶۰
الفصل التاسع زمزم ---- ۱۶۳
اشارة ---- ۱۶۳

من أسماء زمزم ---- ۱۶۴
الفصل العاشر ---- ۱۶۶
الفصل الحادی عشر عرفات ---- ۱۶۸
الفصل الثانی عشر المشعر الحرام ---- ۱۷۰
الفصل الثالث عشر منی ---- ۱۷۱
القسم الثالث مناسک الحجّ ---- ۱۷۳
الفصل الأول سرّ العبادة ---- ۱۷۳
العبادة، غایة الخلق لا الخالق ---- ۱۷۳
العبادة، وسیلة الشهود الوحیدة ---- ۱۷۵
کشف سبیل سرّ العبادة ---- ۱۷۶
حقیقة الإنسان الکامل سرّ العبادات کافّة ---- ۱۷۷
الفصل الثانی سرّ الحج وثمراته ---- ۱۷۹
الصورة الباطنیّة للحجّ ---- ۱۷۹
سرّ الحجّ فی السیر إلی الله ---- ۱۸۲
زاد سفر الحجّ ---- ۱۸۲
تزکیة الروح فی ضوء معرفة الأسرار ---- ۱۸۴
التناغم بین سیرة الحاجّ وسرّ الحجّ ---- ۱۸۶
السیرة اللا إنسانیة لبعض الحجّاج ---- ۱۸۸
الفصل الثالث الإحرام ---- ۱۹۲
اشارة ---- ۱۹۲
حقیقة الإحرام ---- ۱۹۵
غسل الإحرام ---- ۱۹۶
صلاة الإحرام ---- ۱۹۶
ارتداء لباس الإحرام ---- ۱۹۷

النيّة ----- ۱۹۷
حقيقة النيّة ----- ۲۰۰
التلبية ----- ۲۰۱
رهبانيّة أمّة الإسلام ----- ۲۰۱
تجلّى التوحيد فى التلبية ----- ۲۰۲
طرد الجاهليّة القديمة والحديثة ----- ۲۰۳
سرّ التلبية ----- ۲۰۴
مراتب التلبية والملبّين ودرجاتهما ----- ۲۰۵
محرّمات الإحرام ----- ۲۰۷
الفصل الرابع الطواف ----- ۲۱۰
أدب الدخول إلى المسجدالحرام ----- ۲۱۰
أدب الحضور ----- ۲۱۱
الطواف ----- ۲۱۳
الطواف الجاهلى ----- ۲۱۵
استلام الحجر الأسود ----- ۲۱۷
الفصل الخامس صلاة الطواف ----- ۲۱۹
اشارة ----- ۲۱۹
التبرّک بماء زمزم ----- ۲۲۰
الفصل السادس السعى ----- ۲۲۲
اشارة ----- ۲۲۲
أسرار السعى ----- ۲۲۳
الفصل السابع التقصير ----- ۲۲۵
اشارة ----- ۲۲۵
تساوى الرجل و المرأة فى تحصيل الكمال ----- ۲۲۶

الفصل الثامن الوقوف فی عرفات ---- ۲۲۷
اشارة ---- ۲۲۷
أسرار الوقوف ---- ۲۲۷
عرفات أرض الدعاء ---- ۲۳۱
قرب الله من عباده ---- ۲۳۲
مقاطع من دعاء عرفة للإمام الحسین (ع) ---- ۲۳۵
حضور إمام الزمان فی الحج ---- ۲۳۷
الفصل التاسع الوقوف فی المشعر الحرام ---- ۲۳۹
الفصل العاشر الإفاضة إلی منی والمبیت فیها ---- ۲۴۱
اشارة ---- ۲۴۱
تصفیة المناسک من العادات الجاهلیة ---- ۲۴۲
الحج فیّاض بإسم الله وذکره ---- ۲۴۵
تفاوت مراتب الحجّاج ---- ۲۴۶
الفصل الحادی عشررمی الجمرات ---- ۲۴۸
الفصل الثانی عشرذبح الأضاحی ---- ۲۵۰
اشارة ---- ۲۵۰
وقفات حول التضحیة و أسرارها ---- ۲۵۱
الفصل الثالث عشرحلق شعر الرأس ---- ۲۵۵
اشارة ---- ۲۵۵
استحباب دفن شعر الحاج فی منی ---- ۲۵۶
الفصل الرابع عشرنهایة الحج ---- ۲۵۷
الدخول والخروج الصادق ---- ۲۵۷
الحج المقبول ---- ۲۵۸
ارشادات النبی (ص) فی حجة الوداع ---- ۲۶۰

القسم الرابع الزيارة ---- ۲۶۴
الفصل الأول إتمام الحج والعمرة بالزيارة ---- ۲۶۴
اشارة ---- ۲۶۴
فضيلة التشرّف بزيارة المدينة بعد الحج ---- ۲۶۶
الفصل الثانى الزيارة حضور فى مقام الإنسان الكامل ---- ۲۶۸
الفصل الثالث الزيارة مظهر المحبة ---- ۲۷۱
الفصل الرابع أدب الحضور ---- ۲۷۳
الفصل الخامس ضيافة النبى (ص) ---- ۲۷۵
الفصل السادس بيوت الحقّ الرفيعة ---- ۲۷۸
تعريف مركز ---- ۲۸۰

الحج رموز و حکم

اشارة

سرشناسه : جوادی آملی، عبدالله، ۱۳۱۲ -

عنوان قراردادی : صهبای حج .عربی

عنوان و نام پدیدآور : الحج‌رموز و حکم/ عبدالله جوادی‌آملی؛ مترجم حیدر حب‌الله.

مشخصات نشر : تهران: مشعر، ۱۳۸۹.

مشخصات ظاهری : ۲۹۲ص.

شابک : ۴۰۰۰۰ ریال: ۹۷۸-۹۶۴-۵۴۰-۲۷۲-۱

وضعیت فهرست نویسی : فیپا

موضوع : حج

شناسه افزوده : حب‌الله، حیدر، مترجم

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸/ج۹ص ۹۰۴۱ ۱۳۸۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۳۵۷

شماره کتابشناسی ملی : ۲۱۱۴۰۵۴

ص: ۱

اشارة

الحج مدرسة فکریة وروحیة وتربویة عظیمة، یستلهم الفرد منها القیم والإرشادات، کما تستنیر الأمة بها فی سلوک طریق تکاملها وترقّیها.

إنّ موسم الحج فرصة عظیمة وفّرتها الشریعة الإسلامیة للموحّدین کی یستلهموا منها مختلف المعانی وألوان المفاهیم التی تعینهم علی المضی قدماً فی مسیرة الارتقاء والصلاح.

وقد أخذ مرکز أبحاث الحج علی عاتقه مسؤولیة الترویج لثقافة الحج والزیارة، عبر إنتاج الأبحاث وتألیف الکتب والدراسات، وإصدار النشریات العلمیة الرصینة، فکان سبّاقاً فی هذا المضمار، یقتفی أثره سائر المراکز والمؤسسات البحثیة والثقافیة فی العالم الإسلامی.

كلمة المجلة

ص: ۲

ومن بركات هـذا المركز إصـدار مجلـة «ميقات الحج» باللغتين العربيّة والفارسـيـة، حيث نشـرت فيها مئات الدراسات والأبحاث العلمية والتحقيقية المتعلّقة بالحج والعمرة والزيارة والتراث الإسلامى فى أرض الحرمين وغيرها من الملفات والمحاور الهامّة.

لقد تولّت مجلة (ميقات الحج) باللغة العربية رصد أهم الموضوعات ومتابعة المسـتجدات الفقهية المتصـلة بقضايا الحج والعمرة، فبنت جسوراً مع كبـار الفقهاء وثلّة من أفاضل العلماء ونخبـة من الأساتـذة والباحثين، فتركت حتى الآن اثنين و ثلاثين عـدداً متميزاً، تصـلح مرجعاً هامّاً فى‌هذا المضمار.

وقـد ارتأت أسـرة تحرير المجلـة إصدار كتابها الثالث الذى جمعت فيه ما كانت ترجمته من أبحاث أخلاقية وفقهية ووجدانية وعرفانية للعلامـة الجليل سـماحة آيـة الله الشـيخ عبـدالله جوادى آملى حفظه الله تعالى، حيث عبّرت هـذه الأبحاث عن جولـة كاملة فى مفاهيم الحج ورحلة شيقة فى معانيه ودلالاته.

إنّ أسرة التحرير إذ تقدّم هذا الكتاب بين يدى القارئ العزيز تأمل منه الاستفادة بتقديم ملاحظاته ومقترحاته حول كل ما يرتقى بعمل المجلة ويوفر لها مناخاً مساعداً.

والله من وراء القصد

ص: ۳

مقدمة الترجمة

يمكن لمن يدرس ظاهرة الحج أن يطالعها من زوايا متعددة؛ تنطلق من الزاوية الفقهية الشرعية، لتمرّ بالزوايا التاريخية والأخلاقية والتربوية والسياسية والاجتماعية والفكرية، وصولًا إلى الزاوية الروحية والعرفانية والرمزية.

يغصّ الحج بدلالات ومعانى تجعل منه مادة خصبة للتحليل والتأمل والغوص والاستغراق، وبقدر ما كانت دراسات الحج على المستوى الفقهى واسعة ومعقدة كما يعرف ذلك المتخصصون بدراسة فقه الحج والعمرة، كذلك كان تحليله الروحى والعرفانى معقداً أيضاً، نظراً لغزارة الدلالات الرمزية التى يكتنفها.

قد يكون التخصّص فى علم الفقه كافياً لدراسة فقه الحج، إلا أن معرفة أسرار الحج ورمزياته تظلّ بحاجة إلى عُدد معرفية أخرى، من الوجدان الصافى إلى العرفان العملى والنظرى إلى التجربة الروحية والأخلاقية، من هنا كانت هذه المهمة مسؤولية العرفاء وأهل القلب والمعنى.

ومن رموز مدرسة المعرفة القلبية والفلسفية ووجوه الاتجاه الرمزى فى عصرنا سماحة الأستاذ آية الله الشيخ عبدالله جوادى آملى حفظه الله، فقد خاض فى هذا الكتاب صولات وجولات فى ممارسة تحليل رمزى وعرفانى وروحى لهذه الفريضة العظيمة، وسعى لربطها بمختلف الدلالات المساعدة.

لقد أبرز الشيخ الأستاذ قدراته فى التفسير الرمزى للعبادات، وكانت له طريقته

ص: ۴

الخاصّة فی ذلک، والتی قد یتخلف العلماء فیها، إلا أنها تظلّ شکلًا من أشکال فهم العبادات فی الإسلام، تسعی لکی تتخطی الوقوف علی الأبعاد الظاهریة للأمور لتلامس معانی باطنة ذات مضامین سامیة.

إنّنی إذ قمت بجهود متواضعة فی ترجمة هذا الکتاب لابد لی أن أشکر أسرة تحریر مجلة میقات الحج، وبالأخص سماحة السید قاضی عسکر، ممثّل الولی الفقیه فی شؤون الحج والزیارة- رئیس التحریر- وسماحة الأخ العزیز الشیخ محمدعلی مقدادی- مدیر التحریر- علی رعایتهم هذا الجهد المتواضع ونشره علی صفحات المجلة ثم فی هذا الکتاب.

ولا یفوتنی أن أشکر الأخ العزیز الأستاذ صالح البدراوی علی مساعدتی فی ترجمة الموضوعات المتعلقة بالحجر الأسود ومقام إبراهیم وزمزم والصفا والمروة وعرفات ومنی والمشعر الحرام والتی تقدر بحوالی الخمس عشرة صفحة، حفظاً لحقه المعنوی وتقدیراً له.

إنّنی أقدم جهدی المتواضع هذا هدیة مزجاة لأستاذی- الذی تشرفت بحضور درس التفسیر القرآنی عنده- سماحة الشیخ جوادی آملی وأضعه عربون وفاء لحقّه علیّ فی التعلیم.

والله وراء القصد

حیدر حب الله

ص: ۵

مقدمة المؤلف

مقدمة المؤلف

الكتاب الذى بين يديك قارئنا العزيز «الحجُ رموزٌ و حِكَم» ثمرة جهود وإشراقات نورانية لسماحة آية الله العلامة الشيخ عبد الله جوادى آملى حفظه الله تعالى، وقد تولّت مجلة «ميقات الحج» تقديمه إلى القارئ الكريم، تعميقاً لمعانى الحج، و توضيحاً لدلالاته.

وقد قدّمنا هذا الكتاب بعد إعداده إلى مؤلفه الكريم، فتفضّل- مشكوراً- بكتابة مقدّمة للطبعة العربية له، تحوى المزيد من الالتماعات التى مازال يتحفنا بها سماحته دام عزّه.

إنّنا نأمل بنشر هذا الكتاب- مزيّناً بمقدّمة الطبعة العربية هذه- أن تزدان المكتبة الإسلامية بمثل هذه البحوث والقراءات المعمّقة لفريضة الحجّ العظيمة، ونسأل الله تعالى التوفيق وتقبّل عملنا هذا، كما نأمل أن يحظى هذا العمل برضا المؤلّف والقارئ معاً، إن شاء الله.

والحمدلله ربّ العالمين

*** ألحمدُ للهِ الذى جعل الكعبة قياماً للناس، و الصلاة والسلام على جميع الأنبياء، سيّما الخليل (ع) الذى رفع قواعدها، و الحبيب (ع) الذى طهّرها من الصنم، و عترته

ص: ۶

المعصومین، سیّما خاتمهم المهدی الموجود الموعود (عجّل الله تعالی فرجه الشریف) الذی به یملأ الله الأرض قسطاً وعدلًا، بعد ما ملئت ظلماً وجوراً؛ بهم نتولّی ومن أعدائهم نتبرأ إلی الله.

إنّ الله سبحانه خالق کلّ شیءٍ ممکنٍ و یکون خلقه إیّاه بالتجلّی کما قال مولانا أمیرالمؤمنین علی‌بن‌ابی‌طالب (ع): «أ لحمدُ لله المتجلّی لِخَلقه بِخَلقه». (۱) أی فتجلّی الله سبحانه بالخلق لکل مخلوقٍ فکل مخلوقٍ یعرفُ الله سبحانه و یسبّحه و یحمّده و یسجد و یأتیه طائعاً کما فی غیر واحدة من الآیاتِ، فلا الخلق بالتجافی بل بالتجلّی، و لا المخلوق محجوب عن خالقه المتجلّی له، إذ لیس المتجلّی له هو خصوص الانسان، و إن کان هو أقوی مخلوقٍ تجلّی الله له.

فهذا أصل إلهی، و هو أنّ الله مُتجلٍّ فی خلقه و أنّ مخلوقهُ متجلّی له بلا استثناء فی شیء من هذین المطلبین.

إنّ کمال الخالق و حُسنه الوجودی (لا الاعتباری) یتجلّی فی خلقه و إنّ کمال المخلوق و حسنه الوجودی یکشف کمال الخالق و حُسنَه الوجودی، و لا یختصّ ذلک فی خلق الإنسان الذی له أحسن تقویم؛ فما ورد فیه من قوله تعالی: فَتَبَارَکَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِینَ. (۲) إنما هو تمثیل لا تعیین، لأنه جارٍ بعینه فی إنزال القرآن الحکیم الذی هو أحسن الحدیث و أبلغ الموعظة، و حیث إنّ الله سبحانه نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِیَ. (۳) فهو أحسنُ المتکلّمین و أحسنُ المحدّثین، و ما إلی ذلک من الأشباه و النظائر.

إنّ الله سبحانه رفیعُ الدرجات ذو العرش، و یرفع الذین آمنوا درجةً والذین أوتوا العلم درجات، و یرفع الأوحدیّ منهم مکاناً علیّاً.

۱- نهج‌البلاغه، الخطبة: ۱۰۸.

۲- المؤمنون: ۱۴.

۳- الزمر: ۲۳.

ص: ۷

فجميع ذلك مصداق خلقه المتجلّى به للمخلوق، فأىّ مخلوقٍ عَرَفَ نفسَه يعرف ربّه بمقدار معرفته، و لا ـ خصيصة لهذا الأصل بالإنسان، و إن كان له حظٌّ وافرٌ، و لا يمكن أن لا يَعرف مخلوقٌ أىّ مخلوقٍ كان نفسه إلّا بسوء عمله الذى يختلف باختلاف المخلوق شدةً و ضعفاً، و كلّ مخلوق عرف نفسه يعرف خالقه المتجلّى له بالضرورة.

و حيث إنّ درجات التجلّى متفاوتةٌ فكلّ مقدارٍ نَقَصَ منه ينتزع من القدر الناقص عنوان التجافى المقابل للتجلّى، إذا الميز بينهما بأنّ المتجلّى يكون جامعاً بين الدرجات بنحوٍ إذا هبط إلى الأرض يكون موجوداً فى السماء أيضاً، و إذا نزل إلى السِفل يكون موجوداً فى العلو و يصير مظهراً لله الذى هو دانٍ فى علوّه و عالٍ فى دنوّه، بلا اتّحاد و لا حلولٍ، و بأنّ المتجافى لايكون كذلك، حيث إنّه إذا كان عالياً لم يكن سافلًا، وإن كان هابطاً لم يكن صاعداً، و ذلك كالمطر حيث إنّه مادام فى سحاب السماء لا يكون فى بحر الأرض أو نهرها، و مادام هبط إلى البرّ أو البحر لا يكون فى سحابها.

مع أنّ كل شىءٍ مسبوقٌ بوجوده فى خزائن الله سبحانه، و أنّ هبوطه إلى الأرض ليس بمعنى خلوّ المخزن عما اختزن فيه؛ فما أفاده سبحانه بقوله: وَإِن مِّنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ. (۱) حقّ لا ريب فيه، إلّا أنّ بين أنحاء التنزيل فرقاً.

إنّ القرآن قد نزل من لدن علىّ حكيم، و إنّ المطر أيضاً نزل من مخزنه، و لكن بينهما تفاوتاً من البدء إلى الختم، و من كيفية الانزال و ما إلى ذلك؛ فالقرآن نزل بالتّجلى الخاص كما أفاده مولانا أميرالمؤمنين (ع): «فتجلّى لهم سبحانه فى كتابه مِن غير أن يكونوا رأوه». (۲) والمطر نزل بالتّجافى فالقرآن بمثابة الحبل الممدود من الصدر

۱- الحجر: ۲۱.

۲- نهج‌البلاغه، الخطبة: ۱۴۷.

ص: ۸

إلى الساقة بلا طرحٍ و لانبذٍ، و المطر مُلْقىً و مَنْبوذٌ فأين أحدهما من الآخر؟

فالقرآن من أدلّه الـذى يكون بيـد الله إلى آخره الذى بأيدى الناس كلام الله حيث قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ. (۱) والتفصيل موكول إلى موطنه المعدّ لبيان كيفية نزول القرآن و مَيْز نزوله عن نزول غيره.

إنّ الكعبـة التى هى قبلـة المسـلمين، و مطاف الطائفين، و مزار الزائرين، قد نزلت إلى الأرض قرب نزول القرآن إليها، لا كنزول المطر إليها، و يشـهد له ما ورد فى شأن الحجر الأسود، من أنه يمين الله فى الأرض، فمن اسـتلامه فكأنه بايع يمين الله الـذى كلتا يديه يمين، مع نزاهته عن الجسم، و برائته عن المادة، و طهارته عن لوث الجسمية، و ما إلى ذلك؛ سبّوحٌ قدّوسٌ ربنا و ربّ الملائكة و الروح.

إنّ الكعبـة هى متن القبلـة فمن دَخَلَها فهو فى عين القبلة بحيث أينما يتوجّه فثَمّ وجهُ الله و لا مَيْز هناك بين الأمام و الخلف و اليمين و اليسار والفوق والتحت إلّا بالاعتبار، و إلّا فالجميع قبلـة و البيت الـذى هذا شأنه فهو مَجْلىً لله المتجلّى فيه، لأنّه تعالى يكون مع الإنسان أينما كان، و كيف كان، و حيث كان، و لا يعمر هذا البيت إلّا الموحّد الخالص: إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ. (۲)

و لا يطوف حوله إلّا العتيق عن حُبّ غير الله، و لا يستقبله إلّا المستدبر ما سوى الله.

إنّ الكعبة رقيقةٌ للبيت المعمور الذى يَعْمره الملائكة الذين لايعصون الله ما يأمرهم و هم بأمره يعملون، و لا يسـبقونه بالقول و يخافون ربّهم من فوقهم، و يسـبّحونه و يقـدّسونه، و هم المـدبّرون العـالَم بـأمره تعـالى، و حيث إنّ الـبيتَ المعمور بالملائكـة أقوى درجـة من الكعبة فهو بتمامه أى داخله و سطوحه الخارجة كلها

۱- الزخرف: ۳ و ۴.

۲- الأنفال: ۳۴.

ص: ۹

بحيث أينما يتوجّه إليه مَلَكٌ مِن الملائكة فثمّ وجه الله.

والسرّ فى تماثل الكعبة و البيت هو أنّ ذلك البيت حقيقةٌ لرقيقة الكعبة، و هى رقيقة لتلك الحقيقة صوناً للتجلّى عن التّجافى، فجميع ما فى البيت المعمور حاصلة للكعبة ضعيفاً، و جميع ما فى الكعبة حاصلة للبيت المعمور شديداً.

إنّ البيتَ المعمور رقيقةٌ للعرش الإلهى، و ذلك حقيقة لهذه الرقيقة كما أشير فى التماثل بين الكعبة و البيت المعمور، و العرش معمورٌ بمن يستولى عليه و هو الله سبحانه: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. (۱) و لكنه تعالى إنما يَعمر عرشه بأسمائه الحسنى، و أوصافه العليا، و كلماته التامّة التى تحكيها التسبيحات الأربع و هى:

سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلّا الله و الله أكبر

كما دلّت عليها الرواية الدالّة على أنّ تربيع العرش و كونه ذا أركان أربعة إنّما هو لأنّ تلك الكلمات التى بنى عليها العرش أربع، فلو أمكن لأحدٍ أن يَصْعَد إليه بإذن الله تعالى فهو يرى نفسه محفوفاً بالتوحيد المشار إليه تارةً بالتسبيح، و أخرى بالتحميد، و ثالثةً بالتهليل، و رابعةً بالتكبير، و هى و إن كانت كثيرة لفظاً و مفهوماً و لكنّها متحدة مصداقاً.

فهذا الصاعد الذى عرج بروحه إلى ذلك المستوى، فهو يرى قلبه، إنّه أينما توجّه فثمّ وجه الله، و حيث إنّ هذا السعيد الصاعد ذو قلب سليم ليس فيه غير حُبّ الله، فيصير بذلك بمنزلة العرش، الذى مبناه، و بناؤه، و جداره، و سقفه، و بابه، و ميزابه، و كلّ ما يتعلّق به توحيداً خالصاً لله الذى ليس كمثله شىء.

ثمّ إنّ تلك الكلمات الطيّبة حقيقة العرش الذى هو رقيقتها، و يكون العرش حقيقة البيت المعمور الذى هو رقيقته، و يكون البيت المعمور حقيقة بيت الله فى الأرض (الكعبة) الذى هو رقيقته، و من هنا يتبين أنّ نزول الكعبة إلى الأرض

۱- طه: ۵.

ص: ۱۰

بالتجلّی الخاص لا التجلّی العام الذی یصحبه التجافی أحیاناً، و أنّ معنی ما قد یقال: إنّ الکعبهٔ من تخوم الأرض إلی عنان السماء قبلهٌ، له معنی دقیق فی الفقه الأکبر و الأوسط، کما أنّ له معنی رائجاً فی الفقه الأصغر، و أنّ صغر الفقه و کبره یرجعان إلی المحتوی الناظر إلی الجهاد الأصغر و الأکبر، إذ لا یمکن الفتح فی الجهاد الأکبر بسلاح الفقه الأصغر، لأنّ لکلّ جهادٍ سلاحاً، و ظَفَراً، و غنیمهً، کما أنّ له هزیمهٔ و غرامهٔ، و أنّ قلبَ المؤمن إنّما یصیر عرش الرحمن، إذا التزم بجمیع ما فی الفقهین الأصغر و الأکبر، و عرفه واعترف به، و آمن بذلک، و عمل به خالصاً لله، البریء مِن الرّیاء، و السمعهٔ، و ما إلی ذلک من هوی النفس، فلابدّ من تضحیتها، و تزکیهٔ الروح، و تذکیهٔ العقل، حتی یلیق بأن یصعد، و یصیر بنفسه بمنزلهٔ عرش الرحمن، فحینئذٍ إذا أفیض علی قلبه شیءٌ من المعارف العلمیهٔ، أو العملیهٔ، یصیر ذلک کلمهً عرشیهٔ، لأنّها أفیض علی عرش الرّحمن و استقرّ علیه، و کلّ ما یستقرّ علی العرش یصیر عرشیاً، فتلک المعارف تصیر حکماً عرشیهٔ، کما هو المعهود لدی أبناء التحقیق؛ لا أنّ کل مطلبٍ عریقٍ عمیقٍ دقیقٍ یستحقّ بأن یُعبّر عنه بالحکمهٔ العرشیهٔ؛ لأنّه أفیض علی قلب الغیر، و أیّ مطلبٍ أفیض علی الغیر فهو عاریهٔ ترجع إلی صاحبها، و لا مساس لها بالمستعیر، فلیس له أن یتفوّه بذلک إلّا بعد التصریح بالاعارهٔ و الاستعارهٔ، لأنّ ذلک المطلب السامی، و إن کان مشهوداً للعارف، أو معقولًا للحکیم، إلّا أنّ نقله لیس عرفاناً و لافلسفهً، إذ الناقل المستعیر لا یکون عارفاً شاهداً، و لا حکیماً عاقلًا، إذ نقل الشهود و العقل أجنی عنه منقوله.

فکما أنّ قاریء القرآن له أنْ یقرأ و یرقی، حیث یقال له: «إقرأ وارقَ». (۱)ولایختصّ ذلک بالآخرهٔ، و إن کان هنالک بنحو أتم، بل یجری فی الأولی أی الدنیا أیضاً، فکل الحاج و المعتمر و الزائر، و کل من یتّجه إلی الکعبهٔ و یصلّی نحوها یقال

۱- الکافی، ۶۰۶: ۲.

ص: ۱۱

له: طُفْ، زُر، صَلّ و أرْقَ من الكعبة إلى البيت المعمور، و منه إلى العرش، و منه إلى محتوى التسبيحات الأربع، و صير عبداً خالصاً ذا قلبٍ سليم ليس فيه شيء سوى حُبّ الله، و حُبّ آثاره القيّمة من القرآن، و العترة (ع) الذين ورد فيهم أنّهم بمثابة الكعبة تُؤتى و لاتأتى؛ لأنّ الإمام لا يكون إلّا كذلك.

إنّ الكعبة التى لم يذكر إلّا بَضْعَة ممّا ورد فيها هى مدار حياة الأمّة و مماتهم وجوباً أو ندباً، من الصلاة، و الذبح، و النَحر، و الاحتضار، و التصلية، و الدفن، و ما إلى ذلك؛ فلذا يقال حيّاً و ميتاً: إنّ الكعبة قبلتى، كما يقال فى الحالتين: إنّ القرآن كتابى و إنّ محمداً (ص) نبيّى و رسولى، و إنّ عليّاً و أولاده المعصومين الأحد عشر: أئمّتى، و ما إلى ذلك من الأمور الدينيّة؛ فيلزم معرفتها بحيث لايضيع شيء من حقّها أوّلًا، ثمّ تجعل سلّماً للصعود إلى البيت المعمور هكذا ثانياً، و من هنا يصح أن يقال: «الكعبة! و ما أدراك ما الكعبة؟! حيث إنّ الطائف لا يرى منها إلّا حجراً لا يضرّ و لاينفع» كما أنّ قارئ القرآن لا يسمع إلّا لفظاً عربياً، و لكنه لا يدرى من أين تجلّى؟ و من أين نزل فى القوس النزولى؟ و إلى أين يصعد و يترقّى فى القوس الصعودى؟

إنّ كلمة «ياء» التى أضيف إليها لفظ البيت فى قوله تعالى: طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ .... (۱) ليست إضافةً اعتبارية، بل تحكى الإضافة الإشراقية التى يكون المضاف فيها تابعاً للإضافة، بخلاف ما فى الاعتبارية منها، حيث إنّ الإضافة فيها تابعة للمضاف، كما أنّها تابعة للمضاف إليه.

والحاصل أنّ إضافة البيت إلى الله تشريفية، تحكى شرافة المضاف تكويناً لااعتباراً صرفاً، و أنّ التشريف التشريعى يساوق التكوين، إذ الشريعة الإلهية عين

۱- البقرة: ۱۲۵.

ص: ۱۲

الحكمة بلا جزافٍ، و متن الواقعيّة بلا تسامحٍ و لاتساهلٍ.

و إن شئت فقارن هذه الإضافة و الإضافة التى فى قوله تعالى: وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى. (۱) إذ المضاف هناك أى الروح موجود مجرّد ملكوتى من أمر الله، و له شأوٍ قاصٍ تحكيه الإضافة المذكورة و إن يكن بين الروح الإنسانى المنفوح فيه من الله، و بين ظاهر الكعبة المنبة من أحجار لاتضرّ و لا تنفع (۲) فرق، و لكن بعد التدبّر فى باطنها يعترف بإمكان التشابه، و من هنا قِيل فى نعتِ الكعبة باللغة الفارسية المقاربة للعربية فى غير واحد من المعارف و الحِكَم عدا ما فيها من القرآن الحكيم و كلام أهل بيت الوحى:

كعبه را جامه كردن از هوس است ياء بيتى جمال كعبه بس است. (۳)

أى لا تحتاج الكعبة إلى تزيينها بالثوب الحريرى و نحوه؛ لأنّ جمالها إنّما هو فى لفظة الياء فى كلمة بَيْتى فى قوله تعالى: طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ. (۴)حيث إنّ جمال المخلوق بإضافته إلى الخالق الجميل الذى كلّ جماله جميل، و إن نسأله بأجمله فى «دعاء السحر» حسب ما عَلّمنا مولانا أبوجعفر الباقر (عليه و على آبائه الأطيبين و أبنائه الأنجبين آلاف التحيّة و الثناء).

إنّ الكعبة سبب قيام الناس للتوحيد و العدل، على الإلحاد و الظلم، فهو موجب لمقاومتهم تجاه الباطل، أىّ باطلٍ كان، و سببٌ لإقامة الحقّ، أينما كان، فهى أى الكعبة تهدى الناس إلى أن يدوروا مع الحق حيثما دار، و تهدموا الباطل أينما ظهر،

۱- الحجر: ۲۹.

۲- نهج‌البلاغة، الخطبة: ۱۹۲.

۳- ديوان الحكيم السنائى الغزنوى.

۴- البقرة: ۱۲۵.

ص: ۱۳

لأنّ معها لا يُبدئ الباطل و لا يعيد: قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ. (۱) والدليل على كونها أى الكعبة عاملة للقيام هو قوله سبحانه: قِيَاماً لِلنَّاسِ. (۲) فهى محور المقاومة والوحدة الإسلامية من مشارق الأرض و مغاربها، و من يُرد فيها بظلم أو إلحاد يذقْه الله عذاباً أليماً.

و لعلّ بناء الخليل (ع)- الجذّاذ للأوثان و الأصنام- جعل الكعبة سبباً للقيام على كسر أصنام الجاهلية بإذن الله، و الشاهد على أنّ هذا البيت الرفيع بناؤه، هو استقرار مقامه فيه من أبعد عهدٍ إلى اليوم كما قال سبحانه: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ. (۳) والعربى الجاهلى جعله مأمناً للقاتل و كان يحفظه مادام هو فيه، و ليس ذلك لكونه معبداً للصنم، إذ لم يعهد إجْلال معبده أصلًا، حيث إنّه كم من معبد فى شرق الأرض و غربها للصنم و الوثن لا يعهد فيه مثل ذلك؛ والحاصل أنّ الكعبة سبب قيام الناس للاعتقاد.

وأنّ المال سبب قيام الناس للاقتصاد حسبما يستفاد من قوله تعالى: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً. (۴) فإذا قام الناس بالكعبة للاعتقاد، يتمّ لهم القيام بالمال للاقتصاد، و إذا قعدوا عنها و لا يقوموا بها للاعتقاد صار المال وبالًا و دولةً بين الأغنياء منهم، و يصيرون شيعاً يستضعف الغنىُّ منهم الفقير، و يستأثرون لأنفسهم ما الناس فيه شَرَعٌ سواء، و يخضمون مال الله خضم الإبل نَبْتَةَ الربيع، و يحومون حوم النثيل والمعتلف، أعاذ الله الأمة الإسلامية من هؤلاء، و من يحذو حذوهم.

۱- سبأ: ۴۹.

۲- المائدة: ۹۷.

۳- آل‌عمران: ۹۷.

۴- النساء: ۵.

ص: ۱۴

فالحج و العمرة سير إلى سبب القيام للاعتقاد، و تعديل لما هو عامل القيام للاقتصاد، إذ: ما جاع فقيرٌ إلّا بما مُتّع به الغنىّ.

إنّ التحقيق حول معنى التجلّى الممتاز عن التجافى، و حوم الحقيقة و الرقيقة يزيح أى شكٍّ يمكن أن يختلج ببال مَن لا يؤمن إلّا بما يراه جَهْرةً، فيقول: لو كانت الكعبة بحذاء البيت المعمور للزم سكون الأرض و السماء معاً، أو حركتهما من مبدإ خاص إلى منتهى مخصوص على سرعة خاصّة، حفظاً للمحاذاة، ذهولًا عن معنى التحاذى المعنوى، و غفلةً عن التقابل الملكوتى، و ما إلى ذلك مما يناسب تحاذيهما كمحاذاة البيت المعمور العرش المحاذى للكلمات الأربع.

إنّ الإنسان المطبوع على قلبه، المختوم على سمعه و بصره، كما يُبَدل هويّته، ويجعل فؤاده كالحجر أو أشدّ قسوةً، يجعل أوّل بيتٍ وُضع للناس بيت العنكبوت، و لا تكون عبادته لديه إلّا مكاءً و تصديةً، فمن دسّى نفسَه و خاب بتدسيسها، يُبَدل أقوى البيوت بأوهنها، و أمّا من عرف نفسه و زكّاها، يعرف قدرها و ينفتح له بذلك أبواب المعارف و الحِكم، و ينكشف له سرّ التعبير عن الكعبة بالبيت، مع أنّه لا بيوتة هناك لأحدٍ، والسرّ هو أنّ عنوان البيت يحكى الليل التى إليها بركات، لاتوجد فى النهار كما قال تعالى: إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا. (۱) و المرجوّ أن تتبرّك الأمّة الإسلامية على اختلاف مذاهبها ببركة الكعبة ما هو خير لها.

آمين يا ربّ البيت الحرام

القسم الأوّل: أبعاد الحجّ

۱- المزمل: ۶.

ص: ۱۵

القسم الأوّل أبعاد الحجّ

الفصل الأول الإسلام دين عالمى دائم

ص: ۱۶

لابدّ لكلّ إنسان من دين إلهى، ولا دين كذلك سوى الإسلام (۱)، كما لا يُقبل دين سواه، () (۲)، فالإسلام هو الدين الوحيد الجامع النازل من جانب الحقّ تعالى، والمشتمل على تمام الكمالات الإنسانيّة، والمهيمن على الأديان الباطلة كافّة، وهو الديانة الفريدة القابلة للإجراء والتطبيق لتكون مورداً لاستفادة الإنسان.

وبناءاً عليه، لابد لهذا الدين أن يحوى برامج وآليات يمكن توظيفها والاستفادة منها عبر التاريخ، وتظهر وتنجلى فى مناخ تعالى الإنسانيّة انجلاءً كاملًا وتاماً.

الشمولية والدوام من أكبر أوصاف الإسلام وأهمّها، أى إنّه يستوعب فى داخله أفراد الإنسان كافّة من السود والبيض والحمر وسائر الأعراق و ... كما يستوعب امتداد الزمان، فى ماضيه ومستقبله، إلى يوم القيامة.

وللإسلام، بوصفه أمراً إلهيّاً غالباً على الزمان والحركة والمادّة مصوناً من الزوال والاندثار، علّةٌ تامّة، مثله فى ذلك مثل سائر الممكنات، وهذه العلّة التامّة مكوّنةٌ من

۱- آل عمران: ۱۹.

۲- آل عمران: ۸۵.

ص: ۱۷

علّتين: إحداهما العلّة الفاعلة والأخرى العلّة القابلة، فالعلّة القابلة للإسلام هى الإنسان نفسه، والإنسان إنسان لا يتغيّر ولا يتبدّل بما جبل عليه من الفطرة الخاصّة والطينة المخصوصة () (۱). وأمّا العلّة الفاعلة له فهى الله الذى لا تناله يد التغييرات ولا تحظى بكرامته شباك التحوّلات، فإنّ ذاته منبع الحياة والنور والعلم والقدرة، ولا سبيل فيها أبداً للموت والظلمة والجهل والاعتلال، فهى الذات العليمة- إذن- بمصالح الإنسان ومفاسده، والأقدر على تعليمه وهدايته إلى المدارج الرفيعة وتحذيره من السقوط فى المهاوى السحيقة، وتبيين درجاتها والإعلام بدركاتها.

على هذا الأساس، فإنّ سرّ عالميّة الإسلام يكمن فى:

أوّلًا: إنّ نزوله كان لتفتيح براعم الفطرة الإنسانيّة، تلك الفطرة التى لا ترتهن لأرض خاصّة ولا لتاريخ معيّن، كما لا مسير زمنىّ لها، بل لا تنالها التأثيرات العرقيّة والقوميّة ولا الظواهر الجغرافيّة، ومن هنا تمثل البنية التحتيّة الراسخة للتربية، والأساس المحكم للإرشاد والتعليم.

ثانياً: إنّ معلّم الإنسان ومربّى البشريّة هو الإله الذى لا رخصة للجهل فى الولوج إلى حريم علمه المطلق اللامتناهى، ولا فسحة للسهو والنسيان إلى حرم أمن حضوره وشهوده الدائم. من هنا كان الدين المرضىّ عنده هو الأساس الثابت والبناء الدائم الذى لا يعرف الزوال فى هداية المجتمعات الإنسانيّة جمعاء.

والنتيجة المستخلصة أنّه لا مجال لتوهّم التغيير فى الإسلام، لا من ناحية الفاعل ولا من ناحية القابل، وهو ما تشهد له الآية الكريمة: () (۲)

۱- الروم: ۳۰.

۲- الشورى: ۱۳.

ص: ۱۸

أمّا اختلاف الشرائع والمناسك والمناهج فيما تحدّث الله تعالى عنه فى قوله سبحانه: () (۱)، فإنما يرجع إلى التخصيص لا إلى النسخ، بمعنى أنّ الظروف الخاصّة التى تعرض على المجتمع الإنسانى تستدعى حكماً فرعياً وقانوناً جزئيّاً محدوداً يتأطّر فى حدود تلك الظروف نفسها، ومن ثمّ فانتهاء أحد تلك الظروف وحصول تغيّر فى الأوضاع يفضى تلقائياً إلى انتهاء عمر هذا القانون أو الحكم.

إنّ الحجّ- كما سنوضحه فيما بعد وبوصفه أحد أهمّ مظاهر الإسلام- مظهر تام للمبدأين المشار إليهما، عنيت: الشمولية والدوام.

۱- المائده: ۴۸.

ص: ۱۹

الفصل الثانی مکانة الحجّ فی الإسلام

للإسلام مبادئ وأرکان، ومن أرکانه الحجّ، کما قال الإمام الباقر (ع): «بنی الإسلام علی خمسة أشیاء: علی الصلاة والزکاة والصوم والحجّ والولایة». (۱)

وعلیه، فمن لا یقیم الحجّ عمداً، یکون قد ترک رکناً من أرکان دینه الإلهی، ومن ثمّ یؤدّی ذلک إلی زوال الإسلام الکامل، من هنا عبّر الله تعالی عن الترک العمدی للحجّ بالکفر حین قال: (). (۲)

وحیث کان الإسلام دیناً عالمیاً، یعلن دائماً عن مبدئیه غیر الفانیین أی «الشمولیّة» و «الدوام»، لذا کان لابد لبرامجه أن تکون عالمیّةً أیضاً، وتبدو معلماً حیاً ومثالًا نابضاً بالشمولیة والدوام.

إنّ الحجّ أحد أبرز مظاهر البرامج الإسلامیّة العالمیّة، من هنا یمکن اعتبار دوامه وشمولیته شاهداً ناطقاً علی دوام هذا الدین الإلهی وشمولیته، ولکی نبیّن عالمیة الحجّ، وأنّه عبادة دینیّة تتمتّع بالدوام والشمولیّة، نشیر إلی بعض الشواهد القرآنیة علی ذلک:

۱- الکافی ۱۸: ۲.

۲- آل عمران: ۹۷.

ص: ۲۰

۱- الحجّ هو قصد الكعبة وزيارتها، وإنجاز مناسك خاصّة، والكعبة أوّل بيت وضع لعامّة الناس، وهى المركز الأوّل الذى يجذب إليه العابدين: (*...). (۱)

إنّ التعبير عن بناء الكعبة ب- «بكّة» التى تعنى الازدحام يدلّل على أنّ الكعبة كانت محوراً عالمياً يُرجع إليه من مختلف نواحى العالم عبر الزمن، وأنّه على إثر تعاظم حجم الوافدين إليه أطلق على هذا المكان «بكّة». (۲)

۲- تؤمّن الكعبة الهداية للناس أجمعين، قال سبحانه: () وبناء عليه لا تختصّ الكعبة بأىّ فئة أو قوميّة أو عرق، ومن هنا يجلّ الناس من ملل العالم المختلفة، أعمّ من الهندية والفارسية

۱- آل‌عمران: ۹۶- ۹۷.

۲- ذكرت حول كلمة «بكّة» وجوه عدّة نشير هنا إلى بعضها:

أ- بكّة تعنى مكة، غايته أنّه أبدلت ميمها بالباء، تماماً ككلمتى «لازب» و «لازم». انظر: مجمع البيان ۱- ۷۹۷: ۲.

ب- البك يعنى الدك، وحيث يتدافع الناس فى أطراف الكعبة ويصطدمون ببعضهم البعض، ويزاحم بعضهم بعضاً، أطلق على ذلك المكان «بكّة»: «لأنّ الناس يبكّ بعضهم بعضاً». انظر: بحار الأنوار ۷۷: ۹۶.

ج- سمّيت بكّة لأنّها تخضع الجبابرة والمتكبرين وتذلّهم، وتدكّ الاستكبار وتحطمه، كما قال أميرالمؤمنين الإمام على حول النسبة ما بين مكّة وبكّة: «مكّة أكناف الحرم وبكّة موضع البيت». ثمّ يتحدّث عن سبب تسمية ذلك المكان ببكّة فيقول: «لأنّها بكّت رقاب الجبارين وأعناق المذنبين». أنظر: بحارالأنوار ۱۲۷: ۱۰.

د- يجيب الإمام الصادق عن سؤال حول سبب تسمية الكعبة بكّة؟: «لبكاء الناس حولها وفيها». بحارالأنوار ۷۸: ۹۶.

لكن حيث إنّ التعليل المذكور فى هذه الرواية لا ينسجم مع القواعد اللغوية، حيث إنّ «بكّ» كان مضعفاً فيما كان بكى ناقصاً، يمكن أن يكون مراد الإمام أنّ الناس يلجؤون لعبادة الله والتضرّع فى كنف حضرته إلى ذلك المكان فيزدحمون عنده، ويتسبب ذلك فى تدافعهم وتصادمهم، ومن ذلك سمّيت «بكّة»، ومعه فيكون منشأ التسمية ب- بكّة هو ذلك الازدحام لا تلك الدمعات أو ذاك البكاء.

هذا وقد ذكرت وجوه أخرى لتسمية هذه البقعة ب- بكّة.

ص: ۲۱

والکلدانیة والیهودیّة والعرب، هذه الکعبة (۱)، إنّ الله تعالی یتکلّم فی ذلک لخلیله إبراهیم ۷ فیقول: (). (۲)

۳- ومن الشواهد الأخری علی المطلب المذکور قوله تعالی: (). (۳) ویتّضح من ملاحظة ذیل هذه الآیة: () (۴)، أنّ الناس لم‌تدع إلی زیارة الکعبة بعد نزول القرآن فقط، وإنّما کانت تقصدها قبل قرون سالفة من نزول الوحی علی النبی (ص)، ذلک أنّ العهد الإلهی لإبراهیم وإسماعیل کان تطهیر البیت لزوّاره والطائفین فیه والمعتکفین والراکعین الساجدین.

۴- شاهد قرآنی آخر هو قوله تعالی: (). (۵) فإذا کان هدف الأنبیاء الإلهیین کافّة إقامة العدل والقسط بین الناس، کما قال تعالی: (). (۶) فإنّ الکعبة تمثّل العامل المهمّ والعنصر الفاعل الذی یمکنه سوق تمام الخصوصیات العرقیة والجغرافیة والاختلافات المکانیّة والتباعدات الزمانیّة واللغویة ... سوقها جمیعاً نحو جهة واحدة ومقصد فارد، وکذلک کشف الأجانب والغرباء، وتهیئة الأرضیة المناسبة لقیام الناس کافّة بالقسط والعدل.

۱- المیزان ۳۵۸: ۳- ۳۶۳.

۲- الحج: ۲۷.

۳- البقره: ۱۲۵.

۴- المصدر السابق.

۵- المائده: ۹۷.

۶- الحدید: ۲۵.

ص: ۲۲

من هنا، یقول الإمام الصادق (ع): «لا یزال الدین قائماً ما قامت الکعبة». (۱)

۵- لا اختصاص فی الثقافة القرآنیة لشعب خاص أو قاطنی منطقة معینة فی امتثال القوانین الإلهیّة، لا سیما منها زیارة الکعبة، فلیس أبناء منطقة خاصّة ألیق من غیرهم فی القیام بمناسک الحج، فبعد المنزل فی هذا السفر المعنوی کقربه لا فرق أبداً.

قال تعالی: (). (۲)

۶- وکما کانت زیارة الکعبة فی الإسلام هجرةً عامّة جسمانیة إلی الله تعالی (۳)، ضروریّةً فی بسط العدل وإقامته، کذلک الحال فی الأدیان الأخری، حیث کان الحجّ قانوناً رسمیاً قائماً.

والشاهد علی شهرة الحج: أنّهم کانوا ینظّمون تواریخهم وأرقام سنینهم بالحج، تماماً کما حصل فی قصّة موسی وشعیب (ع)، حیث ورد التعبیر عن السنوات الثمانی (۴)، ب- (). (۵)

وطبقاً لما أرشدتنا إلیه الشواهد المذکورة أعلاه فإنّ الحجّ یمثل أحد أبرز مظاهر الإسلام التی تتحقّق فیها وتلیق بها مبادئ الدوام والشمولیّة، من هنا حصل لنبیّنا محمّد (ص) ما حصل من قبله لإبراهیم الخلیل، ومن قبلهما لآدم (ع). (۶)

من هنا، لم یکن الحجّ منسکاً خاصّاً ممیزّاً لملّة من الملل أو عصر من العصور، وإنّما هو حج دائم وعام، وانطلاقاً من ذلک دام وجوده محمیاً بین

۱- وسائل الشیعة ۱۴: ۸.

۲- الحج: ۲۵.

۳- انظر: وسائل الشیعة ۵: ۸.

۴- انظر: الکافی ۴۱۴: ۵، وبحار الأنوار ۶۴: ۹۶.

۵- القصص: ۲۷.

۶- راجع: وسائل الشیعة ۱۶۰: ۸- ۱۷۱.

ص: ۲۳

الأمم والشعوب المختلفة فيما مضى من سالف الأزمان مع تطاول السنين والأيام.

ص: ۲۴

الفصل الثالث معالم الحج فی القرآن الکریم

اشارة

۱- الحـج- بماله من کرامـة خاصّة- عهد إلهی یُتشـرّف به، من هنا، جاء التعبیر عن وجوبه بلغة المیثاق والعهد الإلهی الخاص: (). (۱) ولانجد مثل هذا العهد فی سائر العبادات، عهدٌ جاءت فیه کلمة الجلالة منضمّةً إلی اللام (ل-)، ومقدّمةً علی متعلقها.

لقد قال الله سبحانه فی أمر الصیام: «الصوم لی وأنا أجزی به» (۲)، والحج یستوعب الصیام، ذلک أنّ الحاجّ الذی لا یملک هدیاً یجب علیه صیام ثلاثة أیام فی الحجّ وسبعة بعد عودته، قال تعالی: (). (۳)

وهکذا کانت الصـلاة مشرّعةً فی الحج بالطواف؛ إذ «الطواف بالبیت صلاة» (۴)، علاوةً علی وجود فریضة الصلاة فی الحجّ، ذلک أنّ الطائف یقف بعد طوافه خلف أو جنب مقام إبراهیم (ع) لإقامة صلاة الطواف، قال سبحانه: (

۱- آل‌عمران: ۹۷.

۲- وسائل الشیعة ۲۹۰: ۷.

۳- البقرة: ۱۹۶.

۴- سنن النسائی ۲۲۲: ۵.

ص: ۲۵

). (۱) وبالصلاة هناك يُنال تمام ما للصلاة من مزايا وخاصيات.

من هنا، جاء فی الروایة أنّ الحج أفضل من الصلاة والصيام. (۲)

وهكذا، ينال الحاجّ بركات الزكاة فی حجّه، ذلك أنّ فی الحجّ إنفاقاً مالياً ونثاراً وإيثاراً يُعدم البخل ويبدّده، فيحفظ الحج بذلك الأرواح والنفوس عن التلوّث بكدورات البخل ويحميها منه، وكل من كان محفوظاً من البخل فهو من الصالحين المفلحين، قال سبحانه: (). (۳)

وحصيلة الكلام، إنّ الحج تركيبة من عبادات متنوّعة، تشمل فضائل كثيرة تحتويها تلك العبادات (۴)، ليس هذا فحسب، بل مع ذلك كلّه، فی الحجّ ميزته الخاصّة به، تلك التی لا يعثر عليها فی غيره، وهذه الميزة عبارة عن كون الحج عهداً و ميثاقاً خاصاً بين العبد وربّه سبحانه.

من هنا، جاء فی الروایة عن الصادق (ع): «ودّ من فی القبور لو أنّ له حجةً بالدنيا وما فيها». (۵)

وقفات مع الخطاب الإلهی الخاصّ بالحج

تذكر آية: (). (۶) وجوب الحج وتنصّ عليه، فی جوّ من التوكيدات الكثيرة، التی نشير هنا إلى بعضها:

أ- إن الجملة المشار إليها جملة خبرية، ودلالتها على الإنشاء أقوى من دلالة

۱- البقرة: ۱۲۵.

۲- من لا يحضره الفقيه ۲۲۱: ۲.

۳- الحشر: ۹.

۴- وسائل الشيعة ۷۷: ۸- ۸۳.

۵- المصدر السابق: ۸۲.

۶- آل‌عمران: ۹۷.

ص: ۲۶

الجملة الإنشائية نفسها عليه.

ب- إنّها جملة إسمية، وهی جملة يعدّ توكيدها على معنى الثبوت أكبر من الجملة الخبرية الفعلية.

ج- إنّ الوجوب قد بيّن فيها مرفقاً بلام التكليف فی كلمة «لله»، وهو تكليف قدّم- بسبب أهميته- على المبتدأ وهو «حِجُّ».

د- ولمزيد من التوكيد، جاءت «على» فوراً، وبدون فصل، عقيب كلمة «لله»، وهو ما يدلّ هنا على الوجوب ويرشد إليه.

ه- ورد ذكر المكلّفين (۱) فی الآية مرتين: ابتداءً بصورة الإجمال والعموم، واستمراراً بصورة التفصيل والخصوص.

ووجه التأكيد فی هذا السياق بيان الموضوع مع البدل، ثم ذكر البدل بمثابة التكرار، فبدل أن يقال: لله على المستطيع، قال: (... ...)، فقد جاء بدل بعض عن الكل فی الآية موضع كلمة «الناس».

و- ولم تذكر الآية فی تاركی الحج: «ومن ترك الحج»، بل عبّرت عنهم بكلمة (وَ مَنْ كَفَرَ ...)، وهو تعبير يقوم- كما تفيده الروايات- مقام ترك الحج. (۲)

ومن الواضح أنّه ليس المقصود بالكفر هنا الكفر الاعتقادی، بل الكفر العملی، وفی هذا المجال يقول الإمام الصادق (ع): «من مات ولم يحجّ حجّة الإسلام لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به، أو مرض لا يُطيق فيه الحج، أو سلطان يمنعه فليمت يهودياً أو

۱- إن سعة مفهوم الحج وشموله بلغ حداً غدت فيه إطافة المولود الصغير مشروعةً ومستحبةً، على خلاف سائر العبادات، التی يرى بعض الفقهاء أنّ القيام بها فی سن الصغر إنما هو للتمرين.

۲- بحارالأنوار ۹۳: ۶۹، ۱۱۰.

ص: ۲۷

نصرانیاً». (۱)

ز- إنّ جملة: () فی ذیل الآیة جاءت لإبراز عدم الاعتناء بتارک الحج، أی أنّ الله سبحانه لیس مستغنیاً عن تارک الحج فحسب، بل هو فی غنی أیضاً عن العالمین بأجمعهم.

۲- لقد عدّ الله سبحانه زمان الحج والعمرة ومکانیهما، وکذلک الحجّاج والمعتمرین، بل حتی الذین یقصدون الحج والعمرة من أقصی نقاط العالم دون أن یکونوا قد وصلوا بعدُ إلی المیقات، وکذلک أضاحی الحج، بل حتی ذاک الحذاء المتدلی- معلقاً- من رقبة الحیوان المصحوب، دلالةً علی صیرورته أضحیةً فی الحج ... عدّ سبحانه ذلک کلّه من الشعائر الإلهیة، فقد قال: (). (۲) کما تحدّث عن الصفا والمروة فقال: (). (۳)

ولکی یحثّ الآخرین ویرغبهم فی تعظیم الشعائر وحفظ الحدود الإلهیة، تحدّث عن آثار تعظیم الشعائر فقال: (). (۴)

۱- وسائل الشیعة ۱۹: ۸، تدلّ فاء التفریع فی «فلیمت یهودیاً أو نصرانیاً» علی الوجوب الفوری للحج، ذلک أنّ أحداً لا یعرف زمان موته، وهو فی کل لحظة عرضة لهذا الخطر المحتمل الهائل، لذا لا یمکن للمستطیع أن یکون نائباً عن غیره، ذلک أنه لیس لأحد حق تأخیر الحج عن سنة الاستطاعة.

أمّا تأخیر المسلمین حجهم عن عام فتح مکّة، وهو عام ۸ ه-، لمدة عامین، لیحجّوا فی السنة العاشرة، فقد کان ذلک بسبب عقد عقدوه مع المشرکین قبل فتح مکّة أن لا یردوا مکّة، أی أنّ الحج لم یکن واجباً علی المسلمین بسبب انعدام الاستطاعة السربیة تخلیة الطریق من هنا، أرسل رسول الله فی العام التاسع للهجرة، بعد فتح مکة، علی بن أبی طالب مع جمع من المسلمین.

۲- المائدة: ۲.

۳- البقرة: ۱۵۸.

۴- الحج: ۳۰.

ص: ۲۸

وقال: (). (۱)

۳- وتعدّ الآیة المبارکة: (). (۲) أنموذجاً آخر من الدوالّ علی أهمیة الحج، فرغم أنّ کلمة «الناس» تشمل تمام الأمور التی یواجهها الناس ویتعاملون معها، إلا أن ذکر الحج مستقلًا بعد ذلک، إنّما جاء من باب ذکر الخاص بعد العام لبیان أهمیة الخاص، لیقول: إنّ تغیّر أوضاع القمر وأشکاله جاء لکی یسهل علی الإنسان تحدید أشهر الحج، حتّی یتسنّی للناس المبادرة إلی إقامة الحج فی هذه الأشهر.

۴- ومع کثرة الآیات القرآنیة الحاکیة عن دلالة کل شیء علی الله سبحانه وحکایته عنه، إلا أنّ موضوع الحج جاء التعبیر عنه ب- (). (۳) و (۴) نظراً لما فی الحج من خصوصیات متنوّعة، زمانیاً ومکانیاً، ففی الحج آیات إلهیة، کالکعبة والحجر الأسود، ومقام إبراهیم، وزمزم وغیر ذلک من أمثاله مما هو واضح مشهود. فأرض قاحلة لا- تقبل الزراعة، تغدو بدعاء النبی إبراهیم (ع): (). (۵) کعبةً للمشتاقین، هی فی حدّ ذاتها من الآیات الإلهیة، کسائر برکات الحج وأسراره، مما لا یشاهد الکثیر منها سوی أولیاء الحق.

۱- الحج: ۳۲.

۲- البقرة: ۱۸۹.

۳- آل‌عمران: ۹۷.

۴- لمکّة والحرم آداب وسنن، تنشأ جمیعها من حرمة المسجد الحرام، وهکذا کانت للمسجد الحرام أیضاً آداب وأحکام وسنن، منشؤها احترام الکعبة، ولدی البحث عن مرجع الضمیر فی «فیه» و «دخله» فی الآیات الشریفة: فیه آیات بینات مقام إبراهیم ومن دخله کان آمناً و الحج: ۲۵، یلاحظ أنّه یعود تارةً- بتناسب الحکم والموضوع- إلی أرض مکة أو إلی دائرة الحرم، فیما یرجع أحیاناً إلی المسجد الحرام، وأخری إلی الکعبة، وهی القبلة والمطاف، وعلیه فلم یکن مرجع الضمیر واحداً، ذلک أنّه- وکما جاء فی أبحاث عدیدة متنوّعة- لیس من التهافت عود الضمیر المذکور إلی أکثر من مرجع، نعم الکعبة بما لها من خصوصیة بوصفها القبلة والمطاف تبقی مکانتها محفوظة.

۵- ابراهیم: ۳۷.

ص: ۲۹

۵- إضافةً إلی الآیات المذکورة آنفاً، ثمة آیات أخری طبّقت فی الروایات علی الحج أیضاً، ومن بین هذه الروایات، ثلاث روایات ننقلها هنا هی:

أ- معاویة بن عمّار قال: «سألت أبا عبدالله (ع) عن رجل له مال ولم یحج قط؟ قال: هو ممّن قال الله تعالی: (). (۱) قال: قلت: سبحان‌الله! أعمی؟ قال:

أعماه الله عن طریق الحقّ». (۲)

ب- عن أبی بصیر قال: «سألت أبا عبدالله (ع) عن قول الله عز وجل: (). (۳) قال: ذلک الذی یسوّف نفسه الحج- یعنی حجة الإسلام- حتی یأتیه الموت». (۴)

والمستفاد من هذین الحدیثین أن باطن تارک الحج أعمی فی الدنیا، وأنّ هذا الباطن، سیغدو ظاهراً فی الآخرة، ولهذا سوف یحشر هذا الإنسان فاقد البصر یوم القیامة.

ج- طبّقت فی بعض الأحادیث الآیة المبارکة: (). (۵) علی الحج، منها ما قاله الإمام الباقر (ع) فی تفسیر المراد منها: «حجّوا إلی الله». (۶)

معالم الحج فی الروایات

یعدّ الحج من أهم مظاهر الإسلام، نظراً لاشتماله علی الکثیر من السنن

۱- طه: ۱۲۴.

۲- وسائل الشیعة ۱۷: ۸.

۳- الإسراء: ۷۲.

۴- وسائل الشیعة ۱۷: ۸.

۵- الذاریات: ۵۰.

۶- وسائل الشیعة ۵: ۸.

ص: ۳۰

والأسرار، ولهذا وردت فی أهمیته، ومکانته، وأبعاده المختلفة، وأسرار تشریعه .. الکثیرُ من الروایات عن المعصومین (ع)، ونحاول هنا الاکتفاء ببعض ما جاء عنهم (ع) فی ذلک.

۱- عن معاویة بن عمّار عن أبی عبدالله (ع) عن أبیه، عن آبائه (ع): «أنّ رسول‌الله (ص) لقیه أعرابی فقال له: یا رسول الله! إنی خرجت أرید الحج ففاتنی، وأنا رجل مملیل، فمرنی أن أصنع فی مالی ما أبلغ به مثل أجر الحاج.

فالتفت إلیه رسول الله (ص) فقال: أنظر إلی أبی قبیس، فلو أنّ أباقبیس لک ذهبة حمراء أنفقته فی سبیل الله ما بلغت ما یبلغ الحاج.

ثم قال: إن الحاجّ إذا أخذ فی جهازه لم یرفع شیئاً ولم یضعه إلا کتب الله له عشر حسنات، ومحی عنه عشر سیئات، ورفع له عشر درجات، فإذا رکب بعیره لم یرفع خفاً ولم یضعه إلا کتب الله له مثل ذلک، فإذا طاف بالبیت خرج من ذنوبه، فإذا سعی بین الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، فإذا وقف بالمشعر الحرام خرج من ذنوبه، فإذا رمی الجمار خرج من ذنوبه.

قال: فعدّ رسول الله (ص) کذا وکذا موقفاً إذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه، ثم قال: أنی لک أن تبلغ ما یبلغ الحاج، قال أبوعبدالله (ع): ولا تکتب علیه الذنوب أربعة أشهر، وتکتب له الحسنات، إلا أن یأتی بکبیرة». (۱)

ولعل مراد النبی (ص) من التأکید علی خروج الحاجّ من ذنوبه عقب أداء کلٍّ من المناسک، الإشارة إلی أنّ کل واحد من هذه الأعمال له دور فی غفران نوع خاص من الذنوب، ولهذا کان واجباً لتحصیل هذه المغفرة الإلهیة، أو أنّ المراد أنّ الذنوب حیث تراکمت و خزّنت حتی غدت حجاباً یغطّی قلب المذنب الخاطیء کان کل منسک من هذه المناسک موجباً لإنقاصها، ورفع هذا الغطاء تدریجیاً عن صفحة

۱- وسائل الشیعة ۷۹: ۸.

ص: ۳۱

القلب.

۲- جاء فی وصایا النبی (ص) لأمیرالمؤمنین (ع): «یا علی! تارک الحج وهو مستطیع کافر، یقول الله تبارک وتعالی: () (۱)

».

۳- وعن أمیرالمؤمنین (ع): «... وفرض علیکم حجّ بیته الحرام، الذی جعله قبلةً للأنام، یَردونه ورود الأنعام، ویألهون إلیه وُلُوهَ الحمام، وجعله سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزّته، واختار من خلقه سُمّاعاً أجابوا إلیه دعوته، وصدّقوا کلمته، ووقفوا مواقف أنبیائه، وتشبّهوا بملائکته المطیفین بعرشه، یُحرِزون الأرباح فی متجر عبادته، ویتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالی للإسلام عَلَماً، وللعائذین حَرَماً، فَرَض حقّه، وأوجب حجّه، وکتب علیهم وِفادته». (۲)

۴- ویقول علی (ع) أیضاً حول فضیلة الحج والعمرة: «إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلی الله سبحانه وتعالی الإیمان به وبرسوله، والجهاد فی سبیله ... وحج البیتِ واعتماره، فإنّهما ینفیان الفقر، ویَرحَضان الذنب ...». (۳)

۵- ویحتلّ الحدیث عن الکعبة وأرض مکة وبیان سرّ کون بیت الله هناک قسماً أساسیاً من الخطبة القاصعة لأمیرالمؤمنین (ع)، ففی هذه الخطبة یشیر الإمام (ع) إلی تاریخ الحج، وإلی دوره فی خلق روح التواضع وتحطیم التکبر والاستکبار، إنّه یقول فی مطلع هذا القسم من خطبته: «ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأوّلین من لدُن آدم صلوات الله علیه إلی الآخرین من هذا العالم بأحجار لاتضرّ ولا تنفع، ولا تبصر

۱- آل‌عمران: ۹۷.

۲- نهج البلاغة، الخطبة: ۱.

۳- المصدر السابق، الخطبة: ۱۱۰.

ص: ۳۲

ولاتسمع، فجعلها بیته الحرام الذی جعله للناس قیاماً ...».

وفی ختام هـذا القسم من الخطبة جاء: «... ولکنّ الله یختبر عباده بأنواع الشدائد، ویتعبّدهم بأنواع المجاهد، ویبتلیهم بضـروب المکاره، إخراجاً للتکبّر من قلوبهم، وإسکاناً للتذلّل فی نفوسهم، ولیجعل ذلک أبواباً فُتُحاً إلی فضله، وأسباباً ذُلُلًا لعفوه». (۱)

۶- ویقول علی (ع) أیضاً: «الله الله فی بیت ربّکم، لا تخلوه ما بقیتم، فإنه إن ترک لم تناظروا». (۲)

(ع)- ویقول الإمام الباقر (ع): «بنی الإسـلام علی خمسـة أشـیاء: علی الصـلاة، والزکاة، والحـج، والصوم، والولایـة- وبعـد ذکر فضائل الخمسة قال-: قال رسول‌الله (ص): لحجة مقبولة خیر من عشرین صلاة نافلة» (۳)، رغم أن الصلاة عمود الدین و معراج المؤمن.

۸- ویتحـدّث الإمام الباقر (ع) أیضاً عن جامعیـة الحـج وقـدمه فیقول: «أتی آدم هـذا البیت ألف آتیة علی قدمیه، منها سـبعماءة حجّة، وثلاثماءة عمرة». (۴)

۹- وفی روایـة منقولة عن الإمام الصادق، جاء عن زرارة: «قلت لأبی عبدالله (ع): جعلنی الله فداک، أسألک فی الحج منذ أربعین عاماً فتفتینی، قال: یا زرارة! بیت حجّ إلیه قبل آدم بألفی عام ترید أن تفتی مسائله فی أربعین عاماً». (۵)

۱- المصدر السابق، الخطبة: ۱۹۲ القاصعة.

۲- نهج البلاغة، الرسالة: ۴۷.

۳- الکافی ۱۸: ۲- ۱۹.

۴- وسائل الشیعة ۹۴: ۸، وقد ذکر أن عمر آدم کان من ۹۳۰ إلی ۱۰۳۰ عاماً، فراجع ۲۶۸: ۱۱- ۲۶۹.

۵- وسائل الشـیعة ۷: ۸، وثمّـة بحوث یمکن طرحهـا تخصّ جملـة «ألفی عـام قبـل آدم»، کمـا توجـد بحوث تتعلّق بالأجیـال البشـریة القدیمـة، ولکنها خارجة عن طاقة هذه الدراسة، وإنما نشیر هنا إلی جملة «أربعین سـنة سؤالًا وجواباً» الواردة فی هذه الروایة، فقد ولد الإمام الصادق عام ۸۳ ه-، وتولی منصب الإمامة عام ۱۱۴ ه-، وقد توفی عام ۱۴۸ ه-، وبهـذا تکون مدّة حیاته المبارکة ۶۵ عاماً، فیما تکون مدّة إمامته ۳۴ عاماً، وبناءاً علیه، فمقصود زرارة من کلمـة «أربعین سـنة» ما هو أعمّ من فترة الإمامـة وما سـبقها، ذلک أن الإمام کان عالماً بالأحکام الدینیـة حتی قبل إمامته، عندما کان تحت زعامة الإمام الباقر، أو أنّ المراد فترة إمامته البالغة ۳۴ سنة، وجاء التعبیر بأربعین سنة علی سبیل المتعارف، حیث لا یحسب العرف کسور العقود الزمنیة، مکتفین بذکر الرقم التقریبی.

ص: ۳۳

۱۰- وعن الإمام الصادق (ع) حول علّة وجوب الحج: «فجعل فیه الاجتماع من الشرق والغرب لیتعارفوا ... ولتعرف آثار رسول الله (ص) وتعرف أخباره ویذکر ولاینسی». (۱)

۱۱- ویجیب الإمام الصادق (ع) أیضاً عن سؤال وجّه إلیه عمّن أنجز حجّه الواجب علیه، فهل التصدّق فی السنوات اللاحقة بدل الحج أفضل له أم لا؟ فیقول: «کذبوا، لو فعل هذا الناس لعطّل هذا البیت، إن الله عز وجل جعل هذا البیت قیاماً للناس». (۲)

۱۲- وحول الکعبة، یقول الإمام الصادق (ع) فی إحدی الروایات: «جعلها الله لدینهم ومعائشهم» (۳)، تماماً کما جاء فی روایة أخری: «لا یزال الدین قائماً ما قامت الکعبة». (۴)

والأصل هنا قیام الدین وقوامه، فالحج الذی لا یؤدی للدین ولا یُقام له لاثمرة من ورائه.

من هنا، قال النبی (ص): «یأتی علی الناس زمان یکون فیه حج المملوک نزهة، وحج الأغنیاء تجارة، وحج المساکین مسألة». (۵)

۱۳- وعن آثار الحج وبرکاته، یقول الإمام علی بن موسی الرضا (ع): «إنما أمروا بالحج لعلّة الوفادة إلی الله عز وجل، وطلب الزیادة، والخروج من کل ما اقترف العبد، تائباً مما مضی، مستأنفاً لما یستقبل ...».

إلی أن قال: «وقضاء حوائج أهل الأطراف فی المواضع الممکن لهم الاجتماع فیه،

۱- المصدر السابق: ۹.

۲- وسائل الشیعة ۱۴: ۸.

۳- المصدر السابق: ۴۱.

۴- المصدر السابق: ۱۴.

۵- المصدر السابق ۶۰: ۱۱.

ص: ۳۴

مع ما فيه من التفقّه ونقل أخبار الأئمة (ع) إلى كل صقع وناحية». (۱)

۱۴- وما ورد فى الحج بوضوح من الحق وسعة الرحمة لم يرد فى أىّ من العبادات الأخرى، فالله تعالى يتحدث عن وضوح الحق فى الحج بالقول: (). (۲) ذلك أنّ أسرار الحج، وهى آيات الله تعالى، ستكون واضحةً بينةً هناك.

سعة رحمة الحج

أمّا فيما يخصّ سعة رحمة الحج:

أ- فيتحدّث الإمام الباقر (ع) عمن خرج قاصداً الحج الواجب ثم مات وهو فى الطريق: «إن مات فى الحرم فقد أجزأت عنه حجة الإسلام ...». (۳)

وهذا مظهر من مظاهر سعة الرحمة، وأدب الضيافة الإلهية.

ب- ويقول رسول الله (ص) فى حجة الوداع، عند الوقوف بعرفات قريب الغروب: «إنّ ربكم تطوّل عليكم فى هذا اليوم، وغفر لمحسنكم، وشفّع محسنكم فى مسيئكم، فأفيضوا مغفوراً لكم». (۴)

ج- ولعلّه لما فى الحج من خصوصيات كهذه قال الإمام الصادق (ع) لعيسى ابن أبى منصور: «يا عيسى! إنى أحب أن يراك الله فيما بين الحج إلى الحج وأنت تتهيّأ للحج». (۵)

د- وفى رواية أخرى عنه (ع): «ليحذر أحدُكم أن يعوّق أخاه عن الحج، فتصيبه

۱- المصدر السابق ۷: ۸- ۸.

۲- آل‌عمران: ۹۷.

۳- وسائل الشيعة ۴۷: ۸.

۴- المصدر السابق ۶۵: ۸.

۵- المصدر السابق: ۱۰۶.

ص: ۳۵

فتنة فی دنیاه مع ما یُدّخر له فی الآخرة». (۱)

ذلک أنّه لا یمکن لأحد أن یمنع عن غیره خیراً کالحج، بل إن علی المسلمین الذین أقدموا بأنفسهم علی تأدیة فریضة الحج أن یشجّعوا الآخرین علیها ویحثوهم علی أدائها.

عظمة الحج فی أدعیة شهر رمضان

ویکفی لإبراز أهمیة الحج، مع أحکامه وحِکَمِه الخاصة، مطالعة ما جاءبصورة مکرّرة- فی طلب الحج فی أدعیة شهر رمضان المبارک (۲)، بحیث لانجازف إذا قلنا: إنّ صیام هذا الشهر، وأدعیته اللیلیة، ومناجاته السحریة، وأوراده الیومیة تهیء الإنسان للحج، ودرک ما قیل فیه من حکم ومفاهیم و ...، من قبیل: «الساجد بمکة کالمتشحّط بدمه فی سبیل الله». (۳)

و «تسبیحة بمکة أفضل من خراج العراقین ینفق فی سبیل الله». (۴)

و «من ختم القرآن بمکة لم یمت حتی یری رسول‌الله (ص)، ویری منزلته فی الجنة». (۵)

و «النظر إلی الکعبة حباً لها یهدم الخطایا هدماً». (۶)

إن طلب التوفیق لإدراک الحج فی أدعیة شهر رمضان المبارک ملفت للنظر، إلی

۱- المصدر السابق: ۹۸.

۲- مفاتیح الجنان، الأعمال المشترکة، أعمال لیالی وأیام شهر رمضان المبارک، دعاء أبی حمزة الثمالی، أدعیة لیالی القدر و ... وقد جاء فی قسم من الدعاء الأول فی الأعمال المشترکة: «اللهم ارزقنی حج بیتک الحرام، فی عامی هذا وفی کل عام ... اللهم إنی أسألک فیما تقضی وتقدّر ... أن تکتبنی من حجاج بیتک الحرام، المبرور حجهم ...».

۳- وسائل‌الشیعة ۳۸۲: ۹- ۳۸۳.

۴- المصدر السابق.

۵- المصدر السابق: ۳۴۰.

۶- المصدر السابق: ۳۶۵.

ص: ۳۶

حدّ ربما يمكن القول بأنّ الله سبحانه كان يريد توفير الأرضية المناسبة ليهيّء بذلك ضيافته عبر أشهر متعدّدة، لا سيما العشر الأوائل من ذى الحجة.

وبناءاً عليه، يكون شهر رمضان المبارك بداية الضيافة الإلهية، فيما يكون ذوالحجة منتهاها، وذلك فى موسم أداء مناسك الحج.

إن الحج ضيافة الله، والحجاج- كالصائمين- ضيوف الرحمن، تماماً كما قال الإمام الصادق (ع): «إنّ ضيف الله عزّوجل رجلٌ حجّ واعتمر، فهو ضيف الله حتى يرجع إلى منزله». (۱)

ويقول الإمام على (ع) فى ذيل جوابه عن سؤال: لماذا حرم الصوم فى أيّام التشريق؟ (۲): «لأنّ القوم زوّار الله فهم فى ضيافته، ولا يجمل بمضيف أن يصوم أضيافه». (۳)

إنّ هذه الضيافة ذات الأشهر المتعدّدة تقع على مرحلتين:

الأولى: يقول فيها المضيف لضيفه: أطلب ما تريد.

الثانية: إعطاء المضيف ضيفه ما كان طلبه منه.

فالضيافة الخاصّة بشهر رمضان المبارك توفر أرضيةً مناسبة لضيافة الحج، ففى شهر رمضان، يقول المضيف، وهو الله سبحانه، لعباده الصائمين: «اطلبوا منّى الحج»، أما فى الضيافة الثانية، أى فى مراسم الحج ومناسكه، فإنّ الحديث يكون عن العطاء لا الطلب.

ملاحظة

حيث كانت الولاية من أركان الإسلام والحج، جاء فى أدعية شهر رمضان المبارك- إلى جانب طلب الحج وزيارة بيت الله الحرام- طلبٌ آخر، وهو التشرّف بزيارة

۱- وسائل الشيعة ۴۵۸: ۱۰.

۲- أيام التشريق هى اليوم الحادىعشر والثانى عشر والثالث عشر من ذىالحجة، ويحرم على الحاضرين فى منى فى هذه الأيام الصيام.

۳- وسائل‌الشيعة ۱۵۹: ۸- ۱۶۰.

ص: ۳۷

العتبات المقدّسة وزيارة الحرم المطهّر لرسول الله ۹ والأئمة المعصومين (ع): «أللهم ... ارزقنى ... زيارة قبر نبيك والأئمة (ع)، ولا تخلنى يا ربّ من تلك المشاهد الشريفة». (۱)

الشرف الزمانى للحج

«ما من أيّام أزكى عند الله تعالى، ولا أعظم أجراً من خير فى عشر الأضحى». (۲)

و «ما من أيام، العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من أيام العشر، يعنى عشر ذى الحجّة ...، إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يرجع بشىء من ذلك». (۳)

يعتبر العارف الجليل الميرزا جواد آقا ملكى الحديثَ الثانى من هذين الحديثين النبويين أكثر أهميةً، وهو الحديث الناظر إلى عظمة العشر الأوائل من ذى‌الحجة وشرفها. (۴)

وسرّ هذه الأهمية فى الرواية الثانية حديثها عن المحبة، لا عن العظمة، ومجىء كلمة «أحبّ» فيها، وهى أكثر دلالةً واختزاناً للمعانى من «أزكى» و «أعظم».

والظاهر أنّ أفضلية الحج وأيّامه الخاصة لم تنشأ فقط من البعد العبادى الذى فيه، وإنّما ذلك من جوانب عدّة أخرى لها الدور فى هذه الأفضلية، فأهم حادثة وقعت فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، وهو أحد أشهر الحج، دحو الأرض، طبقاً لبعض الروايات، يعنى دحو الأرض ظهور أرض الكعبة وحرم الله واتساعهما. (۵)

وفى العشر الأوائل من ذى الحجة كان نزول سورة البراءة وإبلاغها بيد أمير التبرّى على بن أبى طالب (ع) أهم حادثة تاريخية حصلت، فقد كان الآخرون على

۱- مفاتيح الجنان، دعاء أبى حمزة الثمالى.

۲- وسائل‌الشيعة ۲۲۱: ۱۰.

۳- وسائل‌الشيعة ۲۲۱: ۱۰.

۴- التبريزى، المراقبات: ۳۲۶، الفصل: ۱۲.

۵- وسائل‌الشيعة ۳۳۱: ۷- ۳۳۲، و ۳۴۷: ۹- ۳۴۸.

ص: ۳۸

أمـل فی أن یکلّفوا إبلاـغ البراءة وقراءتها، إلا أن الوحی الـذی جاء بسورة البراءة وبلاغاتها، أعطی بنفسه أمراً لکی یبلّغ تبرّیها علی ید شخص یکون بنفسه مظهراً للتولّی والتبرّی.

«لا یؤدّیها إلا أنت أو رجلٌ منک».

من هنا، کان أمیرالمؤمنین علی (ع)- وهو الرسول نفسه (۱)- المکلّف بتبلیغها. (۲)

إنّ هـذه الأحـداث ونظائرها تـدلّل بوضوح علی أنّ زمان الحـج له من هذه الجهات المذکورة فضـیلة أیضاً، فکل زمان یمنحه مظروفه الشـرف، وکل مکان یمنحه المکین فیه الفخر، وإلا فلا فرق بین الأزمنة فی الجوهر، من حیث أجزائه، کما لا فرق فی المکان وجوهره بین الأبعاد الهندسیة، أی: الطول، والعرض، والعمق أو الارتفاع.

نعم، إذا ما کان لشیء فی مخزن الغیب تعیّن، فمن الممکن أن یحتوی علی خصوصیة، تظهر بعد التنزّل، أمّا لو لم یکن لهذا الشیء فی رتبة الغیب أیّ تعیّن، إنّما حاز تعیّنه فی المرتبة اللاحقة، فإن خصوصیته إنما تظهر فی مرتبة التعیّن تلک.

تنظیم العقود باسم الحج

ولکی تبقی السـنة الإبراهیمیـة فی الحج حیّةً فی ذاتها واسـمها، کان الأنبیاء الإبراهیمیون: ینظمون عقودهم واتفاقاتهم من أبسـطها إلی أهمّها فی موسم الحج أو باسـمه، تماماً کان الحال فی الاتفاق الذی وقع بین موسـی وشـعیب (ع) إجارةً واستئجاراً، فقد استخدم تعبیر «ثمانی حجج» بدلًا من ثمانی سنوات: (). (۳)

إنّ تسمیة هذاالشهر واشتهاره حتّی فی العهد الجاهلی بذیالحجة إنّما کان لأداء

۱- فی سورة آل عمران، الآیة ۶۱، جاء: ....

۲- بحارالأنوار ۳۰۳: ۳۵.

۳- القصص: ۲۷.

ص: ۳۹

«حج البيت» فيه، وهذه التسمية والشهرة تدلّ على شهرة مراسم الحج كما تدلّ على أهمّيتها.

أبرز اتفاقات أيّام الحج ومواثيقها

إن نيـل الكمال المعنوى والوصول إلى المقامات الساميـة يحتاج فى الحـدّ الأدنى إلى أربعين ليلـة ونهاراً متواصـلة من الجهاد والسـعى المخلص، «ما أخلص عبد لله عزوجل أربعين صباحاً إلّا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». (۱)

إن شـهر ذى القعـدة والعشـر الأوائـل من ذى الحجـة، وهى من أبرز مصاديق () (۲)، أبرز فرصـة لاتخاذ الأربعين المشار إليها. فعنـدما تشرّف موسى الكليم (ع) بمقام النبوّة الرفيع، عقد الله تعالى معه أهم اتفاق فى أشهر الحج: (). (۳) و (۴)

وقـد بـدأت هـذه الأربعين من بداية شـهر ذىالقعدة حتى العاشـر من ذىالحجة، حيث تبلغ مراسم الحج وزيارة بيت الله الحرام مبلغها، وقد كان موسى الكليم (ع) صائماً على الدوام خلال هذه الأربعين، ليلًا ونهاراً. (۵)

وفى هـذه الأربعين، ارتوى موسـى (ع) تماماً من شوق لقاء الحقّ تعالى، وكانت حصـيلتها، إضافـةً إلى شـهود الحق سـبحانه (۶)، تلقّى التوراة. (۷)

۱- بحارالأنوار ۲۴۲: ۶۷.

۲- الفجر: ۲.

۳- الأعراف: ۱۴۲.

۴- راجع: الكافى ۷۸: ۴؛ وتفسير العياشى ۲۵: ۲.

۵- الدرّ المنثور ۵۳۵: ۳- ۵۳۶.

۶- الأعراف: ۱۴۳.

۷- الأعراف: ۱۴۵.

ص: ۴۰

والمقصود هنا أنّ هذه المواهب والعطاءات كانت نصيب موسى (ع) فى أيام إقامة مناسك الحج.

إن هذا العهد والاتفاق، واحد من أبرز الاتفاقات والمواثيق التى وقعت بين الخلق (موسى) والخالق، فيما كان عقد الإجارة بين المخلوقين (موسى وشعيب (ع)) من أبسط العقود والاتفاقات الواقعة.

ص: ۴۱

الفصل الرابع الحج، تجسّد الأصول العقائدية

مظهر التوحيد

الخلوص شرط معتبر فی تمام العبادات، إلّا أنّ تجلّيه فی بعضها يبدو أكثر ظهوراً، كما وطرد الشرك أكثر قوّةً ووضوحاً، ومن بين هذه العبادات الحجّ، الذی يتجسّد فيه التوحيد، ويظلّ من بدايته وحتی نهايته، أنموذجاً للتوحيد ونفی الشرك، من هنا كان تركه كفراً. (۱) ومعنی تجلّی التوحيد فی الحج أن تنزّله فی درجاته يصيّره حجاً، كما أنّ صعود الحجّ كذلك يبلغ به الله تعالی أو يتحوّل إلی التوحيد. يقول الإمام الصادق (ع) فيما ينقل عنه من دعاء سفر الحجّ: «... بسم الله دخلت، بسم الله خرجت وفی سبيل‌الله ...» إلی أن يقول: «فإنما أنا عبدك وبك ولك». (۲)

وعلی أساس هـذه الروايـة، يغدو الحج سـيراً نحو الله سـبحانه، ورحلةً إلی لقائه، وسـعياً للقرب منه، ومن الواضح أنّ العبد لا يقدر علی التقرّب من مولاه إلّا

۱- آل عمران: ۹۷.

۲- وسائل الشيعة ۲۷۹: ۸.

ص: ۴۲

بالتوحید الدائم الأصیل، ونفی الشرک الجلیّ والخفی.

الشاهد الآخر هنا کلام النبی (ص) فی سفر الحج بعد حمل الجهاز علی الراحلة: «هذه حجة لا ریاء فیها ولا سمعة»، ثم قال: «من تجهّز وفی جهازه علمٌ حرام لم‌یقبل الله منه الحج». (۱)

وعلیه، فالحج توحید مجسّم وأنموذج من التوحید الجامع، والتوحید هو تلک الفطرة التی خلق الله الناس علیها، والتی لا تبدیل لها ...

الوحی المجسّم

الحجّ تمثیل للوحی، ذلک أن مناسکه تجلّت بالوحی وظهرت، وقد أخذها الأنبیاء عن الملاک الأمین علی الوحی جبریل (ع).

وتوضیح ذلک أنّ النبی إبراهیم (ع) طلب من الله سبحانه بعد بناء الکعبة أن یُبدی له کیفیة العبادة فی هذا البیت: () (۲)، وبعد هذا الطلب جاءه جبرائیل، وأنجز أمامه أعمال الحجّ، ودلّه علی مناسکه بصورة عینیة خارجیة، لیقوم الخلیل (ع) بتکرار هذه الأعمال بعده. (۳)

إنّ هذه الإراءة والتعلیم لم یکونا شیئاً جدیداً ولا من مختصات إبراهیم (ع)، بل قد تقدّمه آدم (ع) فی هذا المضمار، حیث ظهر له جبرئیل، کما ظهر أیضاً علی أفضل الأنبیاء وخاتمهم (۴)، فأخذ منه الرسول الأکرم (ص) مناسکه.

یقول الإمام الصادق (ع) فی هذا المجال: «إنّ الله بعث جبرئیل إلی آدم، فقال: ... إن الله أرسلنی إلیک لأعلّمک المناسک التی تطهر بها ...». (۵)

۱- وسائل الشیعة ۱۰۳: ۸.

۲- البقره: ۱۲۸.

۳- وسائل الشیعة ۱۶۰: ۸- ۱۷۱.

۴- المصدر السابق.

۵- المصدر السابق.

ص: ۴۳

ویقول الإمام الصادق (ع) أیضاً: «کنت أطوف مع أبی، وکان إذا انتهی إلی الحجر مسحه بیده، وقبّله، وإذا انتهی إلی الرکن الیمانی التزمه، فقلت: جعلت فداک، تمسح الحجر بیدک وتلزم الیمانی؟ فقال: قال رسول الله (ص): ما أتیت الرکن الیمانی إلّا وجدت جبرئیل قد سبقنی إلیه یلتزمه». (۱)

وبعد أن اتضح أنّ الحجّ وحی ممثل، وأنّ بانی الکعبة قد تعلّم مناسکه بالمشاهدة والعیان، لزم أن یکون الناس مأمورین بإقامة هذه المناسک التی ورثوها عنه، علّهم یرون بعضاً قلیلًا مما کان رآه (ع)، قال تعالی: () (۲)؛ ذلک أن ما یفهم من کلمة (یأتوک) فی هذه الآیة هو مجیء الناس عند إبراهیم (ع)، وبلوغهم ما کان (ع) قد بلغه من قبل، لا مجرّد السفر إلی مکّة وزیارة الکعبة، ذلک أنّ هذا التعبیر لا ینحصر بدائرة عمل المناسک والقیام بها.

فالوحیدون الذین یأتون إبراهیم (ع) هم أولئک الذین کانوا مثله فی الوقوف بوجه عابدی الهوی والأصنام (۳)، والتبرّی من الکفر والنفاق وما یعبدون من دون الله (۴)، مهیئین لتلقی ألوان المخاطر (۵)، بعقیدة حنیفیة وسلوک کذلک (۶)، وقلب سلیم (۷) حاضر فی محضر الله تعالی.

ومع الأخذ بعین الاعتبار هذه الخصوصیات، قال تعالی: () (۸)، من هنا قدّم رسول‌الله (ص)

۱- وسائل الشیعة ۴۱۹: ۹.

۲- الحج: ۲۷.

۳- الأنبیاء ۶۷.

۴- الزخرف: ۲۶.

۵- الأنبیاء: ۶۸.

۶- الأنعام: ۷۹.

۷- الصافات: ۸۴.

۸- آل‌عمران: ۶۸.

ص: ۴۴

قربانه الذی لم یقدّمه إبراهیم (ع) نفسه، ألا وهو الحسین بن علی (ع).

ومع ملاحظة النقاط المشار إلیها، یتضح أمامنا سرّ عرض إمام الزمان (ع) نفسه فی بدایة نهضته ضدّ الظلم ولأجل العدل علی أنّه أولی الناس بالأنبیاء سیما إبراهیم الخلیل ورسول الله (ع): «إن القائم إذا خرج، دخل المسجد الحرام فیستقبل الکعبة، ویجعل ظهره إلی المقام، ثم یصلّی رکعتین، ثم یقوم فیقول: یا أیها الناس! أنا أولی الناس بآدم، یا أیها الناس! أنا أولی الناس بإبراهیم ...». (۱)

ومن ذلک کلّه یتضح البُعد السیاسی للحج، أی البراءة من المشرکین وتجافیهم وإعلان الانزجار منهم، وقطع أیدیهم وتدخلاتهم، ذلک کلّه بشکل واضح وعلنی هو ما یمثل المناسک السیاسیة للحج.

المعاد المجسّم

لا یُعثر علی الحج بمناسکه الخاصة به فی أی عبادة أخری، ولا یعلم تأویلها غیر الله سبحانه، فهو معاد مجسّم، وحکایة عن یوم البعث والنشور، وکاشف واضح عن یوم الحشر، ذلک أن الناس تلبی هناک نداءاً واحداً علی مابینها من اختلاف فی اللغات والألوان، فتجیب أمراً واحداً، وتستجیب لصرخة واحدة، ولاآمر یُصدر أوامره لهم عدا الله الواحد القهار.

إن مناسک الحج أنموذج حیّ لأحداث القیامة والحشر الأکبر، وتمثُّل جلی لحشر الناس یوم القیامة عراة فی یوم معاد.

ونشیر هنا إلی نماذج من تجلّی المعاد فی الحجّ:

۱- اجتماع الحجاج فی المواقیت وعند المواقف.

۲- انفراد کل إنسان لوحده فی ظلّ هذا الجمع، تماماً کما هو الحال یوم

۱- بحارالأنوار ۵۹: ۵۱.

ص: ۴۵

المعاد، فهو وإن كان «جمعاً» تلتئم الناس فيه وتلتف حول بعضها: () (۱)، (*) (۲)، إلّا أنَّه يوم يعود الجميع فيه إلى الله فرادى، كما قال تعالى: (). (۳)

۳- فرار النـاس من غير الله إلى الله تعالى، كما يقول الإمام الباقر (ع) فى تفسـير قوله تعالى: ففرّوا إلى الله (۴): «حجّوا إلى الله عزّوجلّ». (۵)

۴- تعرّيهم من اللباس ومظاهر الحياة الدنيوية.

۵- تجرّدهم عن زينة الدنيا وزهرتها.

۶- رؤية الآيات الواضحة التى كانت مخفيةً عليهم فى ديارهم.

۷- خلعهم على أنفسـهم لباس الإحرام، وهو لباس شبيه بالكفن، ويستحب للحاج أن تكون قطعتا الإحرام كفنه، كما كُفّن النبى الأكرم (ص) فى لباس إحرامه. (۶)

۸- تـذلّل الحجيـج وتواضـعهم أمـام الله سـبحانه، حتى أنّهم يحجون مشاةً حفاةً بأرجل عاريـة، ذلك أنّه «ما عبـد الله بشـىء أفضل من المشى». (۷)

من هنا، حجّ الإمام الحسن المجتبى (ع) عشـرين حجةً ماشـياً (۸)، وفى هذا الصدد يقول الإمام الصادق (ع): «جُعل السـعى بين الصـفا والمروة مذلّةً للجبارين». (۹)

۱- التغابن: ۹.

۲- الواقعة: ۴۹- ۵۰.

۳- مريم: ۹۵.

۴- الذاريات: ۵۰.

۵- وسائل الشيعة ۵: ۸.

۶- المصدر السابق ۳۷: ۹.

۷- المصدر السابق ۵۵: ۸.

۸- المصدر السابق.

۹- المصدر السابق ۵۱۱: ۹.

ص: ۴۶

۹- اعتراف الناس بذنوبهم التى ارتكبوها.

۱۰- أمن الناس بل والوحوش والطيور.

۱۱- حماية الحجاج من التعدّى والجدال، وكلّ ما يوجب أذية المحرم أو عذابه، وهو تجسيدٌ واضح لقوله تعالى: (). (۱)

وحصيلة القول: الحج مظهر المعاد وتجسيده، وحيث كان المعاد رجوعاً إلى المبدأ كان أساساً للإسلام الكلى والخالد، لذا غدا الحج من أهم مظاهر الإسلام وأركانه.

۱- غافر: ۱۷.

ص: ۴۷

الفصل الخامس الولايۀ روح الحج

تمهيد:

لا ـ نفع للحـج بـدون الولايـۀ، ولا ـ لقصـد الكعبـۀ من دون الإمامـۀ، ولا ـ لحضور عرفات دون معرفـۀ الإمام، ولا للأضـحيۀ فی منی دون التضـحيۀ فی طريق الإمامۀ، ولالرمی الجمرۀ دون طرد شيطان الاستكبار الداخلی والخارجی، ولا للسعی بين الصفا والمروۀ دون السعی لمعرفـۀ الإمام وطاعته ... فإنّه وإن كان من أركان الإسـلام ومبانيه، إلّا أنّ الحج والصـلاۀ والزكاۀ والصوم لا تضاهی جميعها الولايۀ فی ركنيتها الراسخۀ والقويۀ للإسلام، «ولم يُناد بشیء كما نودی بالولايۀ». (۱)

منشأ حرمۀ الكعبۀ وعزّتها

من جملـۀ الأمور التی أقيمت عليها البراهين العقليـۀ، ضـرورۀ انتهاء كلّ ما بالعرض إلی ما بالـذات، ووفقاً لهـذا المبدأ الذی توافق عليه البرهان والقرآن، وكما أنّ كلّ عزّۀ- طبقاً لتصريح النص القرآنی- تنتهی إلی عزّۀ الله سبحانه: () (۲) و (). (۳)

۱- الكافی ۱۸: ۲.

۲- لمنافقون: ۸.

۳- فاطر: ۱۰.

ص: ۴۸

وفقاً لذلك كلّه فإن حرمة الكعبة وعزّتها لابدّ أن تنتهى إلى حرمة الحقّ سبحانه وعزّته تماماً، كما إذا دار الأمر بين هدم الكعبة وهدم الحقّ فإن الكعبة تغدو حينئذ قرباناً فداءاً للحق.

ولتوضيح الأمر لابدّ من القول: للحرم أحكام تبيّن عزّته وفضيلته، وتمام هذه الأحكام ناتج عن حرمة الكعبة وعزتها، وشاهد ذلك ما جاء فى الرواية عن أميرالمؤمنين (ع) حول سرّ الوقوف فى عرفات، وعدم وجوب الوقوف فى الحرم حيث قال: «لأن الكعبة بيته، والحرم بابه، فلمّا قصدوه وافدين وقفهم بالباب يتضرّعون»، ثم سئل الإمام (ع) عن جعل المشعر الحرام من الحرم فقال: «لأنّه لما أذن لهم بالدخول وقفهم بالحجاب الثانى، فلمّا طال تضرعهم بها أذن لهم بتقريب قربانهم، فلمّا قضوا تفثهم تطهّروا بها من الذنوب التى كانت حجاباً بينهم وبينه، أذن لهم بالزيارة على الطهارة». (۱)

فحرمة الأرض التى احترم الله كلّ ما فيها إنما جاءت من حرمة الكعبة نفسها، إلّا أنّه مع كون الكعبة القبلة الوحيدة، ومطاف العالمين، وموت المسلمين جميعهم إلى جهتها، والقصد إليها قصدٌ للهجرة إلى الله سبحانه، وأيضاً رغم أنّ لمكّة خصائص فقهية وسياسية ثابتة، تفتقدها سائر الأماكن والبقاع والمدن، ورغم أن للحج ومواقفه أبعاداً سياسية- عبادية تفتقدها بقية العبادات ... إلّا أن تمام هذه الخصائص والمزايا مرهونة للولاية والإمامة.

وسرّ هذا الكلام أن الإرشادات والإدارات الملكوتية للأعمال والنيات، والأدعية، ومشاهدة الآيات البينات، وفهم الأسرار المعنوية للحج، وأمثال ذلك يتمّ جميعه فى ظلال الولاية التكوينية للإمام المعصوم (ع)، كما أنّ الإدارة والرعاية السياسية للحج

۱- وسائل الشيعة ۱۵۹: ۸- ۱۶۰.

ص: ۴۹

ومواقفه، وتوجيه حركة هذا الاجتماع العظيم للصالحين على محور البناء الطاهر الحر، والاستفادة من أفكار أقطار العالم، وارتواء عطاشى الاستقلال والنجاة من الاستعباد والاستكبار العالمى، إنما يكون بالأصالة تحت مظلّة إمامة الإمام المعصوم (ع) وبالنيابة فى عصر الغيبة تحت شعاع نوّابه.

ارتباط الحج وشؤونه بالولاية

ترتبط الجوانب والشؤون المختلفة للحجّ بالولاية، ونعرض هنا شرحاً لكيفية هذا الارتباط بين الكعبة والولاية، وكذلك طبيعة العلاقة بين كلّ من عرفات والمشعر ومنى وزمزم والصفا و ... وبين الإمام المعصوم (ع)، وذلك فى ثقافة الوحى ووفق ماجاء على لسان الأئمة المعصومين:.

۱- تتمتع مدينة مكة ودائرة الحرم كلّه ببركة خاصة إثر دعاء الخليل إبراهيم (ع)، وقد جعلت بهذا الدعاء بلداً آمناً، تماماً كما يقول الله تعالى: (). (۱)

إن هذا الأمن الاجتماعى، والاقتصادى وغيره، الذى جاء بيانه فى آية () (۲) وآية: () (۳)، إنما كان لما للكعبة من حرمة، إلّا أنّ هذا الاحترام الخاص الذى كان أساساً لقسم الله سبحانه بهذا البلد، إنما جاءها من بركات الوحى، والنبوة، والرسالة، والولاية.

وتوضيح ذلك، أن القرآن الكريم أقسم ببلاد وبقاع هامة وتاريخية، كما أقسم

۱- القصص: ۵۷.

۲- قريش: ۴.

۳- العنكوب: ۶۷.

ص: ۵۰

بالزمان والأوقات الحسّاسة والتاريخية، نظير عصر الوحى والرسالة (۱)، قال تعالى: (*). (۲)

ففى هـذه الآيات يقسم الله سبحانه بأرض مكّة، لكن قسماً مقيداً بكون نبى الإسلام (ص) فيها، وإلّا فإن مكة من دون النبى، والكعبة من دون قائد سماوى ليستا سوى أرض عادية، وبيت عادى غدا تدريجياً بيتاً لعبادة الأصنام، وأصبح أسيراً فى قبضة عبدة الأوثان والسائرين خلف ميولهم وشهواتهم حتى أن «أبو غبشان» سادن الكعبة ومن بيده مفاتيحها يبيع مفتاح الكعبة وغلقها إلى رجل يدعى قصى بن كلاب مقابل بعير وزق خمر، وذلك فى ليلة ثملة. (۳)

۲- ويعرّف الإمام السجاد (ع) نفسه وسائر الورثة الحقيقيين الإلهيين فى المسجد الجامع بدمشق، بعد الحمد والثناء الإلهيين، والسلام على النبى الأكرم (ص) فيقول: «.. أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا». (۴)

إن كلمة «ابن» وأمثالها فى اللغة العربية تحكى عن علاقة شديدة وارتباط دائم ومستحكم، فالإنسان الكامل، وهو أصل حرمة المراكز العبادية، وفى الوقت عينه إبنها ووارثها، يرجع فى طليعة الأمر إليها ويعمل طبق أحكامها، بل يجعل ذلك كلّه ضمن الشعارات الرسمية للموحدين، فيرغب فيها، ويرهب من الإعراض عنها أو الاعتراض عليها أو معارضتها، وفى المحصّلة النهائية: إنّه حافظ مآثرها وحارس آثارها، إن الأنبياء والأولياء الإلهيين: هم كذلك بالنسبة إلى مناسك الحج.

وبعبارة أخرى: إنهم أبناء هذه المواقف العبادية بلحاظ بعض النشآت الوجودية، وهم أمراؤها وأصلها ومصدرها بلحاظ نشآت وجودية أخرى.

۱- العصر: ۱.

۲- البلد: ۱- ۲.

۳- الميزان ۳۶۲: ۳.

۴- بحار الأنوار ۱۳۸: ۴۵.

ص: ۵۱

ومعنى الكلام النورانى للإمام السجاد (ع) أن الابن الحقيقى لمكّة إنما هو حامى روح القبلة، وحارس قلب المطاف ونفسه، إن الابن الواقعى لمنى هو ذاك الذى لايأسف على إيثار بدم أو نثار، بغية حفظ الوحى وما فيه، إنّه يُحكم علاقته بأرض التضحية عبر الفداء والعطاء.

إنّ المولود الحقيقى لزمزم إنما هو الذى يرشّ أفضل الدماء تحت أقدام غرس الإسلام، حتى تنمو بذلك وتكبر، كما أنّ الابن الواقعى للصفا، هو الذى لا سبيل للرجس والنجس والرجز إلى حرم قلبه، فهو منزّه- طبقاً لآية التطهير (۱)- عن مختلف أنواع الرجس، وكل قذارة ولوث ودنس.

عرفات دون معرفة الإمام

الإنسان الكامل هو الإمام المعصوم (ع) والذى بدونه لا حرمة للحرم ومواقفه، من هنا، فالزائر الذى لا يعرف الإمام المعصوم، ويضع جانباً مسألة الإمامة، ويتخذ إدارة أمور المسلمين فى العالم هذواً وباطلًا، ويفصل ما بين قيادة سواد الناس وبين الحج والزيارة وسائر العبادات، ويراها أمراً عادياً يرجع إلى خيار كل فرد من الناس، ولايرى كرامةً لهداية خلق الله وتدبير أمورهم ... لا يعرف فى الحقيقة الإنسان، بل لم تطأ قدمه حريم الإنسانية، من هذا المنطلق يتحدّث الإمام الباقر (ع) عن مثل هذا الزائر والحاج فيقول: «أترى هؤلاء الذين يلبّون، والله لأصواتهم أبغض إلى الله من أصوات الحمير». (۲)

ومع الأخذ بعين الاعتبار مقولة رسول الله (ص): «من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتةً جاهلية» (۳) و «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون، وكما

۱- الأحزاب: ۳۳.

۲- وسائل الشيعة ۵۷: ۹.

۳- المناقب ۲۴۶: ۱.

ص: ۵۲

تبعثون تحشرون» (۱)، فإن حياة الإنسان الـذى لا يعرف إمامه هى حياة جاهلية، وكلّ سـننها وشؤونها إنما هى جاهلية فى جاهلية، ومن المؤكـد قهراً أن زيـارة مثـل هؤلاء للبيت وحجهم سيكون حجاً جاهلياً، ولن يكون لهم نصيب من الحـج التوحيـدى، وسـيأتى مزيد توضيح.

۳- لقد أعدّ الله سبحانه عذاباً لكل من أراد بالكعبة ظلماً وقصداً سيئاً: () (۲)، من هنا وانطلاقاً من هذه السّنّة الإلهية التى لا تبديل فيها، والحكم الإلهى الخالـد، لم تكن واقعـة الفيل، والتى تلقّى فيها جيش أبرهـة عـذاباً إلهياً، واقعـةً حصـرية لا تكرار فيها، أو مجرد صـدفة تاريخية.

الأمر الرئيس الـذى لا ينبغى الغفلة عنه، وهذه الدراسة متكفلة لبيانه، هو أنّ الكعبة رغم قداسـتها الخاصة، وحمايتها- منذ قديم الأيام- من أذى حملات أصـحاب الفيل وأمثال ذلك، إلّا أنّه عنـدما التجأ إليها ابن الزبير وتحصّن فيها، أقدمت حكومة ذلك العصـر الجبارة، وعلى يـد المنحوس الحجاج بن يوسف الثقفى على قصف الكعبـة بالمنجنيق وتدميرها، ثم اعتقال ابن الزبير (۳)، دون أن تمتدّ يدٌ من الغيب لتفعل فعلها أو تتدخّل.

يتحدّث الشيخ الصدوق، المحدّث الشيعى الشهير، عن هذا الأمر فيقول: «وإنما لم يجر على الحجّاج ما جرى علىتبّع وأصحاب الفيل، لأنّ قصد الحَجاجلم يكن إلى هدم الكعبة، إنّما كان قصده إلى ابن الزبير، وكان ضدّاً لصاحب الحقّ، فلمّا اسـتجار بالكعبة أراد الله أن يبيّن للناس أنّه لم يجره، فأمهل من هدمها عليه». (۴)

وعليه، فاختلاف أبرهة عن الحجاج فى أنّه ظالم أراد تخريب الكعبة وتدمير

۱- عوالى اللئالى ۷۲: ۴.

۲- الحج: ۲۵.

۳- بحار الأنوار ۲۸۷: ۲.

۴- من لا يحضره الفقيه ۲۴۹: ۲.

ص: ۵۳

القبلة، أما الحجاج فلم يكن يقصد الكعبة بسوء، بوصفها قبلةً ومطافاً، بل كان يريد- فقط- السيطرة على ظالم مثله لم يكن يعرف إمام زمانه، ألا وهو سيد الشهداء والإمام السجاد (ع).

نعم، الحجاج كابن الزبير جرثومة لا تعرف الحق، وعنصر مناهض للولاية، وقد كان الطرفان ساعيين للإطاحة بنظام ولاية أهل البيت:، وكان خصامهم على حطام الدنيا، لا لعدم مساعدة ابن الزبير لسيد الشهداء والإمام السجاد (ع).

ومن هذا الحدث يتضح جيداً أن معارضة الولاية والإمامة أمر منبوذ جداً إلى حدّ أنّ كلّ من يخالف قيادة الإمام (ع) ويذره وحيداً فريداً دون أن يساعده، بل يتخذ موقفاً مضاداً له، ثم يزعم لنفسه أنه داعية الولاية، لن ينعم بالأمان الخاص الإلهى حتى لو احتمى بالكعبة وقصدها.

ومن هذه الحادثة يعلم جيداً قدر الإمام وحرمة الولاية وعزّة الخلافة الإلهية، تماماً كما يعلم بالتحليل العقلى قدر حقه (الإمام) ونورانيته، وجماله، وجلاله، وكبريائه، ومشيئته، وقدرته جيداً، ذلك أن حرمة الحرم والبلد الأمين إنما تنتهى إلى الكعبة، وحرمة الكعبة تنتهى إلى الإمام الذى اختاره الله سبحانه للولاية، وحرمة الإمام تنتهى بدورها إلى الحق المطلق، أى الله تعالى الذى تخضع له تمام الموجودات وتخشع فى حضرته ومكانته.

وعليه، فلو أمهل الله سبحانه ظالماً ليخرّب الكعبة، فلا ينتقض بذلك قوله تعالى: (). (۱)

ملاحظة

رغم أنهم قتلوا الإمام المعصوم (ع) وغدا على يديهم شهيداً، إلّا أنّ حقيقة الإمامة

۱- الحج: ۲۵.

ص: ۵۴

قائمة بروحه الملكوتية التى لا مجال للشهادة فيها، ولا سبيل للموت إليها، على خلاف بدنه الذى يعرف الشهادة، وهذا ما يختلف الحال فيه مع الكعبة التى لاوجود فيها إلّا للأحجار والأبعاد المادية.

۴- ويشاهد الإمام الباقر (ع) الطائفين بالكعبة، فيقول: «هكذا كانوا يطوفون فى الجاهلية»، فلم يأت الإسلام لكى تستمرّ السنن الجاهلية، ثم يقول: «إنما أمروا أن يطوفوا، ثم ينفروا إلينا، فيعلمونا ولايتهم، ويعرضوا علينا نصرهم» ثم قرأ: (). (۱)

وعليه، فثمة وظيفتان على كاهل القادمين من بعيد أو قريب للتشرّف بالكعبة المعظمة هما:

أ- أن يطوفوا ببدنهم حول الكعبة، بوصفها طيناً وأحجاراً.

ب- أن يطوفوا بأرواحهم حول «كعبة القلب» وحرم ولاية أهل بيت النبوة.

وعليه، فأولئك الذين جاؤوا بأرواحهم ليعرضوا ولايتهم على أهل البيت:، ويعلنوا جهوزيتهم للتضحية والفداء وتقديم النفوس والإيثار بالمال يحققون حينئذ «حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر». (۲)

۵- يقول الإمام الباقر (ع): «تمامُ الحجّ لقاءُ الإمام» (۳)، بعرض الولاية عليه والإعلان عن الاستعداد للفداء والتضحية؛ وعليه فالحج الذى لا ظهور فيه للإمام والقائد والمرشد سيكون حجاً ناقصاً.

نعم، ذكر الحج فى هذا الحديث الشريف إنما جاء من باب التمثيل، لا التعيين، أى أنّه ليس الحج فقط حاله «تمام الحج لقاء الإمام»، بل إنّ «تمام الصلاة والصيام والزكاة

۱- إبراهيم: ۳۷؛ وانظر: بحار الأنوار ۸۷: ۶۵.

۲- نهج البلاغة، الخطبة رقم: ۳ الشقشقية، المقطع ۱۶.

۳- وسائل الشيعة ۲۵۴: ۱۰.

ص: ۵۵

لقاء الإمام» أيضاً.

ويؤيد هذا الكلام، أى أن الصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات إنّما يتممها لقاء الإمام وتولّيه، ما جاء فى قسم من الحديث المعروف الذى يتحدّث عن قيام الإسلام على خمسة أسس، إذ- وفى إطار التأكيد على مبدأ الولاية- يشير الحديث إلى دور «الوالى» وكونه حجةً ودليلًا على الأركان الأربعة الأخرى، فيقول: «والوالى هو الدليلُ عليهنّ». (۱)

وهذه المسألة مستفادةٌ من الآية الكريمة: () (۲)، فقد رضى الله سبحانه لنا الإسلام مع الولاية الإلهية، وعليه، فليس الحج وحده «تمام الحج لقاء الإمام» بل يمكن القول: «تمام الإسلام لقاء الإمام».

ونشير أخيراً إلى أنّه رغم انتهاء احترام الحرم بالكعبة، وحرمة الكعبة بالوحى والنبوّة والرسالة والولاية، إلّا أنّه- وكما أشرنا مطلع هذا البحث- تختتم تمام هذه الحرمات بالحرمة الإلهية.

من هنا ذكر الله تعالى فى إطار شرحه لسبب احترام الكعبة ما جعلها تنتسب إليه فقال: () (۳)، أى أنّ الحرمة الذاتية لله سبحانه هى السبب وراء الحرمة العرضية للبيت الذى ينتسب إليه، حتى لو كانت الكعبة هى الأصل فى حرمة الأشياء اللاحقة.

۱- الكافى ۱۸: ۲.

۲- المائدة: ۳.

۳- البقرة: ۱۲۵، والحج: ۲۶.

ص: ۵۶

الفصل السادس الحج و الوجه السياسى

الحج مظهر الحكومة الإلهية السامية

الحـج- كما تبيّن- مظهر لأصول الـدين المتينـة وتجسّـدٌ للعقائد الثلاثة: التوحيد، والنبوّة والعدل، تلك الأصول التى تعدّ ثماراً لشـجرة الإسلام الطيبة.

وأحـد أظهر هذه الثمار فى هذه الشـجرة الطيبة هو الحكومة الإسـلامية، وهى من أهمّ مظاهر الإسـلام، فالمجتمع الذى لا يديره الله ولا يسرى فيه أمره مجتمع كفر وطغيان، ومعبود مثل هذه المجتمعات إنما هو الأهواء المختلفة والرغبات المتنوّعة.

بهـذه المقدّمة، نصل إلى فهم أسـرار بعض مضامين أدعية عرفة، فالمضـمون المشترك لدعاء سـيد الشـهداء الإمام الحسـين (ع)- وهو أهم دعاء فى عرفـة- مع دعاء الإمام السـجّاد (ع) الـذى اعتبر وجودَ الإمام العادل أساساً لإحياء آثار الـدين ... المضـمون المشترك هو أهمية الولاية فى النظام الإسلامى.

وثمة شواهد عدّة على أن الحجّ مظهر الحكومة الإسـلامية، وأن لهذه الحكومة تأثيراً على بقائه واسـتمراره وتكرّره، نشـير إليها هنا على الترتيب التالى:

۱- كان من أدعية إبراهيم وإسماعيل (ع) عند بناء الكعبة: (

ص: ۵۷

). (۱)

وسرّ هذا الدعاء والطلب أن الموحدين قد دعوا للحج من تمام نقاط العالم المختلفة وفى تمام الأزمنة والعصور، إذاً فلابد أن يكون هناك من ينظم أمورهم، فعلاوةً على المناسك العبادية للحج لابد أن تكون لديهم أصول وأحكام أخرى تتعلّق بحياتهم السياسية، وهذه هى الحكومة الإسلامية عينها، التى تغدو ضرورةً لتنظيم أمور الحجيج وسياستهم وإرشادهم.

إنّ الدين الذى يقول: «إذا كنتم ثلاثة فى سفر فأمّروا أحدكم» (۲)، حاشاه أن يذر الناس على حالهم هناك، ولا يضع على هذا الجمع العظيم الذى لا يحصى حاكماً أو آمراً، بل يتركهم يسيّرون أمورهم بأهوائهم ورغباتهم.

وبناءاً عليه، كان لزاماً أن يكون هناك من يكون القائد لهم والرائد فيهم، حتى تنظم معاملاتهم، وتصوّب نزاعاتهم، وتنتهى خصوماتهم، وترتّب أنماط معيشتهم وعلاقاتهم ببعضهم بل وعلاقاتهم بسائر الملل والشعوب.

على هذا الأساس، يقول الإمام على (ع) لواليه على مكّة: «أقم للناس الحج» (۳)، والمستفاد من هذا الأمر أنّ الحجّ لم يقم بعد وفاة النبى (ص) طيلة خمس وعشرين عاماً، عنيت الحج الإبراهيمى والمحمدى. (۴)

۱- البقرة: ۱۲۹.

۲- المحجة البيضاء ۵۸: ۴.

۳- نهج البلاغة، الرسالة: ۶۷، المقطع ۱.

۴- إقامة الحج غير أداء الحج، لذا رغم أنّ الأئمة قد ذهبوا إلى الحج مراراً، كما كان الحال مع الإمام الحسن حيث حج ماشياً عشرين مرّة، وسائل الشيعة ۵۵: ۸، وكذا الإمام السجاد حيث حجّ اثنتين وعشرين مرة فى الحدّ الأدنى الكافى ۴۶۷: ۱، إلّا أنهم لم يستطيعوا إقامة الحج أبداً إلّا فى تلك الفترة التى كانت الدولة فيها والسلطة بيد أميرالمؤمنين الإمام على، نظراً لعدم كون الدولة فى أيديهم، ولعلّه لذلك جاء فى زيارة الأئمة المعصومين: «أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف ...» دون إشارة إلى إقامة الحج.

ص: ۵۸

۲- یجب علی مرشد الدولة الإسلامیة وقائدها، أن ینفق قدراً من بیت المال لدفع الناس إلی الذهاب إلی مکة عندما یمتنع عامة المسلمین عن الذهاب إلیها أو لا یکون ذلک فی مقدورهم، فیدعم مالیاً العاجز، ویجبر الممتنع علی ذلک.

جاء فی الحدیث: «لو عطّل الناس الحج لوجب علی الإمام أن یجبرهم علی الحج، إن شاؤوا وإن أبوا، فإن هذا البیت إنما وضع للحج». (۱)

وسرّ تعبیر الإمام الصادق (ع) فی هذا الحدیث: «إنّ هذا البیت إنما وضع للحج»، هو أنّ للکعبة خصوصیات قیمة تدفع الناس للسفر إلیها، فإذا لم یسافروا إلیها- لقصور أو تقصیر- ولم یؤدوا فریضة الحجّ عندها، کان علی والی المسلمین أن یجبرهم حتی یتجهوا ناحیة البیت الحرام، ویلتحقوا بدائرة الطواف، ولا یترکوا ذلک.

إنّ هذه هی الحکومة الإسلامیة التی یدیرها حاکم عادل، ویکون بیت مال المسلمین فی یده.

جاء عن الإمام الصادق (ع) فی حدیث آخر: «لو أنّ الناس ترکوا الحج لکان علی الوالی أن یجبرهم علی ذلک، وعلی المقام عنده، ولو ترکوا زیارة النبی (ص) لکان علی الوالی أن یجبرهم علی ذلک، وعلی المقام عنده، فإن لم یکن لهم أموال أنفق علیهم من بیت مال المسلمین». (۲)

ویستظهر من هذه الروایة أن زیارة الرسول الأکرم (ص) بمنزلة تجدید للبیعة معه والمیثاق لتحکیم الحکومة الإسلامیة.

۳- قال الإمام الباقر (ع): «إنما أمر الناس أن یأتوا هذه الأحجار، فیطوفوا بها، ثم یأتونا فیخبرونا بولایتهم، ویعرضوا علینا نصرهم». (۳)

۱- وسائل الشیعة ۱۵: ۸- ۱۶.

۲- المصدر السابق.

۳- المصدر السابق ۲۵۲: ۱۰.

ص: ۵۹

فإذا كانت الحكومة والولاية بغير معنى السياسة، فلا حاجة لإخبار الإمام بالولاية وعرض النصرة عليه.

۴- يتجلّى الإسلام الذى بعث به الأنبياء فى التوحيد الذى يطرد مختلف أنواع الشرك وألوانه، (). (۱)

ولا ينحصر هذا الإبعاد للشرك والطرد له فى مجرّد الاعتقاد القلبى أو الذكر القالبى، بل يستوعب إعلان الانزجار، ونداء التبرّى، وصرخة البراءة من الطغاة الأراذل وكل متجبّر متمرّد لئيم، وهذا ما يتحقق فى الحج، ذلك أنّه موضع «الإعلام» و «الأذان» بتبرّى الإسلام من ألوان الشرك، وأن المسلمين بريؤون من المشركين، وأنّه لا مودّة ولا أُلفة بين المسلمين والمشركين: (). (۲)

ومفاد هذه الآية تبلور البُعد السياسى فى الحجّ، وتجلّى الاستقلال الثقافى، حتى لا تبقى سيطرة لأحد من الكفار والمشركين على أىٍّ من المسلمين، فهل يمكن أن يكون ذلك غير التجسيد لأرفع مراتب الحكومة الإسلامية فى الحج؟ وهل يمكن طرد رؤوس الإلحاد وتدمير مواقعهم ومتاريسهم إلّا فى ظلّ الحكومة الإسلامية؟!

إذا لم يكن للإسلام حضور سياسى فى منى، وهى التى فسّر بها «الحج الأكبر» (۳)، فلا يمكن إعلان البراءة من عمّال الجور وعبدة الطاغوت، تماماً كما لايمكن قيام الناس بحجم العالم، ونشر الاستقامة وتعميمها على العالم- وهو ما بُنيت الكعبة لأجله- سوى بإقامة نظام إسلامى.

۱- النحل: ۳۶.

۲- التوبة: ۳.

۳- وسائل الشيعة ۶۱: ۱۰- ۶۲.

ص: ۶۰

ولعلّه لهذه الأسباب أو سائر الأسرار الإلهیة المستورة عنا، لم یحج سید الشهداء الإمام الحسین (ع) عام ۶۰ للهجرة رغم مجیئه إلی مکّة، فأدی عمرةً مفردةً احتراماً للکعبة (۱)، ویؤیّد ذلک، ما جاء فی کلامه (ع) فی دعاء عرفة حول الحکومة الإسلامیة.

ولمزید من إیضاح فکرة ظهور الحکومة فی الحج وتجلّیها فیه، لابدّ من الترکیز المضاعف علی ما قام به الرسول الأکرم (ص) فی حجة الوداع، وما قاله للناس، وما قرّره لهم من القضایا السیاسیة الهامة وغیرها.

المظهر التام للتبرّی من الطاغوت

بُعث الأنبیاء الإلهیون جمیعهم کی لا یفرش نسر الشرک وطائره ریشه فوق قلّة هرم التوحید، وأن لا یحرموا بشیطان الطاغوت والعصیان فی حرم الوحدانیة السامی (۲)، فالکعبة والحج والزیارة محور التقوی، وأساس الاجتناب عن الطغیان، والتمرّد فی وجه الطاغوت.

لقد أظهر المولی سبحانه مناسک الحج بالوحی لخلیله إبراهیم (۳)، ولا ثمر لذلک ولانتاج سوی التوحید، وهذه المناسک التوحیدیة هی التی علّمها خاتم الأنبیاء (ص) لسالکی طریقه ومتّبعیه، حیث قال: «خذوا عنی مناسککم». (۴)

وحیث قام بناء التقوی الفولاذی علی قاعدة التوحید التی لاتهتز أو تختلّ، وکان

۱- کانت لدی الإمام الحسین عزیمة للخروج من مکّة ومنذ البدایة، لا أنه شرع بعمرة التمتع، ثم أردفها بحج التمتع، فصار الحج واجباً علیه، لکنه أبدل حج التمتع بالعمرة المفردة إثر صدّه عنه، والشاهد علی ما نقول، روایة عن الإمام الصادق، جاء فیها: «.. وإنّ الحسین بن علی خرج یوم الترویة إلی العراق، وکان معتمراً». أنظر: وسائل الشیعة ۲۴۶: ۱.

۲- النحل: ۳۶.

۳- البقرة: ۱۲۸.

۴- عوالی اللئالی ۲۱۵: ۱.

ص: ۶۱

الحج هو التجسید الجلی للتوحید؛ قال الله سبحانه- ضمن إصداره أوامر الحج-: (. ...). (۱)

وحول الأضحیة- وهی من مناسک الحج- التی کانت ممتدّة فی تاریخ السنن والعادات الجاهلیة مشوبةً بالشرک، یکلّمنا الله تعالی فی إرشاد تقوائی فیقول: () (۲)، أی یناله الاجتناب عن الذنوب، والقیام ضدّ العاصی، والتورّع عن المعصیة، والثورة ضدّ المذنبین المتمرّدین، والإمساک عن العصیان، والصرخة ضدّ العاصی، والاجتناب عن الطغیان، والهجوم علی الطواغیت و ...

کلّ عبادة هی تبرؤ من الشرک وانزجار من الطاغوت، أما الحج فهو عبادة خاصة امتزجت بالسیاسة واختلطت، وإن حضور مختلف شرائح المجتمع العالمی وطبقاته یمثل ظرفاً مناسباً لتجلی روح هذه العبادة- کسائر العبادات الإلهیة- فی هذا الجمع العظیم، وظهور هذه العبادة الممتازة فی تلک الساحة ظهوراً تاماً.

من هذا المنطلق، أمر رسولُ الله (ص)- بأمر من الوحی الإلهی- الناطقَ باسم الحکومة الإسلامیة- وهو علی بن أبی طالب (ع)- أن یعلن البراءة من المشرکین (۳)، حتی تمتاز بشکل قاطع حدود التوحید عن الطغیان والشرک، وتتخارج صفوف المسلمین المتناسقة عن صفوف الکفار، فتظهر- عبر ذلک- الصورة السیاسیة العبادیة للحج، ویحمل زوّار الکعبة زاد التوحید معهم مع استماعهم إلی قرار الحکومة الإسلامیة الصادر بالانزجار من الشرک، وإعلان نبذ الصلح والمصالحة مع المشرکین. (۴)

من هنا، ینتشر قرار التوحید وإعلانه ببرکة الکعبة فی أقطار العالم المختلفة، تماماً

۱- البقرة: ۱۹۷.

۲- الحج: ۳۷.

۳- بحارالأنوار ۳۰۳: ۳۵.

۴- التوبة: ۳.

ص: ۶۲

کما یتوجه المسلمون کافة فی الکثیر من شؤون حیاتهم ناحیة الکعبة.

محور البراءة من المشرکین

لا کمال أرفع ولا أسمی من نیل التوحید الأصیل الخالص، ولا یمکن ذلک ولایتسنّی إلّا بالتنزه والتبرّی التام من مختلف ألوان الشرک والإلحاد، والرفض لکلّ مشرک وملحد.

من هنا، جعل الله سبحانه الکعبة بیت التوحید، واعتبرها محوراً للبراءة من الذنوب والعصیان والتهاوی، بل مهّد لذلک وهیأ سبله عبر الأمور التالیة:

أولًا: أصدر المولی سبحانه وتعالی أوامر لخلیله إبراهیم (ع) بعد إتمام بناء البیت العتیق الطاهر، بیت المواساة والمساواة، وبعد تشریع قرار الأمن للحرم أمام الضیوف والزوار والرکع السجود والعاکفین والطائفین، فقال: (). (۱)

والهدف من هذا الإعلان العام دعوة أولئک القادرین علی الحضور بشکل طبیعی ومتعارف.

ثانیاً: عندما یأتی الجمیع، من الشرق والغرب، ومن الشمال والجنوب، ومن القریب والبعید ... فیشترکون فی هذا الملتقی الشامل الواسع، تصل النوبة للإعلان المحمدی والأذان، من هنا قال تعالی: (). (۲)

کان هذا الإعلان الذی سبق مقدّمةً للإعلان الثانی، الذی هو الهدف النهائی لبناء الکعبة، وإعلامه هذا الهدف النهائی یعنی الوصول إلی التوحید متبلوراً علی صورة

۱- الحج: ۲۷.

۲- التوبة: ۳، ومن مصادیق أیام الحج الأکبر فی هذه الآیة الکریمة یوم عرفة، ویوم عید الأضحی، تماماً کما الحج الأکبر قیاساً بالعمرة، والعمرة قیاساً إلیه حج کبیر.

ص: ۶۳

إعلان براءة الله ورسوله الأكرم (ص) من المشركين، ومادام الإنسان حياً يرزق على وجه البسيطة، فإنّ الحج والزيارة يبقيان فى عهدته وضمن مسؤولياته، ومادام ثمة مشرك فى هذا العالم كان إعلان البراءة منه جزءاً من أهم وظائف الحج.

بهذا تتضح مسؤولية نهوض الأمّة لتطهير الكعبة المقدّسة من ولاية الطغاة والنفعيين الوصوليين، أولئك السرّاق الذين قال عنهم الإمام الصادق (ع): «أما إن قائمنا لو قد قام لقد أخذهم، فقطع أيديهم، وطاف بهم، وقال: هؤلاء سرّاق الله». (۱)

إنّ القيام لتطهير الكعبة وتخليصها من يد الأشرار شريعة إبراهيمية، لا يصرف النظر عنها سوى فاقد العقل، (). (۲)

وحيث كان رسول الله (ص) ومن اتبعه وآمن به أولى الناس بإبراهيم، وهو الذى طهّر الكعبة من ألوان اللوث والنجاسة والخسّة و ... (۳) فعلى الأمة الإسلامية اليوم أن تطهّر بيت الله سبحانه من مختلف القبائح والدنائس والنجاسات.

نعم، ليس المقصود مجرّد إبعاد الجسم المادى للمشرك حتى يُقال: لا مشرك فى الحجاز اليوم كى يحصل التبرّى منه فى موسم الحج! بل المراد من البراءة إعلان الرفض والتنديد والانزجار من كل فكر مشوب بالشرك، وكلّ تمدّن باطل لأولئك الذين تأثروا بهذا الشرك، وكل استعمار ظالم للملحدين، وكل استثمار طاغ للماديين، وكل استعباد قاس مجحف للمستكبرين، وكلّ استعمار سامرى (۴) للإسرائيليين، وكل استضعاف ماكر للدول العظمى.

والحج أهم الأمكنة التى يتجلّى فيها هذا الأمر، وقمم هذه النهضة، حيث يلزم على المسلمين فيه حفظ حرمة الله تعالى، والسعى لرفع عزة الحقّ عالياً، والتقوّى بقوّته، وأخذ

۱- وسائل الشيعة ۳۵۵: ۹.

۲- البقرة: ۱۳۰.

۳- آل عمران: ۶۸.

۴- نسبة إلى السامرى الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم.

ص: ۶۴

المـدد والعون منه، والتخلّق بالأخلاـق الإلهيـة، حتى لا يصـيروا موضـعاً لظلم الظالمين وبطشـهم، فالحـج هجرة إلى الله تعالى، يقصـده الناس لأداء مناسكه من مختلف نقاط الدنيا.

ص: ۶۵

القسم الثانى: أماكن الحجّ

القسم الثانى أماكن الحجّ

الفصل الأول الميقات

وجوب الإحرام من الميقات

ص: ۶۶

من الأمور الهامّة فی الحجّ والعمرة (۱)، معرفة مواقیت الإحرام، ذلک أن عقد الإحرام

۱- الحجّ فی اللغة، القصد المکرّر، أما فی الإصطلاح، فیُقصد به إنجاز الأعمال الخاصة فی أیّام محدّدة فی أرض مکة المکرّمة.

أما العمرة، فتعنی فی اللغة الزیارة، واعتمرَ أی زار مجمع البحرین ۱۲۷۰: ۲، مادة: عمر، وحیث کانت الزیارة باعثةً علی عمران مکانها ومحلّها، سمّیت زیارة بیت الله الحرام عمرةً واعتماراً.

والحجّ والعمرة أعمالٌ تعبّدیة، لا توصلیة؛ حیث یستفاد ذلک من تعبیر «لله» الوارد فی قوله تعالی: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلّهِ ... البقرة: ۱۹۶ نعم، لهذه الأعمال العبادیة منافع أیضاً، قال سبحانه: وَ أَذِّنْ فِی النّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ الحج: ۲۷- ۲۸، و هو أمرٌ لا ینافی العبادیة، کما لا یستلزم التوصلیة.

ویقع الحجّ علی أنواع ثلاثة: التمتّع، والقران، والإفراد؛ فحجّ التمتّع مرکّب من عبادتین: إحداهما عمرة التمتّع، وثانیتهما حج التمتّع، أمّا عمرة التمتّع فتقدّم علی حجّ التمتّع، وتتألّف من خمسة أجزاء هی: ۱- الإحرام ۲- الطواف حول الکعبة. ۳- صلاة الطواف. ۴- السعی بین جبلی الصفا والمروة. ۵- التقصیر، أی أخذ مقدار من شعر الرأس أو الأظافر.

ویتألّف حج التمتّع من ثلاثة عشرة عملًا هی: ۱- الإحرام من مکّة. ۲- الوقوف بعرفات. ۳- الوقوف بالمشعر الحرام. ۴- رمی جمرة العقبة فی منی. ۵- ذبح الأضحیة فی منی. ۶- حلق الرأس فی منی أو تقصیره. ۷- طواف الزیارة فی مکّة. ۸- صلاة الطواف. ۹- السعی بین الصفا والمروة. ۱۰- طواف النساء. ۱۱- صلاة طواف النساء. ۱۲- المبیت فی منی لیلتی الحادیعشر والثانیعشر من ذیالحجّة، وبعض الحجّاج یجب علیه المبیت لیلة الثالث عشر أیضاً. ۱۳- رمی الجمرات الثلاث فی یومی: الحادی عشر والثانی عشر، وعلی من بات فی منی لیلة الثالث عشر أن یرجم صبیحتها أیضاً.

أمّا العمرة المفردة، فإضافةً إلی الأعمال المتقدّمة فی عمرة التمتّع، هناک عملان آخران واجبان فیها هما: طواف النساء، وصلاة طواف النساء، ویجب إنجاز هذین العملین بعد الحلق أو التقصیر.

وللتعرّف علی أجزاء هذه العبادات وشرائطها تراجع کتب مناسک الحج.

ص: ۶۷

من مصادیق إتمام الحج والعمرة، وهو- أی الإتمام- ما جاء الأمر الإلهیّ به (۱)، جاء فی الحدیث: «من تمام الحجّ والعمرة أن تحرم من المواقیت ...». (۲)

والمیقات مکانٌ خاص، والمواقیت أماکن محدّدة عیّنها رسول الله (ص) علی أساس الوحی الإلهی لأهل الأقالیم، والجدیر ذکره أنّ رسول الله (ص) حدّد مواقیت لأهل أفریقیا، وأهل الشام والعراق، یُحرمون منها عند ورودهم الحرم الشریف مع أنّه لم یکن بعدُ قد تشرّف أحد فی تلک الدیار بشرف الإسلام، بل إنّ المدن الرسمیة والمعروفة فی العراق لم تکن- وفق بعض المنقولات- قد ظهرت بعدُ عند تحدید النبی (ص) للمواقیت. (۳)

والمواقیت الخاصّة المحدّدة خمسة أو ستة، إلّا أنّ المواضع التی یصحّ فیها الإحرام للحجّ والعمرة تبلغ العشرة تقریباً، وللمواقیت المعینة خصوصیة، أنّها المکان الوحید المناسب لحدوث الإحرام فیه، فلا یجوز تقدیم الإحرام عنها أو تأخیره، أللّهم إلّا فی حال الضرورة أو النذر أو لإدراک إحرام شهر رجب.

والجدیر ذکره أن الدخول إلی الحرم لا یجوز إلا محرماً، لیس هذا فحسب، بل إن العبور عن المواقیت لمن یقصد الحرم لا یجوز له إلّا فی حال الإحرام أیضاً.

والمیقات لا یقبل التغییر، تماماً کسائر المواقف مثل عرفة والمشعر ومنی، وإذا ما صار جزءاً من قریة أو مدینة نتیجة حصول توسعة فیهما یبقی له حکمه دون

۱- البقرة: ۱۹۶.

۲- وسائل الشیعة ۲۲۲: ۸.

۳- یقول الإمام الصادق ۷: «فإنّه وقّت لأهل العراق ولم یکن یومئذ عراق» انظر: وسائل‌الشیعة ۸: ۲۲۲.

ص: ۶۸

تعديل، فالتنعيم مثلًا- وهو أحد مواقيت العمرة- كان سابقاً خارج حدود مكّة، إلّا أنّه غدا اليوم- بعد اتساع المدينة- داخلها، ومع ذلك لم يخرج عن صفة الميقات التى كان يملكها.

وثمّة أفكار كثيرة يمكن استفادتها من النصوص الواردة فى بيان المواقيت، نحاول هنا الإشارة إلى بعضها وهى:

۱- إنّ تعيين الميقات المكانى إنما نشأ- كالميقات الزمانى- من جانب الشارع المقدّس وطبقاً للسنّة الدينية، لا من ناحية عادات الناس.

۲- إنّ تعيين مواقيت لأبناء بعض البلدان والمدن التى لم تكن قد ظهرت بعدُ، أو لأناس لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام هو- كما أشرنا من قبل- إعجاز دينى.

۳- للأحكام الشرعية كافة أصل فى الوحى الإلهىّ، مع أنّه لم تبيّن علل كلّ حكم معه، إلّا أنّ بعض المواقيت، مثل ذى الحليفة قد جاء فيه: «قلت لأبى عبدالله (ع): لأىّ علّة أحرم رسول الله (ص) من مسجد الشجرة ولم يُحرم من موضع دونه؟ فقال: لأنّه لما أسرى به إلى السماء وصار بحذاء الشجرة نودى يا محمد! قال: لبيك، قال: ألم أجدك يتيماً فآويتك، ووجدتك ضالًا فهديتك؟ فقال النبىّ (ص): إنّ الحمد والنعمة والملك لك كلها لا شريك لك، فلذلك أحرم من الشجرة دون المواضع». (۱)

ورغم ما للميقات من حرمة خاصّة، إلّا أنّ تلك المكانة إنّما أخذها من كونه موضعاً للإحرام، وحيث قام الإسلام على السهولة والسماحة، لا سيّما فى الحجّ والعمرة حيث لا تكرار فيهما يومياً كالصلاة حتى تكون أحكامه عند الجميع .. من هنا فلو تجاوز شخص عن غفلة أو قصور أو ذهول أو سهو ونسيان عن موضع الإحرام وميقاته دون أن يحرم، ثمّ دخل الحرم وهو على هذه الحال، وأنجز تمام أعمال الحجّ والعمرة طبقاً للضوابط المعهودة، ثمّ التفت آخر العمل أنّه لم يعقد

۱- وسائل الشيعة ۲۲۵: ۸.

ص: ۶۹

الإحرام، کانت أعماله بتمامها صحیحةً، فلا حاجة له إلی الإعادة أوالقضاء.

ص: ۷۰

الفصل الثانی الحرم الإلهی

اشارة

الحرم موضع مکانی محدّد، یختلف بُعد حدوده عن الکعبة من الجهات المتعدّدة، فیحدّه من ناحیة الشمال والشمال الغربی مسجد التنعیم علی طریق المدینة، ومن الجنوب والجنوب الشرقی «إضاءة اللبن» علی مسیر الیمن، ومن الشرق والشرق المائل إلی الجنوب «الجعرانة» القریبة من منی والمشعر الحرام علی طریق الطائف، ومن الغرب والغرب الشمالی «الحدیبیة» علی مسیر جدّة.

وقد وُضعت لتعیین حدود الحرم من الأطراف کافّة علائم وعلامات.

ویجیب الإمام علی بن موسی الرضا (ع) عن سؤال وجّه إلیه عن سبب اختلاف حدود الحرم فی بعدها عن الکعبة من الجهات المتعدّدة، ففی بعضها قریبة وفی بعضها أبعد؟: «إنّ الله عزّ وجلّ لمّا أهبط آدم من الجنّة هبط علی أبی قُبیس، فشکا إلی ربّه الوحشة، وأنّه لا یسمعُ ما کان یسمعه فی الجنّة، فأهبط الله عزّ وجلّ علیه یاقوتةً حمراء، فوضعها فی موضع البیت، فکان یطوف بها آدم، فکان ضوؤها یبلُغُ موضع الأعلام، فیعلّم الأعلام علی ضوئها وجعله الله حرماً». (۱)

وقد نقل هذا المضمون بطریقة أخری عن الإمام الباقر (ع)، وطبق هذا النقل، فإنّ الله

۱- الکافی ۱۹۵: ۴- ۱۹۶.

ص: ۷۱

تعالی أمر جبرئیل؛ لتسکین آدم (ع) وحواء، بالذهاب إلیهما، «فأهبط علیهما بخیمة من خیم الجنّة .. وأنصب الخیمة علی التُرعة ..»، ویضیف الإمام الباقر (ع) ما هو قریب من الروایة السابقة: «الترعة مکان البیت .. وکان عمودُ الخیمة قضیب یاقوت أحمر، فأضاء نوره وضوؤه جبال مکّة وما حولها .. فهو مواضعُ الحرم الیوم من کلّ ناحیة من حیث بلغ ضوءُ العمود .. فجعله الله حرماً لحُرمة الخیمة والعمود؛ لأنّهما من الجنّة ..». (۱)

أمن الحرم

اشارة

لقد أحیا النبی إبراهیم (ع)، وهو شیخ الأنبیاء الإبراهیمیین، سنّةً وسیرةً، إلا أنّ بعض أعماله وبعض مناجاته تعدّ من جوامع الکلم، فطلبه صیرورة هذا المکان بلداً، وأمناً مطلقاً، ومجمعاً لثمار مختلفة من أقطار العالم، والتنبؤ بصیرورة مکان غیر ذی زرع أمَّ القری وغیرها من الکلمات الجامعة له (ع)، ذلک کله یقع فی صراط تأسیس نظام التوحید، ونشر الإیمان والعمل الصالح، والقیام بتنمیة شاملة للمعارف العقائدیة، والأخلاقیة، والاجتماعیة، والسیاسیة، ذلک أنّها إذا کانت موضعاً لسکان أرضها الآمنة فحسب لم تکن- أبداً- أمّ القری، فنواحیها لیست بالمکان الآمن، وقطّاع الطرق فی عمق الصحراء المحیطة سوف یقطعون أیّ نوع من أنواع الارتباط، مما سیمنع تردّد أبناء الأطراف المحیطة إلیها، کما لن تصل محاصیل أطرافها من القریب والبعید إلیها، ولن تکون سوقاً رسمیة.

یمکن للحرم الإلهی وأرض مکّة أن تحمل علی عاتقها مسؤولیة العالمیة بل العولمة الصحیحة، وذلک:

أولًا: توفیر مایمکّنها من أن تصیر أمّ القری، وتبعیّة نواحیها لها، ورغبة الناس

۱- الکافی ۱۹۵: ۴- ۱۹۶.

ص: ۷۲

وشوقهم للمجیء إلیها.

ثانیاً: إنها مرکز التوحید، أی أنّها تستوعب بین جنباتها الکعبة، وهی القبلة والمطاف أیضاً.

ثالثاً: وصول نداء بانی الکعبة، نبینا إبراهیم (ع) الذی بناها بأمر من الله تعالی، وهو صاحب البیت، ذاک النداء الداعی للحضور إلی ساحة هذا البیت بغیة الحج والعمرة ... وصوله إلی أسماع العالم بأقطاره ونواحیه، ومن الثابت أنّ فضیلةً عظیمةً معدّة لامتثال هذا الأمر الإلهی الإلزامی.

إن سرّ تقدیم الأمن علی الدعوة إلی الحجّ والعمرة، وعلی جلب أنواع الثمار من النواحی القریبة والبعیدة إلی هذه الأرض الطیبة هو أن الأمن أطیب النعم الفردیة والاجتماعیة للإنسان وأجملها وأحبّها إلی قلبه، ففی ظلّ الأمن تتحقق سائر البرکات المفقودة، کما أن فقدانها یصاحبه زوال هذه النعم الموجودة.

ومن أبرز مصادیق الأمن ومظاهره، الأمن الثقافی والفکری، ووجود مناظرات ثقافیة سلیمة؛ ذلک أن الحوار وتضارب الآراء، والصبر علی آراء الآخرین العلمیة المنصفة، یلعب دوراً رئیساً فی وضوح الحق وجلائه، ومحو الباطل واندثاره.

لقد کان إبراهیم (ع) رائداً فی الحوارات العلمیة، وفی الجدال بالتی هی أحسن، بل فی تمام الخصال والسجایا الأخلاقیة الکبری، وقد کان الأئمة المعصومون من نسل طه وأسرة یاسین (ص) یعتبرون جوار الکعبة مدرسةً للحکمة ومعهداً للجدال بالتی هی أحسن.

إشارة: کانت الکعبة فی بنائها الأصلی موجودةً منذ عصر آدم الصفی (ع)، لکنّها انهدمت تدریجیاً وترکت، وتمّ تجاهلها إلی أن بناها إبراهیم (ع) خلیل الرحمن، وما حصل علی صعید بنائها وبنیانها حصل أیضاً- کما تشهد به بعض المعطیات

ص: ۷۳

الروائيـة- على صـعيد الأمن فيها والأمان، فقـد كانت الكعبـة مكان آمناً فى البدايـة، ثمّ فقـدت أمنها تدريجياً، ليعود لها مرّةً أخرى مع النبى إبراهيم (ع).

وهنـا، يجـدر الاهتمـام بأنّ دعاء النبى إبراهيم (ع) قـد حقّق لأرض مكّـة أمنها وأمانها، لا للكعبـة وحـدها، وإلّا فأمن الكعبـة لم يتحقق بطلب إبراهيم (ع) وإنّما صار أن جعلها الله منذ البداية مثابةً ومطافاً، وقبلةً، وأمناً.

وأمن الحرم على قسمين: تشريعى، وتكوينى، وسوف يتكفّل ببيان هذين النوعين من الأمن المبحثان التاليان.

۱- الأمن التكوينى

وفقاً لظواهر الأمور، يفترض بأرض مكـة أن تكون أرضاً غير آمنة، ذلك أن طبع أبناء الحجاز من جهة كان على الاعتداء والغارة، كما أنّهم- من جهة أخرى- ما كانوا ينعمون بالعلم، والثقافة، والزراعة، وتربية المواشـى، والصـناعة و .. بل إن الشعب الفاقد للثقافة والجائع فى الوقت عينه من الطبيعى أن يكون عدوانياً يعيش على الهجمات والغارات.

إلا أنّه، رغم ذلك كلّه، قال تعالى: () (۱) وقال: (). (۲)

وطبقاً للمبدأ عينه، عاشت قريش النعمة والأمن من الجوع والخوف، قال سبحانه: (). (۳)

ويحدّثنا الله تعالى عن الأمن التكوينى للحرم فيقول: (

۱- القصص: ۵۷.

۲- آل عمران: ۹۷.

۳- قريش: ۴.

ص: ۷۴

) (۱)، كما أنّ الله تعالى يحدّثنا عن مكّة كيف كان خطف الناس رائجاً فى أطرافها، لكنّ الله جعل أرضها حرماً آمناً، لا لأنّ سكّان الحرم الإلهى ومدينة مكة قد غدوا أناساً صالحين، بل لأنّ الناس تفهم حرمة الحرم وتقوم بحقه، قال تعالى: () (۲)، وحيث كان الخطف أمراً تكوينياً فإن الأمن الذى يقابله سيكون تكوينياً أيضاً.

ويستفاد جيداً من الآيات المذكورة المرتبطة بعصر الجاهلية أن خطر الهجمات والغارات والخطف وقطع الطرق كان قائماً خارج نطاق الحرم، أمّا فى الحرم فلم يكن كذلك، فحكم الأمن تشريعاً إنما جاء بعد الإسلام، والقرآن الكريم عندما يذكر الأمن فى الحرم فى العصر الجاهلى إلى زمان الإسلام وإلى ما بعده أيضاً فإنما يقدّم ذلك شاهداً ومستنداً له.

يقول الإمام الصادق (ع) حول أمن الحرم: «من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن، ومن دخل البيت مستجيراً به من المذنبين فهو آمن من سخط الله، ومن دخل الحرم من الوحش والسباع والطير فهو آمنٌ من أن يُهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم». (۳)

ولابدّ من الالتفات إلى أن الإعلان عن أمن الحرم المكى لا يعنى حرية أىّ إنسان فى أن يقوم بما يشاء فيه، ذلك أنّ الله تعالى يحدّثنا عن أناس كانوا يعيشون بأمن فى بلادهم غير أنّ الله أغرقهم بالخوف والجوع والاضطراب إثر كفرهم بنعمه، قال تعالى: (

۱- القصص: ۵۷.

۲- العنكبوت: ۶۷.

۳- وسائل الشيعة ۳۳۹: ۹.

ص: ۷۵

). (۱)

وعليه، فالأمن التكوينى للحرم لا يعنى أنّه لا تقع فيه مذابح ومظاهر قتل، بل بمعنى أنّ الله سبحانه جعل هذه الأرض- على أساس من لطفه- مأمناً، أمّا لو ضلّ الناس فيها سبيلهم، فإن الله ينزل عليهم العذاب.

ومن خصائص مكّة أنّه لا يمكن لحكم ظالم جائر أن يدوم عليها لسنين طويلة، نعم، من الممكن لدولة فى الحجاز مع عاصمة مثل الرياض أن تقوم ببعض ألوان الظلم الفردى أو الاجتماعى، إلّا أنّه لا يمكن فى مكّة ممارسة ظلم إلحادى ذى صبغة كافرة، ذلك أن الآية الشريفة: () (۲)، تهدّد خصوص من يقوم بذلك، أى بالظلم الإلحادى، لا غيره، وفى خصوص الحرم لا خارجه، والظلم الحقوقى بالأشخاص الحقيقيين أو الحقوقيين مغايرٌ للظلم الإلحادى الذى يصاحبه كفرٌ وإلحاد.

وحصيلة الكلام، ليست مكّة كالجنة لا يقع فيها معصية أو انحراف (۳)، إلا أنّها- مع جريان أحكام الدنيا عليها- تمتاز عن كثير من البقاع فى الأرض، ومن جملة هذه الامتيازات أنّه لو أراد بها شخص سوءاً عن ظلم وكفر فسوف يلقى عذاباً شديداً. (۴)

ومن الجدير ذكره، أنّ الأمن التكوينى للحرم نسبىّ بلحاظ مكّة، ونفسىّ بلحاظ الكعبة، بمعنى أنّه من الممكن لله تعالى أن يعاقب فى مكة ليتبّه الكافرين والمذنبين، إلّا أنّه لا يمكن لأحد أن يواجه أصل الكعبة- وهى قبلة المسلمين ومطافهم- وإذا ما

۱- النحل: ۱۱۲.

۲- الحج: ۲۵.

۳- الطور: ۲۳.

۴- الحج: ۲۵.

ص: ۷۶

خرّب بعض المعانـدين- فى بعض حقب التاريـخ البشـرى- الكعبـة فهـو لكى يلقـوا القبض على بعض المتحصّـنين بهـا، لا- لمواجهتها ومحاربتها نفسها، من هنا أقدموا مرّتين على إعادة بنائها.

۲- الأمن التشريعى

يجمع دعـاء النّبى إبراهيم (ع)، والـذى طلب فيه من الله سـبحانه الأـمن والخير الإقتصادى لمكّـة وساكنيها، بين التكوين والتشـريع، قال تعالى: (). (۱)

إن الأمكنة والأزمنة المرتبطة بالدين هى المعتمد الوحيد لأمن البشر، والأشياء، والأفراد، من هنا جعل الله سبحانه بعض البلاد، والأزمنة، والأشـخاص، والأشـياء معـالم أمن، تماماً كما أعلن احترام الحـجّ بأطرافه عادّاً له من الشـعائر الإلهيـة بغيـة بيان هـذا الأمن وتثبيته شاملًا لأطراف الحرم وسكانه وزوّاره.

قال سبحانه: (). (۲)

وعلى هـذا الأسـاس، أصـدرت قوانين عديـدة لحفـظ الأمن ومطابقـة التشـريع للتكوين، مثل حرمـة حمل السـلاح حال الإحرام، إلّا مع الضرورة، وكذا حرمة إظهار السلاح فى غير حال الإحرام بحيث يسبّب ذلك إحساساً بعدم الأمن لدى زوار بيت الله الحرام.

والأـمن التشـريعى للحرم محفوظ دومـاً، فلا يجوز خرق حرمـة الحرم إلّا فى فترة محـدودة هى فتـح مكّـة، أللّهمّ إلّا إذا هاجم الآخرون المسلمين، وكسروا حرمة الحرم،

۱- البقرة: ۱۲۶.

۲- المائدة: ۲.

ص: ۷۷

فيجوز عندها سلب الأمن عنهم، على أساس قوله تعالى: () (۱)، وقوله سبحانه: (). (۲)

ولتوفير أفضل السبل لتربية الناس وإقامة السلام والأمن وإقرارهما، أكّدت التشريعات على الحدّ من بعض التصرّفات، وأعلنت حرمةً شاملة للحرم وأمناً واسعاً له ولحال الإحرام أيضاً، من هنا أعلنت الأشهر الأربعة الحرم أمناً شاملًا، سواء كان هناك حج أو عمرة أو لم يكن، وكذلك فى الأشهر التى يسافر فيها الحجّاج، وهى أشهر قد تطول- سابقاً- أحد عشر شهراً.

والجدير ذكره هنا، أن نعمة الأمن والأمان وإن كانت عظيمة القيمة، إلّا أن هذا الإصرار على إقامتهما يلفت نظر الباحث الحصيف إلى أنّه لا بدّ فى تلك المنطقة من إنجاز أعمال لا تُنجز- على ما يبدو- سوى مع وجود إحساس بالأمن والهدوء والطمأنينة، فإذا ما كانت هذه الأعمال مجرّد المناجاة والزيارة والطواف وأمثالها دون إعلان الغضب والتنديد بوجه الطغاة والمعتدين والعاصين، فلن يعيق هؤلاء عن تحقيق الأمن، ومن ثمّ ستكون كلّ هذه النصوص المصرّة على مسألة الأمن لغواً وعبثاً.

ملاحظة

سوف نتحدّث- بإذن الله تعالى- عن قسم آخر لمبحث الأمن التشريعى، لدى الحديث عن «الخصائص الفقهية للحرم».

ساحة أمن ولاية المعصومين:

استناداً إلى بعض الروايات، ومع الأخذ بعين الاعتبار ما تقدّم عند الحديث عن قوله تعالى: () (۳)، فإن كل داخل فى الاعتقاد بالإمامة والالتزام

۱- البقرة: ۱۹۴.

۲- البقرة: ۱۹۱.

۳- آل عمران: ۹۷.

ص: ۷۸

بالولايۀ هو فی أمن وأمان، وطبقاً لهذا النمط من الروايات لايراد الإطلاق من الآيۀ الشريفۀ المشار إليها، ذلک أنّه من الممکن أن ينفذ الکفّار والملحدون وأصحاب العقائد الباطلۀ إلی داخل الکعبۀ، والحال أنّهم ليسوا فی أمان.

وعليه، فالمراد- کما يقول الإمام الصادق (ع)-: «من دخله- وهو عارف بحقّنا کما هو عارف له- خرج من ذنوبه وکفی همّ الدنيا والآخرۀ». (۱)

وفی روايۀ أخری للإمام الصادق (ع) وضمن مناظرۀ جرت بينه وبين أبی حنيفۀ جاء فيها: «.. فأخبرنی عن قول الله عزّوجلّ: () (۲)، أين ذلک من الأرض؟ قال: أحسبه ما بين مکّۀ والمدينۀ، فالتفت أبوعبدالله الصادق إلی أصحابه فقال: تعلمون أن الناس يقطع عليهم بين المدينۀ ومکّۀ، فتؤخذ أموالهم ولا يأمنون علی أنفسهم ويقتلون؟ قالوا: نعم، قال: فسکت أبوحنيفۀ، فقال: يا أباحنيفۀ! أخبرنی عن قول الله عزّوجلّ: () أين ذلک من الأرض؟ قال: الکعبۀ ... فقال أبوبکر الحضرمی: جعلت فداک الجواب فی المسألتين الأولتين؟ فقال: يا أبابکر! () مع قائمنا أهل البيت، وأمّا قوله تعالی: () فمن بايعه ودخل معه، ومسح علی يده، ودخل فی عقد أصحابه، کان آمناً». (۳)

نعم، المراد هنا الأمن المطلق: التشريعی، والتکوينی.

الخصائص الفقهيّة للحرم

۱- تفسير العياشی ۱۹۰: ۱.

۲- سبأ: ۱۸.

۳- بحارالأنوار ۲۹۲: ۲- ۲۹۴.

ص: ۷۹

لمنطقة الحرم خصوصيات فقهية كثيرة، نشير هنا إلى بعضها:

۱- لا يوجد على سطح المعمورة مكان غير هذا المكان يُشترط لوروده، حتى فى غير موسم الحج، الإحرامُ من أحد المواقيت المقرّرة، من هنا، فدخول غير المسلم إلى الحرم ممنوع؛ ذلك أنّه يلزمه الإحرام، وإحرام الكافر غير صحيح، والموارد الاستثنائية لهذا الحكم الكلّى العام بالغة القلّة.

۲- لا يقتصر منع دخول المشركين إلى الكعبة والمسجد الحرام، بل يتعدّى ليشمل مكّة والحرم كلّه، قال سبحانه: () (۱)، فيجب على المسلمين تنزيه هذا المكان وطرد هؤلاء المشركين منه. (۲)

۳- يحرم تعذيب أىّ شخص يدخل الحرم أو إيذاؤه، أللّهمّ إلّا إذا جنى جنايةً خارجه، ثمّ احتمى بالحرم والتجأ إليه، وفى هذه الحالة تحرم مبايعته، وكذا حمايته وإجارته وعاريته البيوت، كما يحرم إعطاؤه الطعام أو بيعه له.

ومثل هذه الضغوطات والمتاعب عليه إنّما تهدف إلى إجباره على الخروج من الحرم كى تقام عليه الحدود الإلهية.

لقد بلغ الاهتمام بحريم الحرم الإلهى حدّاً، أن يسأل سماعة بن مهران الإمام الصادق (ع) فيقول: «سألته عن رجل، لى عليه مال، فغاب عنّى زماناً، ثمّ رأيته يطوف حول الكعبة، أفأتقاضاه مالى؟ قال: لا، لا تسلّم عليه، ولا تروّعه حتّى يخرج من الحرم». (۳)

۴- لو ارتكب شخص جناية فى الحرم أو جرماً جرى عليه الحدّ فيه، ذلك أنّه لم

۱- التوبة: ۲۸.

۲- وسائل الشيعة ۳۴۴: ۹.

۳- المصدر السابق: ۳۶۵.

ص: ۸۰

يرع حرمة الحرم، لذا لزمه قصاصه من هذه الناحية، قال سبحانه: (). (۱)

وقد قال الإمام الصادق (ع) حول من قتل فى الحرم أو سرق: «يُقام عليه الحدّ فى الحرم صاغراً؛ لأنّه لم يَرَ للحرم حرمةً، وقد قال الله عزّ وجلّ: () (۲)، فقال: هذا هو فى الحرم، وقال: () (۳)». (۴)

إنّ ما يقتضيه قوله تعالى: () أنّ إعدام القاتل واجب، بيد أنّ إهانته حرام، أمّا هنا فتغدو إهانته راجحة؛ ذلك أنّه تجاهل الحرمات والمقدّسات ولم يقدّرها أو يحترمها، ومعه فلا يصح أن يحترم هو أيضاً.

إنّ الكعبة بمنزلة كرامة المسلم وشرفه؛ من هنا كان الجميع مكلفين بحفظ حرمتها، فحرمة الكعبة هى الأساس لحرمة الحرم إلى حدّ تجنّب الفقهاء- حذراً وخوفاً- من السكن فيه؛ والسبب فى ذلك خوفهم من أن يرتكبوا فيه أىّ ذنب، يحتملون كونه «إلحاداً»، ممّا يخيفهم من نتائج التعذيب الإلهى: قال تعالى: (). (۵)

ولا يعنى ذلك كراهة العيش فى ذلك المكان المقدّس، وإنّما يعنى الخوف من عدم مراعاة حقوق الحرم الإلهى الرفيع.

۱- البقرة: ۱۹۴.

۲- البقرة: ۱۹۴.

۳- البقرة: ۱۹۳.

۴- وسائل الشيعة ۳۳۶: ۹- ۳۳۷.

۵- الحج: ۲۵.

ص: ۸۱

الفصل الثالث مكة المكرمة

مكّة، أنموذج المدينة الفاضلة

قد تكون لبعض الأزمنة والأمكنة خصوصيات استناداً إلى جذور ترجع إليها فى المخزن الإلهى، ممّا لا تملكه أزمنة أخرى أو أمكنة، إلّا أنّ الظاهر أن احترام الزمان يكون بمن فيه، واحترام المكان يكون بالمتمكّن فيه.

من هنا، يمكن أن تكون مكّة أفضل البقاع؛ ذلك أنّها كانت منذ قديم الأيام مهداً للتوحيد، ومركزاً للوحى، ومحلًا لتربية الكثير من الأنبياء والأولياء وكذا لظهورهم و ... حيث تمثلت الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة الذهبية بالتوحيد الخالص، وهبوط القرآن، وصعود خاتم الرسل (ص) لمقام النبوّة النهائى المنيع ومركز الرسالة الخاتمة.

إضافةً إلى ذلك، فقد احتوت مكّة بيت الله الشريف ومكانه النهائى، من هنا كانت مقدّسةً منذ قديم الأيّام، وعليه فالمدينة المنورة- كمكة المكرّمة- مهبط الوحى ومحل نزول الكثير من سور القرآن الحكيم، كما أن الدولة الإسلامية شهدت قيامتها وانتظام أمرها هناك، وقد عدّ القرآن الكريم أبناء هذه المنطقة وشعبها أنصاراً لدين الله وإخوةً للمهاجرين فى سبيل الله (۱)، لهذا كانت المدينة لائقةً بدعاء خاتم الأنبياء (ص) (۲)، لتكون

۱- الحشر: ۹.

۲- السيوطى، الدرّ المنثور ۲۹۷: ۱.

ص: ۸۲

حرماً خاصاً. نعم، بركة المدينة المنوّرة مستمرّة ما دام أبناؤها حافظين للأصول العقائدية، والأسس الأخلاقية، والفروع الفقهية.

مكّة أمّ القرى (۱)، وأنموذج المدينة الفاضلة، فقد أسّس إبراهيم خليل الرحمن (ع) بانى الكعبة ومؤسّس الحضارة، أسّس المدينة الفاضلة على أركان أربعة، نظمها حول محور مركزى، ثمّ طلبها من الله تعالى. كان دعاء إبراهيم فى هذا المجال على الشكل التالى:

۱- (). (۲)

۲- (). (۳)

۳- (). (۴)

۴- (). (۵)

فقيام المدينة الفاضلة يكون على أساس ميل قلوب الرعية لقادتها العارفين بالسياسة، فصِرْف الأمن وزيادة النعمة الكثيرة، مع ضرورتهما، إلا أنهما ليسا كافيين للناس؛ إذ هذا الأمن ووفور النعمة قد نجدهما فى أقاليم وبلدان أخرى، إنّما الأساس هو ميل قلوب الرعية وعطف جانبها وجذب أرواحها وجلب ثمار قلوبها، وتلك هى المحبّة. (۶)

على هذا الأساس، طلب إبراهيم (ع) فى أدعيته السالفة من الله تعالى، إلى جانب الأمن والاقتصاد، جذب الأفئدة والقلوب إليهم.

۱- الأنعام: ۹۲، والشورى: ۷، ويقول الإمام الصادق: «أسماء مكّة خمسة: أمّ القرى، ومكّة، وبكّة، والبسّاسة، كانوا إذا ظلموا بها بسّتهم، أى أخرجتهم وأهلكتهم، وأم رحم، كانوا إذا لزموها رحموا»، أنظر: بحار الأنوار ۷۷: ۹۶.

۲- البقرة: ۱۲۶.

۳- المصدر السابق.

۴- المصدر السابق.

۵- إبراهيم: ۳۷.

۶- الطبرسى، مجمع البيان ۱- ۳۸۷: ۲- ۳۸۸؛ وتفسير القمى ۶۲: ۱.

ص: ۸۳

۵- أما المحور الأساس الـذى تـدور حوله الأركان الأربعـة السابقـة، وهو الذى يضـمن الأمن ويحقق الهدوء والطمأنينة ويوفر السـلامة الاقتصادية للمجتمع، فهو الدولة والحكومة القائمة على أساس الوحى الإلهى، وفى ظلّ إشراف وإدارة الإنسان الكامل.

من هنا، طلب النبى إبراهيم (ع) من الله تعالى أن يبعث فى نسله نبياً منهم .. قال سبحانه: (). (۱)

إنّ إبراهيم (ع) كـان قبـل ذلـك قـد شاهـد بـأمّ عينه تحقق ظـاهرة تبـدو فى الظاهر غير ممكنـة، وهى أن يصـير صاحب ولـد فى كبره وشيخوخته، من هنا كان معتقداً بهيمنة الإرادة الإلهية على الأمور كافّة، لهذا قال: (). (۲)

وبعـد مضـىّ مـدّة، اجتمع فيها من القريب والبعيـد عديـدٌ من الناس لتظهر إثر ذلك مدينـة مكّة على سـطح الأرض، كرّر إبراهيم (ع) دعاءه السابق بشكل آخر فقال: (). (۳)

وقد لازمت صفة الأمن والأمان مدينة مكّة حتّى اشتهرت بها، إلى حد أنّ الله سبحانه يذكرها بهذا الاسم، فيقول: (). (۴)

والجـدير ذكره أنّ تعبير () مغـاير للأرض الموات البائرة التى لم تزرع؛ إذ الموات قابلـة للإحياء عادةً، تماماً كما أنّ الأرض البائرة تقبل القيام، وما لم يزرع يقبل الزرع، أما الأرض غير ذات الزرع فتعنى التى لا يوجد فيها اقتضاء الزرع، كما

۱- البقرة: ۱۲۹.

۲- البقرة: ۱۲۶.

۳- إبراهيم: ۳۵.

۴- التين: ۳.

ص: ۸۴

لا يمكن توفير الأسباب والإمكانات لتعميرها؛ فهى لا تبدو- بحسب ظاهرها- متمتعةً بأىّ عنصر مساعد طبيعياً على زراعتها.

نعم، عدم إمكان زراعة هذه الأرض غير ذات الزرع إنّما هو بالنسبة إلى العلل والأسباب الطبيعية، أمّا بالنسبة إلى الإرادة الإلهية فإن غير الممكنات العادية كافة قابل للوجود والتحقّق.

يتحدّث الله تعالى عن ظروف توفير الحياة الاقتصادية لمكّة بأنّ ذلك ليس عن طريق الغيب ولا سبيل الإعجاز، فحاجات المؤمنين الاقتصادية لاتؤمّن عبر هذا السبيل، بل ().(۱)

واليوم تتقاطر الثمرات تترى على أرض مكّة غير ذات الزرع والضرع حتى أنّ المحاصيل المتنوّعة فى تمام أرجاء العالم تُحضر إلى مكّة فى فصول الحجّ والعمرة كافّة.

وتوضيح ذلك:

أولًا: إنّ أشهر الحج قمرية وليست شمسية، وهذا ما يجعلها متنوعةً على امتداد السنين.

ثانياً: إنّ الأرض كرويّة، وتتنوّع أقاليمها الحارة والباردة.

ثالثاً: تختلف أذواق الناس فى المدن والبلدان، وكذا إبداعاتها ومخترعاتها وفنونها المسكوبة فى نتاجاتها المصنوعة.

من هنا، تظهر المحاصيل المتنوّعة الكثيرة فى تمام مناسبات الحج والعمرة فى مكّة، بدعاء إبراهيم (ع)، وكذا المدينة بدعاء الرسول الأكرم (ص)، وكما يصل زوّار مكّة على أىّ مركب ضامر أو غيره، ومن أىّ إقليم فج وقريب، ينقل أصحاب البضائع التجارية- أعمّ من الزراعة، والحيوانات، والصناعة- محاصيلهم ومنتوجاتهم إلى مكة أيضاً.

۱- القصص: ۵۷.

ص: ۸۵

وعليه فكما يراد من الأكل فى مثل: () (۱) و () (۲) مطلق التصرّف فى المأكول وغيره، لا خصوص الأكل بمعناه المصطلح، كذا يكون المراد من () (۳)، حيث لا يقصد تأمين الحاجات الغذائية التى ترفع حدّ الجوع فحسب، بل يتعداه إلى تأمين مطلق الحاجات الاقتصادية أيضاً، فإنّه إذا تمتعت أمة بغذائها اللازم لها، لكنّها ظلّت محرومةً من نواحى أخرى كالمسكن والدواء والعلاج واللباس والأثاث، وسائر حاجات الحياة الأخرى، فستبقى دائماً خائفة مغمومة، ومثل هذا الوضع لا ينسجم مع الرسالة التى تريدها الآية الكريمة المذكورة.

فالمقصود من الآية توفير الجانب الاقتصادى وما شابهه توفيراً تاماً، تماماً كما ألمحت الجملة الأخرى فى الآية، وهى: () (۴)، إلى جانب الاستقرار الأمنى الشامل وتوفير الأمن والأمان.

ملاحظة

۱- إنّ أساس الأمن الاقتصادى والاجتماعى لمكّة، وكذا نعمها الوفيرة، أمر تكوينى لا تشريعى فحسب.

والشاهد والمؤيّد لذلك ما جاء فى سور القصص والعنكبوت وقريش، وهى من السور المكية، فيما الحج الإسلامى الذى يمكنه أن يكون سبباً لحلول الأمن ونزول البركة إنّما جاء تشريعه فى العصر المدنى، أى بعد سنين طويلة من نزول السور المذكورة.

۱- البقرة: ۱۸۸.

۲- النساء: ۱۰.

۳- قريش: ۴.

۴- المصدر السابق.

ص: ۸۶

۲- إن الأنبياء والأولياء الإلهيين: كافة أرفع وأفضل من مجرّد سلطة البطن على الطعام والشراب، ذلك أن بعض تلامذتهم- وهم الذوات المقدّسة- «كان خارجاً من سلطان بطنه» (۱) ، إلّا أنّهم كانوا دائماً مهتمّين بحال الضعفاء وأواسط الناس، من هنا، كانوا يطلبون من الله تعالى لهم النعم الوفيرة ورخص الأرزاق، ويسألون لهم الاقتصاد السالم حتى تتوفّر بذلك أرضيةٌ لبناء الأمن الداخلى من جهة، ولحصولهم على استقلالهم واستغنائهم عن الآخرين من جهة أخرى، ليكون ذلك كلّه فى خدمة الدين نفسه؛ فمبدأ الهوية فى الإنسان إنّما يصنعه الدين، لاالاقتصاد، وعدم وجود اقتصاد صحيح لأواسط الناس يعدّ مرضاً عضالًا صعب العلاج بالنسبة إلى تحصيل عقيدة أصيلة، أو حفظها بعد حصولها.

نعم، الأوحدى من الناس هو من يرى أن محورية العقيدة والحق أفضل من الرفاه العادى، أمّا على صعيد الحسابات الاجتماعية فلا بدّ من ملاحظة الأكثرية ليحكم على طبق وضعها.

۳- لقد أنعم الله على الكفار، أعمّ من ذرية إبراهيم (ع) وغيرهم، ببركة الكعبة وبحرمة الحرم، إن دعاء النبى إبراهيم (ع) كى يستفيد مؤمنو مكة () (۲)، لم يضيّق على غير المؤمنين ولم ينف الرزق عنهم، إنّما لم يشملهم فحسب، فهناك قصور فى المشمول، لا- أنّه يوجد منع عنه، أى أنّه لم يدع للكافرين، لا أنّه دعا عليهم.

بعض الخصوصيات الفقهيّة لمكّة

۱- يكره إجارة بيوت مكّة لزوّارها (۳)، يقول أميرالمؤمنين (ع) فى هذا المجال لعامله

۱- نهج البلاغة، الحكمة: ۲۸۹.

۲- البقرة: ۱۲۶.

۳- وسائل الشيعة ۳۶۷: ۹.

ص: ۸۷

على مكة: «ومُر أهل مكّة أن لا يأخذوا من ساكن أجراً، فإنّ الله سبحانه يقول: () (۱)، فالعاكف المقيم به، والبادى الذى يحجّ إليه من غير أهله». (۲)

ويقول الإمام الصادق (ع): «إنّ معاوية أوّل من علّق على بابه مصراعين بمكّة فمنع حاجّ بيت الله ما قال الله عزّوجلّ: ()، وكان الناس إذ قدموا مكّة نزل البادى على الحاضر حتى يقضى حجّه». (۳)

۲- يكره البقاء فى مكّة لمدّة طويلة، إذ يكون ذلك باعثاً على قساوة القلب، من هنا، يقول الإمام الصادق (ع): «إذا قضى أحدكم نسكه فليركب راحلته، وليلحق بأهله، فإنّ المقام بمكّة يقسى القلب». (۴)

وسرّ كراهة الإقامة لمدة طويلة فى مكّة، هو ما جاء فى الرواية الآنفة من أن ذلك يغدو سبباً لقساوة القلب، وحسب الظاهر فإن هذا الإنسان لا يراعى الحقوق العظيمة لتلك الأرض، ما يفتّت العهد- تدريجياً- ويضعفه العهد، كما يميت القلب.

نعم، بالنسبة للزوار المجاورين للحرم المراعين حقوقه يستفيدون من الفيض العظيم النازل عليهم، فالإقامة فى الحرم أفضل من الخروج منه. (۵)

۱- الحج: ۲۵.

۲- نهج البلاغة، الرسالة: ۶۷، الفقرة: ۵.

۳- وسائل الشيعة ۳۶۷: ۹- ۳۶۸.

۴- المصدر السابق: ۳۴۳.

۵- المصدر السابق: ۳۴۱.

ص: ۸۸

الفصل الرابع المسجد الحرام

الحرمة الخاصّة للمسجد الحرام

تتمتّع المساجد كافّة لاسيما منها المسجد الحرام بحرمة خاصّة (۱)؛ فالمسجد الحرام يحوى بيت الله الحرام، والمكان النهائى لذلك البيت الشريف (۲)، ونقطة انطلاق الإسراء والمعراج. (۳)

إنّ مكان الحجّ والزيارة، كموسمهما وزمانهما، حرامان محترمان، من هنا حرّم القتال الابتدائى فيه، لكن حيث إنّ القصاص لا يختصّ بالنفس أو الطرف، وإنّما هناك قصاص فى نقض الحرمات وهتك احترامها () (۴)، يقول الله تعالى: (). (۵)

ومن الواضح أنّ حرمة المسجد الحرام نشأت من احترام الكعبة، تماماً كما كان

۱- انظر: سورة الجنّ: ۱۸؛ والحجّ: ۴۰؛ والأعراف: ۲۹، ۳۱؛ والبقرة: ۱۱۴، ۱۸۷؛ والأنفال: ۳۴؛ والتوبة: ۲۸.

۲- البقرة: ۱۴۴.

۳- الإسراء: ۱.

۴- البقرة: ۱۹۴.

۵- البقرة: ۱۹۱.

ص: ۸۹

احترام الكعبة والمسجد سبباً فی حرمة مكّة، واحترام الثلاثة معاً سبباً فی حرمة الحرم الإلهی، لكن حیث كانت هذه الحرمات كافّة لأجل الإسلام نفسه صدر أمرٌ بضرورة قتل المشركین هناك عندما یتعرّض المسلمون فی المسجد الحرام من جانبهم للهجوم بغیة إبادة الإسلام.

لقد تقدّم توضیح هذه المسألة فی الفصل الخامس من القسم الأوّل، لدی الحدیث عن «منشأ الحرمة وعزّة الكعبة» وشرحنا أنّ الحرمة التی كانت للحَرَم، ومكّة، والمسجد الحرام، والكعبة، إنّما هی من الإمام الذی اختاره الله للولایة، ومنه ینتهی الأمر إلی الحقّ المطلق تعالی.

إدارة المسجد الحرام وولایته

لا یحقّ لغیر المتّقین الشجعان والمدبّرین الواعین أن یدیروا المراكز الدینیّة المهمّة، فنظراً للأهمّیة الخاصّة للكعبة، وكذلك المسجد الحرام وحرم الأمن الإلهی، فقد بیّن القرآن الكریم بصراحة مَن یتصدّی امورها، وما یمنع ذلك، بحیث جعل الصالحین اللّائقین فی هذا المنصب، وطرد الطالحین غیر المناسبین عنه، فأودع الأمانات الإلهیّة أهلها.

إنّ تعیین ولاة البیت الإلهی من صلاحیّات الله سبحانه وحده فقط، فقد جاء فی الآیة الكریمة: () (۱)، وفی ذلك إشارة إلی عزل، بل انعزال العاصین عن تولّی شؤون المسجد الحرام، لصالح نصب المتّقین لذلك؛ فالعُصاة منصرفون عن المعبد الإلهی، كما أنّهم صارفون عنه، فهم ناؤون وناهون، أمّا الأتقیاء فهم فی رحاب معبد الله عبید حقّ، وهم دُعاةٌ إلیه أیضاً.

إنّ تولّی امور المساجد لیس من حقّ الناس، بل حكم إلهی وحقّ خاصّ بالله

۱- الأنفال: ۳۴.

ص: ۹۰

سبحانه، جُعل على كاهل الرجال المتّقين والزموا به؛ فهنا كان لزاماً لتولّى شؤون الحرم، والتى حصرهاالله بأفراد أو فريق خاصّ، أن يمتثل المتّقون فى مختلف البلدان الإسلاميّة لأمر الله وقراره الغيبى فى إدارة الحرم ويكون لهم دورٌ فى ذلك.

والسرّ الرئيس فى هذا الأمر هو أنّ الكعبة التى هى منشأ حرمة واحترام المسجد الحرام والحرم الإلهى ليست مثل سائر الآثار القديمة للأقوام والشعوب والملل، حتّى ينفرد بإدارتها فريق خاصّ يحرسونها ويهتمّون بها؛ فلو كانت الكعبة مثل سور الصين، وأهرام مصر، وما شاكل ذلك، لم تكن لتتحوّل إلى نقطة تجمّع روحى للمسلمين جميعاً فى مختلف أقطار العالم على امتداد التاريخ.

إنّ الذى يُستنتج من الآية الشريفة: () (۱)، ومن الحديث الذى يبيّن سرّ تربيع الكعبة (۲)، أنّ بناء الكعبة ومكانه وسائر ما يتعلّق بها كان أمراً من جانب الوحى الإلهى، إضافةً إلى ذلك، لم يكن للبشر العاديّين أى حضور حتّى يشارك مهندس أو بنّاء فى أمرها، بل كان إبراهيم (ع) هو المتعهّد لذلك بالوحى الإلهى؛ وعليه فالكعبة فى تمام أبعادها الفنّية والصناعية، وفى الأدوات، والأرض، والخارطة، مرتبطة بالله ومنزّهة عن غيره، ومبرّأة عن سائر الناس، فهذا البناء المقدّس هو أوّل بناء بُنى للبشر بوصفه معبداً (۳)، ولذلك كان جائزاً لتوسعة المسجد الحرام، الاستيلاء على الأمكنة المجاورة وتخريبها، والتى هى فى الحقيقة حريم للكعبة، تماماً كما قال الإمامان الصادق والكاظم، لرفع توهّم غصبية مثل هذا التخريب: «إن كانت الكعبة هى النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها، وإن كان الناس هم

۱- الحج: ۲۶.

۲- بحار الأنوار ۵۷: ۹۶، وراجع: المصدر السابق، هامش صفحة ۸۶.

۳- آل عمران: ۹۶.

ص: ۹۱

النازلين بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها». (۱)

وخلاصة القول: إنّ الكعبة لا ترتبط بشخص بعينه أو فريق كذلك، وهى لاتتبع أىّ قانون من القوانين البشريّة المجعولة، وإنّما هى تبلور الإسلام، وذلك:

أوّلًا: أنّها مثل القرآن الكريم والرسول الأكرم لا تعتمد إلّا على الله تعالى.

ثانياً: كما أنّ القرآن الكريم كتابالله وكلامه، وليس نتيجاً فكريّاً لأىّ إنسان، ولا يمكن لأحد أن يأتى بمثله، وكما كان الرسول الأكرم (ص) غير متلمّذ على يد أحد، وليس لأىّ إنسان حقّ التعليم والتزكية عليه، من هنا كان عبد الله ورسوله ... كذلك الكعبة- ملكاً وخارطةً وبناءاً ومعماريّة و ...- متعلّقة بالذات الإلهيّة.

ثالثاً: كما أنّ الله تعالى ضمن حقيقة القرآن من تطاول الطواغيت عليها، وحفظها من سهام التحريف وصانها من ذلك، وكما ثبّت رسالة الرسول الأكرم (ص) بالمعجزات المختلفة، وأبقاها ثابتةً، كذلك صان الكعبة دوماً من جبابرة وأباهرة الماضى والحاضر والمستقبل.

رابعاً: كما يجب على كافّة مسلمى العالم حماية القرآن وحراسته وأن يكونوا جادّين فى صيانة الشخصيّة الحقوقيّة للنبىّ الأكرم (ص) ورسالته، كان واجباً عليهم الجهاد لحفظ أمن الحرم وتقديسه.

خامساً: كما أنّ مجرّد عربيّة القرآن أو نزوله فى الحجاز ليس دليلًا على اختصاصه بقوم خاصّين، ومجرّد كون النبىّ الأكرم (ص) قد عاش فى الحجاز وتوفّى فيها وكان مزاره الشريف فيها ... ليس دليلًا على اختصاص هذا الرجل العظيم بالعرب أو بشعب الحجاز، كذلك مجرّد وقوع بناء الكعبة فى الحجاز وتأمين موادّها الخام من تلك الديار ليس سبباً لاختصاصها بالعرب أو بشعب الحجاز أو بدولة تلك البلاد؛ ذلك أنّه حتّى لو كانت الكعبة قد بُنيت من الأحجار ولها جسم ظاهرى مثل سائر الأحجار، إلّا

۱- وسائل الشيعة ۳۳۱: ۹- ۳۳۲.

ص: ۹۲

أنّها حيث كانت محاذية لعرش الله، ومبتنيةً جدرانها الأربعة على خارطة التسبيحات الأربع، أى حقيقة التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وكلّها ترجع إلى التوحيد (۱)، وكانت متحرّرة من كافّة السلطات والقوى الكبرى العتيقة ... فإنّه لا مثيل لها ولا نظير.

إنّ تولّى هذا البناء المقدّس القائم على الإخلاص والطهارة إنّما هو فى عهدة المسؤولين الصالحين الورعين، فلو كان الإمام المعصوم (ع) ماسكاً بزمام الزعامة والحكومة، فإنّ الكعبة تُدار حينئذ تحت الولاية المعصومة لهم، وإلّا كانت تحت ولاية النائب الخاصّ، وإلّا فالنائب العام للإمام، وهو الفقيه جامع الشرائط المطلوبة فى القيادة، وإذا لم‌يتوفّر فقيه مدير ومدبّر لتولّى هذا الشأن، ينتقل الدور لعدول المؤمنين.

۱- بحار الأنوار ۵۷: ۹۶؛ روى عن الصادق أنّه سُئِل لِمَ سمّيت الكعبة؟ قال: «لأنّها مربّعة»؛ فقيل له: ولِمَ صارت مربّعة؟ قال: «لأنّها بحذاء البيت المعمور، وهو مربّع»، فقيل له: ولِمَ صار البيت المعمور مربّعاً؟ قال: «لأنّه بحذاء العرش وهو مربّع»، فقيل له: ولِمَ صار العرش مربّعاً؟ قال: «لأنّ الكلمات التى بُنى عليها الإسلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر».

ص: ۹۳

الفصل الخامس الكعبة المشرّفة

الموضع المركزى للكعبة

ليس الإنسان من ناحية تجرّد الوجود كالملائكة حتى يستغنى عن التنسيق والتعاون مع بنى جنسه، كما أنّه ليس مادّياً كالحيوانات حتّى لا- يكون محتاجاً لتبادل الرأى والتعاون، كما أنّه- أيضاً- غير قادر أن ينتهى أمره إلى التشتّت والتمزّق والتلاشى اعتماداً على معتمد تكوينى، ويفهم سرّ اتّحاده مع أبناء نوعه ورمز ذلك، فيتحرّك عبر سلوك خاصّ ومناسب للوحدة، فيصل بشعار () (۱)، للتحرّر من كلّ عيب ونقص وبلوغ مرتبة الكمال الإنسانى.

إنّ الإنسان بحاجة إلى المجتمع، ولا يمكنه من دون التنسيق والتعاون أن يرسم الخطوط الأساسيّة والمعالم الكبرى لسعادته؛ من هنا كان لزاماً عليه الاتّحاد مع أبناء نوعه، كما يلزمه أن يجعل ارتباطه بالآخرين قائماً على محاور عينيّة وتكوينيّة، يكون لها حظّ من الخلود والأبدية.

للإنسان فى ذاته وأعماقه مادّة السعادة الحقيقيّة من كافّة الجوانب، والوحدة الشاملة مع مختلف المجتمعات البشرية، بوصف هذه المادّة الكامنة فى أعماقه أصلًا

۱- الأعلى: ۱۴.

ص: ۹۴

ثابتاً وعامّاً ودائماً ذا جهة واحدة، بحيث لا يوجد أىّ فرد إنسانى فى أىّ عصر وزمان وفى أىّ موضع ومكان خالياً عن هذا الأصل الكامن فى داخله؛ إنّه المادّة الرئيسة للتكامل التكوينى، إنّه لغة الفطرة التوحيديّة (۱) التى يمكنها الربط بين أبناء البشر دون حاجة إلى أىّ اعتبار أو تعاقد أو تصويب، وكلّ ارتباط وعلاقة لاتنسجم مع الجذر التوحيدى للبشر فهو زائل اعتبارى لا قرار له.

وعلى هذا الأساس، فالإنسان- فى منطق الوحى- ينسجم فقط مع الإسلام العالمى الإلهى، فهذا الدِّين هو الذى يجعل الجميع منسجمين، موحِّدين، متناغمين، مترافقين، ويوصلهم إلى كمالهم النهائى.

من هنا، اعتبر الله سبحانه الإسلام ديناً عالميّاً، ودعا العالمين إلى قبوله، وبيّن معالمه الأصيلة العامّة والدائمة والشاملة لتمام الجهات والنواحى، محذّراً من الانفصال عنه، ومعلناً خطر الإعراض عنه أو الاعتراض عليه أو معارضته، إنّه يقول: (). (۲)

المحاور الأصيلة للوحدة

اشارة

يتمكّن الإنسان من الحصول على براعم الفطرة المشتركة والمزايا المشتركة للدين العالمى عندما يكون فى هذا الدين عناصر الوحدة الأصيلة والثابتة والتوحيديّة.

من هنا أعلن الله سبحانه القرآن الكريم كتاب الجميع، ومحوراً فكريّاً وعمليّاً للعالمين، كما قدّم لنا الرسول الأكرم (ص) بمثابة تعيّن لأحكام القرآن بوصفه اسوةً وقائداً

۱- الروم: ۳۰.

۲- آل عمران: ۱۰۳.

ص: ٩٥

عامّاً وعالميّاً، كما جعل الكعبة المقدّسة نقطةً لاجتماع أطراف العالم الإسلامى وقبلةً ومطافاً للعالمين، حتّى يتّحد المسلمون بالحصول على هذه المحاور الأصيلة التوحيديّة.

ونحاول هنا- وبشكل مختصر- الحديث عن عالميّة هذه المحاور المذكورة:

١- عالميّة القرآن الكريم

الإنسان الكامل سِمَة الرسالة الإلهيّة وحامل النداء الربّانى، وإذا كان مظهراً للاسم الأعظم وأكمل الناس فإنّه يتلقّى كتاباً يكون أكمل الكتب، يستوعب سعة الأرض وامتداد الزمان وانبساط التاريخ؛ لذلك أنزل الله سبحانه القرآن لهداية الجميع على القلب المطهّر للرسول الأكرم؛ وإضافةً لآيات التحدّى التى تدلّ على عالميّة القرآن، ثَمّة آيات فى هذا الكتاب نفسه تجعله مذكّراً وذكرى للمجتمعات البشرية كافّة، حتّى يتذكّر الجميع عَهْد فطرتهم، كما اعتبر هذا الكتاب إنذاراً سماويّاً كى يظلّ البشر على حذر بأجمعهم من مختلف المعاصى والذنوب. (١)

وكما كانت أدلّة عالميّة القرآن ثابتةً وهو تمظهر دعوة النبىّ الأكرم (ص) ومعجزته الخالدة، كذلك هى بنفسها دليلًا على عالميّة رسالته (ص) أيضاً، فكلّ دليل يدلّ على عالميّة رسالة الرسول الأكرم (ص) يدلّ أيضاً على عالميّة القرآن المجيد؛ ذلك أنّهما متلازمان، ودليل كلّ واحد منهما يمثل دليلًا- بالملازمة- على إثبات الآخر.

٢- عالميّة رسالة الرسول الأكرم

إنّ رسالة الإنسان الكامل، والذى هو- بنحو مطلق- خليفة الله ولا أكمل منه فى عالم الإمكان، وسيعة شاملة إلى حدّ لا نبىّ بعده على امتداد التاريخ ولا على اتّساع

١- البقرة: ٢، ١٨٥؛ والأنعام: ١٩، ٩٠؛ والزمر: ٢٧، ٤١؛ والمدثر: ٣١؛ والفرقان: ١.

ص: ۹۶

جغرافيا العالم؛ ولا مقارناً له أيضاً؛ من هنا لم يكن من أنبياء أُولى العزم فحسب، بل هو خاتم الأنبياء (ص) جميعاً، وخاتمة أصل النبوّة والرسالة، وكلّ الأدلّة الدالّة على خاتميّته دالّة تلقائياً على عالميّة رسالته أيضاً.

إضافة إلى الموارد المذكورة، ثمّة فى آيات القرآن ما يتحدّث عن كلّية رسالة النبىّ (ص) ودوامها (۱)، وأنّها جاءت وبُيّنت لكافّة البشر فى تمام الأعصار والأمصار دون اختصاص بفريق خاصّ بعينه.

۳- المركزية العالمية الخالدة

لابدّ للناس المعتقدين بالدِّين العالمى والكتاب الكونى، وهم أتباع النبوّة العامّة والدائمة، أن يكون لديهم مركز عام وثابت لا تغيير فيه، يكون محوراً لتبادل الآراء من مختلف المناطق، حتّى يلتقى الجميع من القريب والبعيد مع بعضهم بعضاً ويطرحوا القضايا العلميّة والعمليّة فيما بينهم، فيعيدوا قراءة مشاكلهم السياسيّة والاجتماعيّة ويقومون بحلّها، كما يوثّقون عُرى العلاقات الثقافيّة والأخلاقيّة ... إلى غيرها من الفوائد الاخرى التى يمكن فهمها من إطلاق الآية الكريمة: (). (۲)

لهذا خصّ ص الله سبحانه الكعبة المعظّمة، كى يرتبط بها المسلمون فى العالم فى السنين كافّة، وكذا الأشهر، والأسابيع، والأيّام، والساعات، والدقائق و ... وفى مناسبات مختلفة، فى شؤون حياتهم كافّة؛ من هنا نقول: «والكعبة قبلتى ..» (۳) لتعظيم الكعبة وتقديسها وإعلان الارتباط الذى لا ينفكّ بها فى الموت والحياة.

إنّ الارتباط العالمى بالكعبة لا ينقطع ولا للحظة واحدة، فبسبب كرويّة الأرض

۱- الأنبياء: ۱۰۷؛ سبأ: ۲۸؛ والنساء: ۱۷۰؛ والأعراف: ۱۵۸ و ...

۲- الحج: ۲۸.

۳- بحار الأنوار ۱۷۵: ۶، ۲۲۸- ۲۲۹، ۲۳۷- ۲۳۸.

ص: ۹۷

واختلاف جهة القبلة فی البلدان والمدن، ولعدم اتّحاد أوقات الصلوات والأدعیة و ... فی المناطق بالنسبة لسکّان الأرض، فإنّ کلّ لحظة تشهد وجود شخص متّجه إلی القبلة فی حال صلاة ودعاء.

وسوف یأتی مزید من التوضیح حول الأبعاد المختلفة للکعبة المعظّمة فی المبحث القادم، کما سنتحدّث عن بعض أوجه الشبه بین الکعبة والقرآن الکریم والرسول الأکرم (ص).

خصائص الکعبة

اشارة

إنّ البشر الذین یتّجهون إلی جهة واحدة، ویدورون حول محور ومطاف واحد، سوف یعرفون بشکل أفضل معبودهم عندما یتعرّفون علی المزایا المعنویة لهذا المعبد، فیعبدون الله دون أیّ شائبة أکثر فأکثر، من هنا ذکرالله تعالی جملةً من الخصائص لقبلة العالمین ومطاف الزائرین، أی بیتالله الحرام، وسوف نشیر فی مطاوی هذا البحث إلی بعضها.

ومع ملاحظة هذه الخصائص سوف تتّضح أسرار بعض الکلمات التی قالها الرسول الکریم والأئمّة المعصومون حول الکعبة، مثل هذا البیان النورانی للرسول الأکرم (ص): «من أیسر ما یُعطی من ینظر إلی الکعبة أن یعطیه الله بکلّ نظرة حسنةً، وتُمحی عنه سیّئة، وتُرفع له درجة». (۱)

ومثل قول الإمام الصادق (ع): «النظر إلی الکعبة عبادة» (۲)، وقوله: «یصلح [ثیاب

۱- وسائل الشیعة ۳۶۵: ۹.

۲- المصدر السابق: ۳۶۴.

ص: ٩٨

الكعبة] للصبيان والمصاحف والمخدّة يبتغى بذلك البركة إن شاءالله». (١)

وقول الإمام الباقر (ع): «الـدخول فيها دخول فى رحمـة الله، والخروج منها خروجٌ من الذنوب، معصومٌ فيما بقى من عمره، مغفورٌ له ما سلف من ذنوبه». (٢)

وما جاء: «الداخلُ الكعبةَ يدخل والله راض عنه، ويخرج عُطلًا من الذنوب» (٣)، أى طاهراً منها.

والجدير بالذِّكر أنّنا قد شـرحنا بعض خصائص الكعبة كمنشأ حرمتها وعزّتها، وكذا مركزيّتها للبراءة من الطغيان والشـرك، فى الفصل الخامس والسادس من القسم الأوّل، وهنا نذكر خصائص أخرى للكعبة الشريفة:

١- تجلّى العرش

اشارة

لكلّ شىء عند الله خزائن ثابتة لا تفنى ولا تنفد، وينزل من تلك الخزائن الغيب، قال تعالى: () (۴)، لاعلى نحو التجافى المستلزم للعدم والزوال، وإنّمـا على نحو التجلّى، وعليه فموجودات عالم المادّة بأجمعها لها أصل محفوظ عنـد الله تعالى، ويرسل من هـذا الأصل إلى الأسـفل طبقاً لهندسـة خاصّة، وكلّ ما ينزل يكون له علاقةً لله ومرآةً له، قال (ع): «والحمد لله المتجلّى لخلقه بخلقه» ((۵))، تماماً كما يرجع إليه: (). (۶)

١- المصدر السابق: ٣٥٩.

٢- وسائل الشيعة ٣٧٠: ٩.

٣- المصدر السابق.

۴- الحجر: ٢١.

۵- نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨، الفقرة: ١.

۶- الشورى: ۵٣.

ص: ۹۹

ومن جملة هذه الامور أجزاء الكعبة وأركانها، وهى التى لها أصل طاهر فى المحضر الإلهى، وكلّ هذه الامور تنزل من ذاك الأصل الطيّب. (۱)

وشاهد هذا الكلام رواية وردت فى سرّ تربيع الكعبة وقد جاء فيها:

«لأنّها بحذاء البيت المعمور، وهو مربّع، فقيل له: ولِمَ صار البيت المعمور مربّعاً؟ قال: لأنّه بحذاء العرش وهو مربّع، فقيل له: ولِمَ صار العرش مربّعاً؟ قال: لأنّ الكلمات التى بُنى عليها الإسلام أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر». (۲)

ومضمون الكلام الرفيع والنورانى للإمام الصادق (ع) هو أنّ التسبيحات الأربع التى يقوم عليها نظام الوجود هى السبب فى تحقّق العرش المربّع، وتكوّن العرش هو الأساس فى تحقّق البيت المعمور، وهو ما يفضى فى النهاية إلى تحقّق موجود طبيعى فى عالم الطبيعة، ألا وهو الكعبة والجدران الأربعة، ومعنى ذلك أنّ ما هو فى عالم الطبيعة انموذج لما فى عالم المثال، وعالم المثال هو الآخر انموذج لعالم المجرّدات التامّ، وعالم المجرّدات التامّ أُنموذج للأسماء الإلهيّة الحسنى، التى هى فى أعلى التمام، والخلاصة أنّ ذاك النظام الربّانى بترتيب درجات وجوده يعدّ أساساً لتحقّق النظام العقلى والمثالى والطبيعى.

المراحل الأربع لأركان الدِّين ومعارفه

وكما انتظمت الكعبة على نسق العوالم الفوقيّة، كان القرآن والصلاة والصوم والحجّ والعمرة وسائر العبادات والآيات الإلهيّة كذلك، وعلى هذا الأساس، كانت للولاية مراحل أربع كالتى تقدّمت؛ ذلك أنّ الولاية من المبانى المهمّة للإسلام، فالولاية

۱- وسائل الشيعة ۳۸۶: ۹- ۳۸۸، ۴۰۲- ۴۰۷.

۲- بحار الأنوار ۵۷: ۹۶، وراجع المصدر السابق، هامش صفحة ۸۶.

ص: ۱۰۰

والقيادة فی عالم الطبيعة وفی المجتمع الإنسانی بمنزلة الكعبة، تماماً كما يقول أميرالمؤمنين علیّ (ع): «مَثَلُ الإمام مثل الكعبة؛ إذ تُؤتی ولا تأتی». (۱)

وعليه فالوجود الطبيعی والعنصری للولاية بمنزلة الكعبة الطبيعيّة، تماماً كما أنّ الوجود المثالی لها بمنزلة البيت المعمور، ووجودها العرشی بمنزلة الوجود العرشی للكعبة، وعلی ذلك فالولاية لها باطن يقف أمام التسبيحات الأربع؛ من هنا قال الأئمّة المعصومون:: «سبّحنا وسبّحت الملائكة» (۲)، أی أنّهم كما قالوا للناس فی النشأة الطبيعيّة: «صلّوا كما رأيتمونی أُصلّی» (۳)، و «خذوا عنّی مناسككم» (۴)، كذلك فی العالم العلوی يعدّ أهل البيت: إمام الملائكة، ومن التلقائی أنّ الولاية كالصلاة معراجٌ للمؤمن يتحلّی بصبغة التولّی للأولياء الإلهيّين، وعليه، فكما يُقال لقارئ القرآن: «إقرأ وارق» (۵)، كذلك يُقال للمصلّی: «صلِّ وارق»، ويقال لمتولّی الأولياء الإلهيّين: «تولّ وارق»، وللحاج والمعتمر: «حجّ واعتمر وارق».

إنّ الذی يطوی المراحل الأربع المذكورة سيكون قلبه عرش الرحمن، «قلب المؤمن عرش الرحمن». (۶)

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الرواية التی تبيّن سرّ تربيع الكعبة سوف يتّضح معنی الحديث القائل عن الكعبة: «إنّها قبلة من موضعها إلی السماء» (۷)؛ ذلك أنّه وإن كان ظاهر هذا الحديث التأكيد علی الانتباه للبُعد العمودی بوصفه حكماً فقهيّاً؛ إلّا أنّه

۱- المصدر السابق ۳۵۳: ۳۶، ۳۵۷.

۲- بحار الأنوار ۳۴۵: ۲۶.

۳- عوالی اللئالی ۱۹۷: ۱.

۴- المصدر السابق: ۲۱۵.

۵- الكافی ۶۰۶: ۲.

۶- بحار الأنوار ۳۹: ۵۵.

۷- وسائل الشيعة ۲۴۷: ۳.

ص: ۱۰۱

بقرينة الحديث الذى يبيّن سرّ تربيع الكعبة (۱) يحكى لنا بـدلالته الباطنية عن الارتباط الوجودى ما بين عوالم الطبيعة والمثال والعقل، وهو الطريق الذى يبدو طيّه لنيل الحقائق ممكناً، فالتأمّل والتدبّر فى المعارف مستفاد من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

إنّ الروح الطاهرة لزوّار الكعبة ستصل- بالإمداد الإلهى ونيل توفيق المتعالى والصعود والرقىّ- إلى المقام الشامخ للبيت المعمور ثمّ إلى مقام العرش، قال تعالى: () (۲)، وكما أن تنزل العرش الإلهى، وكذلك البيت المعمور على نحو التجلّى لا التجافى، كذلك فى الإنسان وتعاليه نحو المقام الأعلى يكون فى صورة الصعود الروحانى، لا الترقّى المكانى أو التجافى الأرضى، وعليه فإذا لم يدرك الزائر هذا المعنى الراقى ولم يكن هدفه من الطواف حول الكعبة هو التعالى الروحى، ولم يرَ هذا البيت معادلًا للبيت المعمور، ولميفهم أنّ هذا البيت المكعّب كالعرش فى الأرض، فلن يدرك المكانة الرفيعة للكعبة، ولن يعقد طرفاً لنفسه للقبول بمصطلح علم الكلام، رغم أنّه استفاد من الصحّة والقبول السائدين فى علم الفقه.

إنّ المقيم للحجّ والمعتمر الذى يفكّر تفكيراً أرضيّاً يطوف حول الكعبة، إنّه محدود التفكير فى أن لا يتخطّى الحدود الفقهيّة للمطاف (۵/ ۲۶ ذراعاً أو ۱۳ متراً وزيادة)، إلّا أنّ الذى تكون همّته وفكره أعلى وأرفع يطوف بالكعبة والبيت المعمور، فيما الطائف الأعمق نظراً يتخطّى الآخرين فيطوف حول الكعبة والبيت المعمور والعرش، ومثل هذا الحاج والمعتمر يصير قلبه عرش الرحمن، إنّه الأوحدى من المعتمرين

۱- بحار الأنوار ۵۷: ۹۶، وانظر المصدر السابق، هامش صفحة: ۸۶.

۲- فاطر: ۱۰.

ص: ۱۰۲

والحجّاج الذى يدور حول التسبيحات الأربع، فمن وجهة نظر هذا الزائر لا تكمن قيمة الكعبة وشموخها فى ارتفاع جدرانها، وإنّما فى رفعة الله تعالى لإسمها وذكرها وهو الأساس فى رفعة الطائفين، تماماً كما كان الرسول (ص) مرفوع الذكر () (۱)، وإلّا فالكعبة وسط الأبنية والأبراج العالية المحيطة بها لا يظهر منها ولايبرز شيء سوى منارات المسجد الحرام.

۲- قيام أسس الكعبة على التوحيد المحض

إنّ بناء الكعبة وتعيين أبعادها وشكلها إنّما هو بهداية من الله سبحانه، قال تعالى: () (۲)، فهذه الآية تعنى أنّ مكان الكعبة وهندستها مع رعاية الموضع الخاص لها إنّما حصل بهداية إلهيّة، على أساس التوحيد الصرف، بحيث ليس ثمّة شرك إطلاقاً أعمّ من الشرك الجلىّ والخفى بمكّة يمكنه أن يلوّثها.

وانطلاقاً من أنّ «كلّ أثر هو مظهرٌ للمؤثّر وكلّ مؤثّر متجلّى فى أثره»، فإنّ أىّ وصف ممتاز لحقّ الشخصيّة البارزة، للنبيّين الكبيرين والبانيين العظيمين للكعبة؛ أى الخليل والذبيح، وجاء فى النقل حولهما، يعدّ سنداً دالًّا على رسم خطوط المظهر المعنوى للكعبة، وهو بمثابة شرح لمصالح بنائها، وعليه فكما لم يكن إبراهيم يهوديّاً ولا نصرانيّاً، وإنّما كان حنيفاً، وسطاً، مسلماً، موحِّداً، ومنقاداً محضاً، ذائباً فى التوحيد، معصوماً من تأثير أىّ نوع من أنواع الشرك، يمكن أن تكون أوصاف الاعتدال والتوحيد والانقياد من عناصر هندسة الكعبة، كما يظهر فى بنائها خلوص وصفاء بنّائيها، فقد مزجت هندستها بقداسة الخلوص.

من هنا، فكلّ من كان أكثر قرباً لإبراهيم وأليق به كان أكثر لياقة لأن يكون

۱- الانشراح: ۴.

۲- الحج: ۲۶.

ص: ۱۰۳

حامیاً للکعبة، ولعمرانها الصوری والمعنوی، وهذا الفریق- غیر أنصار إبراهیم فی عصره- هم الرسول الأکرم (ص) والمؤمنون الأصیلون الخالصون الذین لا ینتمون إلی الیهودیّة ولا إلی الانحراف، وإنّما إلی الاعتدال فی العقیدة والخلق والعمل الصالح، وهم غیر مبتلین بالشرک الاعتقادی ولا الأخلاقی ولا العملی.

وانطلاقاً من أنّ الأثر مظهرٌ للمؤثّر وأوصافه لها أثر فیه، نلاحظ کیف قام مسجد قبا علی أساس التقوی والرضوان الإلهی، فیما أُسّس مسجد ضرار علی أساس الشرک والجرف الهار الذی ینهار به فی نار جهنّم. (۱)

وعلی أیّة حال، فالکعبة بهذه الهندسة الإلهیّة موضوع ومتعلّق للکثیر من الأحکام والفروع الفقهیّة، ومن بینها الحجّ، وکلّها تدور حول الأخلاق الصحیحة، وترتهنّ تلک الأخلاق الصحیحة بالعقیدة السالمة التوحیدیّة، وکما کان التوحید شجرة طوبی والتقوی ثمرة من ثمارها، کذلک الکعبة بُنیت علی أساس التوحید الخالص المنزّه عن مختلف أشکال الشرک، فکانت أصلًا لکافّة الأبنیة المؤسّسة علی التقوی، ومن بینها بناء مسجد قبا المقام علی التقوی، حیث کان فرعاً من فروع هذا الأصل، وثمرةً من بذوره.

ومن نماذج هذا التجلّی للتوحید الخالص عند الموحّدین الحقیقیّین ما نقل من أنّه: «قیل للزهری: من أزهد الناس فی الدُّنیا؟ قال: علیّ بن الحسین (ع) حیث کان، وقد قیل له- فیما بینه وبین محمّد بن الحنفیّة من المنازعة فی صدقات علیّ بن أبی طالب (ع)-: لو رکبت إلی الولید بن عبد الملک رکبة لکشف عنک من عزر شرّه ومیله علیک بمحمّد فإنّ بینه وبینی خلّة، قال: وکان هو بمکّة والولید بها، فقال: ویحک أفی حرمالله أسأل غیر الله عزّ وجلّ؛ إنّی آنف إذ أسأل الدُّنیا خالقها، فکیف أسألُ مخلوقاً

۱- التوبة: ۱۰۷- ۱۰۹.

ص: ١٠٤

مثلى؟». (١)

٣- تشييد أركان الكعبة على الخلوص الأصيل

إنّ بناء الكعبة ورفع بنيانها عبادة خالصة قام بها إبراهيم الخليل وإسماعيل، حيث لم يفعلا ذلك إلّا لله، ولم يطلبا جزاءً ولا شكراً على ذلك من أحد، قال تعالى: (). (٢)

ولم يكن هذا الإخلاص والخلوص لفظيّاً، وإنّما كان قلبيّاً كامناً فى أرواحهم، كما هو ظاهر على ألسنتهم؛ ذلك أنّ الذى يأتى الله تعالى بقلب سليم (٣)، لن يطلب قلبه ولن ينوى غيرالله سبحانه، وأنّ قوله: () (٤)، يعنى أنّ طهارة ضميره لن تتلوّث بما ينافى خلوصه وإخلاصه.

لقد قامت الكعبة على أساس الخلوص، ولأجل تقوى البنّاء وقعت موقع القبول من الله تعالى؛ وحيث كانت هندسة الكعبة على أساس التوحيد وعمرانها على أساس التقوى والخلوص .. لذا نالت شرف الانتساب إلى الله سبحانه فصارت بيت الله، وتحوّلت إلى شجرة طوبى أعطت ثمارها فى مختلف أنحاء العالم على صورة المساجد والمشاهد المشرّفة، (). (٥)

٤- مركز الطهارة ومطاف الطاهرين

١- بحار الأنوار ٧٥: ٤٢.

٢- البقرة: ١٢٧.

٣- الصافات: ٨٤.

٤- الصافات: ١٠٢.

٥- النور: ٣٦.

ص: ۱۰۵

لقد كان تطهير الكعبة من الشرك واللوث، وتنزيهها من غبار الطغيان والتمرّد، بأمر من الوحى الإلهى، قال تعالى: () (۱)، فقد أمر إبراهيم وإسماعيل بذلك، قال سبحانه: () (۲)، لقد كانوا ملتزمين تطهير البيت الحرام على نحو الدفع والرفع، أى أنّهم يزيلون آثار الشرك الباقية من الآخرين، كما لا يسمحون بآثار الشرك والانحراف الجديد أن ترسخ وتظهر وتتعاظم.

لقد أحيل تأمين طهارة الكعبة فى البداية إلى النبىّ إبراهيم (ع) بوصفه المسؤول الرئيس عن تأسيسها، قال تعالى: ()، وفى مرحلة البقاء، عهد الأمر إلى كلّ من إبراهيم وإسماعيل، قال سبحانه: ()، وسرّ هذا الأمر بالتطهير قبل الوجود، وإفراد الخطاب، ثمّ إعادة الأمر بعد الوجود وتثنية الخطاب هو أنّ الطهارة أساس للكعبة، ووجود الأساس ضرورى فى مرحلة الحدوث وفى مرحلة البقاء، ولا يمكن أن يقوم بناء دون أساس، كما أنّه إذا كان الأساس خرباً هزيلًا لم يبق البناء.

إنّ حذف متعلّقات الأوامر المذكورة دليل على العموم، أى أنّه لابدّ أن يكون حريم الكعبة من الداخل والخارج وكذا فضاء حرمها المتعلّق بها مصفّى منقّى مطهّر من كلّ رجس ورجز ظاهرى أو باطنى، فقهى أو طبّى.

وبهذا الميثاق الإلهى فى الطهارة:

أوّلًا: ليس هناك من يليق بإدارة الكعبة إلّا الطاهرون، قال تعالى: (

۱- الحج: ۲۶.

۲- البقرة: ۱۲۵.

ص: ۱۰۶

) (۱)، وليس للمشركين على أساس () (۲)، حقّ الدخول إلى هذا الحرم الآمن.

ثانياً: لا يبقى بـذلك أىّ مجال لتسافل وتلوّث الشـرك والمشـركين، ولا لقبح ولوث الصـنم وعبادة الأصـنام، من هنا كان أوّل ما أقدم عليه الإسـلام بعـد الانتصار على الإلحاد وعبادة الأصـنام هو تطهير الكعبة بأمر من رسولالله (ص) وبيد أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالب (ع) من لوث الأصـنام وكدر الوثنيّة، فإذا ما صارت الكعبة بعد الخليل والذبيح إلى أيدى صـناديد الجاهلية فصارت معبداً للأصنام، إلّا أنّها عادت للطهارة على اليـد المقتـدرة لرسولالله (ص) والعضد المتين العلوى، وإذا ما لوّثت يوماً برجس التحجّر والرجز القائمين على تغطية الدِّين (۳) عبر شـعار «حسبنا كتاب الله» فإنّ حضور الشعب المؤمن والمتديّن والملتزم والمنتظر واقعاً لفرج أهل بيت النبوّة سوف ينزّهها مرّةً جديدة.

وكمـا أنّ القرآن الكريم فى كتـاب مكنون لاـ يمسّه إلّاـ المطهّرون (۴)، فإنّ حقيقـة الكعبـة وسـرّها مطهّران من لمس الأيدى الملوّثة، وليس لغير الطـاهر معنويّاً قبـل التوبـة من توفيقٍ للوصول إليهـا، ولن يجتمع حولهـا للطواف سوى الطـاهرون، فيجعلونها محور شؤونهم كلّها فى حياتهم، حيث إنّ الطيّب من الطيّب والخبيث من الخبيث (۵)، وذلك كلّه لسببين:

الأوّل: الحجر الأسود الموجود فى الكعبة والذى هو بمنزلة يد الله تعالى (۶)، وكلتا

۱- الأنفال: ۳۴.

۲- التوبة: ۲۸.

۳- الحجر: ۹۱.

۴- الواقعة: ۷۷- ۷۹.

۵- النور: ۲۶.

۶- وسائل الشيعة ۴۰۶: ۹.

ص: ۱۰۷

يديه- وليس له يد- يمين. (۱)

الثانى: لأنّ هناك شخصيتين دينيّتين كبيرتين ونبويّتين كانتا مسؤولتين عن تطهيرها، وليس المقصود من الأمر بالتطهير خصوص التطهير من النجاسات الظاهريّة.

تعدّ آية: () صغرى لقياس كبراه الكلّية موجودة فى آية: () (۲)، رغم أنّ الآية الثانية جاءت فى مسجد قبا، إلّا أنّها أصلٌ كلّى أبرز مصاديقه الكعبة والمسجد الحرام، ذلك أنّ تمام المساجد فروع للكعبة، ولأداء احترام الكعبة تعدّ المساجد الاخرى محترمة؛ فلكلّ مسجد محراب يمثّل مظهره ومَعلَمه، وهذا المظهر يتّجه ناحية الكعبة دوماً، قال تعالى: (). (۳)

وتوضيح هذه النقطة أنّ فى الإسلام الكثير من الامور المشروطة باستقبال الكعبة، إلى حدّ أنّ حياة وممات كلّ مسلم مربوطان بالكعبة، إلّا أنّ الصلاة عمود الدِّين، والمسجد حتّى لو وضع لأهداف اخرى إلّا أنّ أهمّ أهدافه إقامة الصلاة فيه، وهى أمر مشروط بالقبلة، ومن هنا فتمام المساجد لها جهة معيّنة وهى جهة الكعبة، وبهذا التحليل يظهر أنّ تمام المساجد متّجهة إلى امّ المساجد الموضوعة فى امّ القرى، وهكذا اسّست.

نعم، القبلة الرسميّة للمسلمين عموماً فى العالم هو ذاك البُعد الموجود فى الكعبة،

۱- بحار الأنوار ۱۵۹: ۵.

۲- التوبة: ۱۰۸.

۳- البقرة: ۱۴۴.

ص: ۱۰۸

والمسجد الحرام إلى جوار الكعبة، فيكون من هذه الناحية مورد توجّه المسلمين فى الصلاة، كما أنّ مكّة امّ القرى، بمعنى أنّها من الناحية المادّية أصل المدن كافّة وكذا القرى، كما أنّها من الناحية المعنوية كذلك، ومسألة القبلة من هذا القبيل.

وعلى أيّة حال، فقد بُيّن فى ذيل الآية الشريفة المذكورة وظيفة أهل المسجد حيث جاء: () وإذا ما صار شخص طاهراً صار محبوباً لله تعالى، ()، وإذا ما صار محبوباً لله صار مجرى فيض الحقّ، ويجرى الله فى مقام العمل والفعل أعماله على يديه.

يقول الله تعالى بصراحة حول الكعبة أنّها بُنيت على الطهارة: ()، ومع الالتفات إلى هذا الأمر من تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلّية، يستفاد من الآية أنّ المصلّين غير الطاهرين يجب فى الحقيقة ألّا يتّجهوا إلى الكعبة، وكذلك الطائفون لا يطوفون بها، بمعنى أنّهم لايصلّون ولا يطوفون الصلاة والطواف الحقيقيّين، ذلك أنّه لا يمكن نيل سرّ وحقيقة بيت الله دون طهارة، كما أنّه لا يمكن الحصول على معارف من القرآن دونها.

وكما أنّ القرآن الكريم مرآة صافية لا يرى الناظر فيها إلّا جماله أو قبحه، كذلك الكعبة مرآة لا غبار عليها يرى فيها الناظر وجهه الجميل أو البشع، من هنا فغير الطاهرين الذين تلوّثوا برجس الشرك ولوث الطغيان والتمرّد، لن يتمكّنوا من إدراك الكعبة بوصفها بيت الله المنزّه عن الحلول فى المكان والمبرّأ عن الحصر فى الزمان، والمقدّس عن الحاجة، والمسبّح عن الفقر والفاقة لأحد أو شىء، ولن يستطيعوا النجاح فى الصلاة فى حريمها؛ من هنا وصف الله عبادتهم فى أطهر بقع العبادة بأنّه صفير وتصفيق، حيث قال: () (۱) ، وسوف نبيّن عند الحديث عن

۱- الأنفال: ۳۵، فمن سنن الجاهلية أنّ المشركين كانوا يرون أنفسهم ملزمين بالتصدّق باللّباس الذى كانوا يلبسونه حال الطواف، وكذلك على أساس الوهم الجاهلى كانوا يعتقدون بأنّ اللّباس الذى يرتكب الإنسان فيه معصيةً لا يمكن الطواف فيه، وبسبب هذين الاعتقادين كانوا يطوفون عُراةً، من هنا كان أمير المؤمنين- بأمر من رسولالله- مأموراً بإبلاغ الأمر الإلهى القاضى فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا التوبة: ۲۸، كما أنّه لا يسمح لأحد بالتعرّى.

ويقول علىّ فى هذا المجال: «إنّ رسولالله أمرنى عن الله أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد هذا العام» وسائل الشيعة ۴۶۳: ۹.

ص: ۱۰۹

«الطواف الجاهلى» السرّ فى ورود هذا التعبير بحقّ عبادة المشركين.

۵- محور القيام والقيامة

اشارة

الكعبة محور القيام والمقاومة والثبات الإنسانى على امتثال الأوامر الإلهيّة وتجنّب الباطل ومحاربة الظلم والجور، قال تعالى: () (۱)، والمراد من القيام هنا هو ما جاء فى الآية الشريفة الاخرى: () (۲)، والقيام فى هذه الآية هو المقاومة والاستقامة لاالوقوف واستقامة البدن، وفى مقابله القعود بمعنى الذلّة والقبول بالظلم والجور.

إنّ القيام والجهاد محور الدِّين الأصلى، وهو لا يعرف القعود والخنوع أبداً، قال تعالى: () (۳)، ومعتمد هذا القيام وعمود هذه المقاومة وأساس هذه الاستقامة الباعثة على قيام الناس ومقاومتهم أمام الجبّارين، يكمن فى قيام الكعبة وحياتها، ودوام أمرها، تماماً كما قال الإمام الصادق (ع): «لا يزال الدِّين قائماً ما قامت الكعبة» (۴)، والكعبة حيث كانت أساساً لقيام الناس وقوامهم وضعت فى وسط الأرض حتّى

۱- المائدة: ۹۷.

۲- سبأ: ۴۶.

۳- الحديد: ۲۵.

۴- وسائل الشيعة ۱۴: ۸.

ص: ۱۱۰

يكون التكليف متساوياً بين أهل المشرق والمغرب. (۱)

إنّ حياة الكعبة حياة الدِّين، والناس تحيى بحياة الدِّين، ومع خراب الكعبة وانعدامها وتركها يموت الدِّين وبموته يموت الناس، إنّ الكعبة بمثابة عظم فقرات الظهر بالنسبة لدين الله، فإذا كانت قويّةً سالمة كانت مقاومة الإنسان ووقوفه وذهابه وسرعته فى الوصول إلى المغفرة الإلهيّة والسبق فى امور الخير أمراً ممكناً، أمّا إذا كان هذا العظم عاجزاً وضعيفاً وهزيلًا فإنّ الوقوف يغدو غير ممكن، واستقامته لا تكون ميسورةً، وسرعته وسبقه و ... متوقّف على قيامه فتكون محالًا.

وعلى هذا الأساس، قال أمير المؤمنين (ع): «والله الله فى بيت ربّكم، لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن تُرك لم تناظروا» (۲)؛ فترك بيت الله وتخليته بمثابة سقوط العمود الذى يتكئ عليه الإنسان فإذا ما هُجر بيتالله فإنّه ينقطع الاتّصال بمركز القدرة، ومع قطعه سيغدو القيام بالقسط والمقاومة أمام الظلم والجور غير ممكنة، وهنا يكون خير الدُّنيا والآخرة ممنوعاً مقطوعاً؛ فالكعبة هى عامل قيام الناس للدِّين والمعاش. (۳)

من هنا يقول رسولالله (ص): «من أراد دنيا وآخرة فليؤمّ هذا البيت» (۴)، ومن أهمّ موارد أمّ الكعبة إنجاز الحجّ بآدابه ومناسكه العظيمة.

وأساس هذه الكلمات كلّها هو الآية الشريفة: (). (۵)

لذا كله يعمد إمام الزمان، قائم آل محمّد (ع)، فى بداية قيامه إلى جعل محور القيام

۱- المصدر السابق ۳۴۸: ۹، رغم أنّه يمكن فى الجسم الكروى اتّخاذ نقاط متعدّدة بمثابة المركز، إلّا أنّه وطبقاً لبعض النصوص، وبلحاظ أغلب الذين يعيشون على وجه الكرة الأرضية، ومع الأخذ بعين الاعتبار الأراضى المعمورة، فإنّ الكعبة تقع فى القسم المركزى من الأرض.

۲- نهج البلاغة، الرسالة رقم: ۴۷، الفقرة: ۶.

۳- وسائل الشيعة ۴۰: ۸- ۴۱.

۴- المصدر السابق.

۵- المائدة: ۹۷.

ص: ۱۱۱

والقوام بالنسبة للمجتمعات البشرية، أى الكعبة، معتمداً ومتّكأً له، فيسارع أنصاره إليه، كما يقول الإمام الباقر (ع): «.. إذا تشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ... وركب ذوات الفروج السروج .. وأُكل الرِّبا .. فعند ذلك خروج قائمنا، فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة واجتمع إليه ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلًا ...». (۱)

دور الاعتقاد والاقتصاد فی قوام المجتمعات الإنسانیّة

يذكر القرآن الكريم الكعبة بوصفها عامل قيام الناس (۲)، كما يذكر القدرات الاقتصادية بهذه الصفة أيضاً، حيث يقول: () (۳)؛ وعليه فالمسألة الاعتقادية والأمر العبادى للكعبة والحجّ والعمرة هى قوام المجتمع فى الامّة الإسلاميّة، وكذلك الاقتصاد، وهو أمر مادّى، إلّا أنّ ثقافة القرآن لا تضع هذين الأمرين فى مستوى بعضهما، بل الاعتقاد دائماً هو الأصل والبنية التحتيّة، فيما الاقتصاد فرع وبناء فوقى، وعندما يتزاحم الأصل والفرع يقدّم الأصل، من هنا لم تترك حادثة الحصار فى شِعب أبى طالب أىّ أثر فى انتشار الإسلام، وقبوله فى السنوات الاولى لظهوره على المسلمين المعتقدين، كذلك لم يترك الحصار الاقتصادى الحالى من جانب الغرب الناهب أىّ أثر فى اضمحلال الصحوة الإسلاميّة.

۶- بيت الأحرار ومحور الحرّية

اشارة

الكعبة بناء عتيق () (۴)، لم يكن تحت سلطان أىّ سلطة أو

۱- بحار الأنوار ۱۹۱: ۵۲- ۱۹۲.

۲- المائدة: ۹۷.

۳- النساء: ۵.

۴- الحج: ۲۹.

ص: ۱۱۲

ملکیتها، وقد کانت محمیّةً علی امتداد التاریخ من تطاول الطواغیت وتناول الملّاک، وتداول رجال الدولة والسلطة، کما کانت متحرّرةً- وما تزال- من أی سلطة بشریّة أو ملکیّة إنسانیة، فلا تختصّ بشخص أو فریق أو قوم أو قومیّة أو عرق أو دولة أو حکومة، تماماً کما یقول الإمام الباقر (ع) حول سرّ وصف الکعبة بالبیت العتیق: «هو بیت حرّ عتیق من الناس لم یملکه أحد» (۱)، فالله سبحانه لم ینسب هذا البیت من الأوّل لأحد غیره، فقال: () (۲)، کما أنّ بانی الکعبة لم یملکها من حیث إنّه هو المأمور ببنائها، لذا لم ینسبها لغیر الله تعالی، حیث قال: (). (۳)

وعلیه، فالکعبة عتیقة من حیث قدمها التاریخی ونفاستها، فذات قیمة وسبق، کما أنّها عتیقة من حیث تحرّرها وانعتاقها من کلّ سلطة مالکة وقهر سلطانی، والطواف حول مثل هذا البناء یعطی درساً فی الحرّیة، ویحرّر الإنسان من کلّ أنواع العبودیة عدا الله تعالی، وهذه العبودیة هی الفضیلة الوحیدة للإنسان، کما أنّ إرسال الأضحیة إلی البیت العتیق وذبحها فی داخل الحرم () (۴)و () (۵) یعطی درساً آخر فی التحرّر من التعلّقات.

إنّ الذین یرزقون زیارة هذا البناء لیسوا عبیداً لأنفسهم وحرصهم، ولا مماليك للمستعمرین والمستثمرین الخارجیّین، تماماً کما کان بنّاء الکعبة سیّدنا إبراهیم (ع) مبرّءاً من المیول والتعلّقات ومحمیّاً من الحرص والخوف و ... إنّ العبودیة لاتنسجم مع مدار الحرّیة والتحرّر.

۱- الکافی ۱۸۹: ۴.

۲- البقرة: ۱۲۵.

۳- إبراهیم: ۳۷.المائدة: ۹۵.

۴- المائدة: ۹۵.

۵- الحج: ۳۳.

ص: ۱۱۳

وبناءاً عليه، لا يمكن لغير المتحرّرين من قبضة سلطة المتسلّطين أن يطوفوا طوافاً حقيقيّاً حول هذا البيت، أو أن يجعلوه قبلتهم على نحو الحقيقة، وليس سوى الأحرار الحقيقيّون من قبضات الهوى، العاصون عليه والمتّجهون نحو القلب والروح من يتمكّن من الدوران حولها.

إنّ هذا الإقبال على الكعبة يجعل سلوك الإنسان ملائكيّاً، ويحرّره من الشهوة والغضب والرذائل الأخلاقيّة.

إذا جاهدت وسعيت غدوت مَلَكاً

فالحرير لا يأتى إلّا من ورق التوت. (۱)

إنّ الذى يطوف حرّاً حول البيت لا يغدو عبداً ولا ذليلًا، كما أنّه لا يرى نفسه سوى عبداً لله تعالى، تماماً كما يقول أمير المؤمنين (ع): «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً». (۲)

۷- مظهر المساواة

من أبرز مظاهر شموليّة الإسلام وعالميّته واستيعاب دعوته وندائه العالمى حول الكعبة هو الحجّ، حيث كان إعلانه عند بناء الكعبة موجّهاً للجميع، قال تعالى: (). (۳)

إنّ الكعبة بنيان إلهى لكلّ الناس على امتداد التاريخ، لا تختصّ بأحد أو قوم أو

۱- سنائى غزنوى.

۲- نهج البلاغة، الرسالة ۳۱، الفقرة: ۸۷.

۳- الحج: ۲۷.

ص: ١١٤

عصر أو إقليم، من هنا يجب على أهل المدن والقرى والأرياف، وعلى المتمدّنين وأهل البادية، وعلى القريب والبعيد، والغابر والقادم، وبشكل واحد أن يستفيدوا من نعمة الحجّ، قال تعالى: (...) (١)؛ وبهذا تغدو الكعبة والمسجد الحرام مظهراً بارزاً للمساواة بين الناس.

لقد دعا الله تعالى الجميع إلى أرض المساواة كى يتعلّموا ويتمرّنوا على التساوى والمساواة، ودعاهم إلى الطواف فى أطراف الكعبة جميعاً حيث قال: ()؛ فإذا حصل الطواف حول الكعبة، ودائرة المساواة، فلابدّ من إلقاء كلّ معانى الامتياز الفردى والعرقى والقومى واعتبار كلّ القوميات والأعراق قوميّته وعرقه، وكما يأخذ درس الطهارة من الطواف حول البيت الطاهر: () (٢)، كذلك لابدّ أن يكون حاصله من الحضور فى موضع تجلّى المساواة هو درس المساواة أيضاً، حتّى لا يرجّح فرداً على آخر، وعرقاً على آخر، أللّهمَّ إلّا على أساس التقوى التى تعنى الفضيلة المعنوية غير المادّية.

٨- الكعبة مرجع الخلق جميعاً

الكعبة مرجع عامّة الناس ومثابتهم، ومأمن جماهير الخلق، قال تعالى: () (٣)، وكما هو ظهور كلمة «الناس»، كذلك لم يجعل الله تعالى الكعبة مبتيّةً للمسلمين فقط.

تعنى كلمة «ثاب» رجع (٤)، و «مثاب» و «مثابة» بمعنى المرجع، وتاء المثابة تاء

١- الحجّ: ٢٥.

٢- البقرة: ١٢٥.

٣- المصدر السابق.

٤- الراغب الإصفهانى، المفردات: ٨٠، مادّة: ثوب.

ص: ١١٥

المبالغة، بمعنى أنّ البيت هو مرجع مكرّر للناس، ويطلق المرجع على المكان الذى يأتى منه الإنسان ويعود إليه مجدّداً، وعلى هذا الأساس فالكعبة هى الوطن الأصلى للناس، فعندما يزور الإنسان الكعبة يبدو وكأنه عاد إلى أهله، وبناءاً عليه فالكعبة مظهر الفطرة، والحالة الأصليّة للناس تتمثّل فى رجوعهم إلى الكعبة، وكلّ من ينصرف عن الكعبة يكون قد انحرف عن حالته الأصليّة.

وحيث كان كلّ مسلم على ارتباط مستمرّ بالكعبة- تماماً كما تقتضيه أفضل حالة الأدب الإسلامى فى الجلوس، وهى حالة التوجّه إلى الكعبة «خير المجالس ما استُقبل به القبلة» (١)، وهكذا كان رسولالله (ص) فى جلوسه (٢)- كان بالإمكان استظهار معنى آخر للمثاب وهو أنّ الكعبة مرجع الناس فى تمام اللحظات، فى الليل والنهار.

٩- مركز الاتّحاد

توفّر وحدة المرجع الأرضيةَ لاتّحاد الراجعين؛ فالإحساس بوحدة المقصد والمأوى وسيلة مناسبة لتضارب آراء الراجعين، وعلاقاتهم الفكرية، وهذا بنفسه مقدّمة مناسبة لإدراك ضرورة العودة المتّحدة، كى تتهيّأ عناصر عالميّة الإسلام وأصول المجتمع المهدوى، ورغم أنّه من وجهة نظر الملكوت أىّ جهة يتّجه إليها أحد فهو يتّجه إلى الله تعالى، () (٣)، إلّا أنّه على مستوى الملك ونطاق الطبيعة لا مفرّ من التوجّه إلى نقطة مركزية ومتكئ محورى.

لقد خلق الله سبحانه الكعبة للوحدة العالميّة حتّى يتمكّن الجميع من عيش حياة

١- وسائل الشيعة ٤٧٥: ٨.

٢- المصدر السابق؛ والكافى ٦٦١: ٢.

٣- البقرة: ١١٥.

ص: ١١٦

سلميّة هانئة مع الاهتمام بالاصول القيّمة للتوحيد، ومركز إجراء هذه الفكرة ليس سوى الكعبة التى جعلها الله سبحانه تجمّعاً لأطراف العالم الإسلامى عبر اعتبارها قبلةً ومطافاً للعالمين، حتّى يتّحد مسلمو العالم بامتلاكهم المحور الذى يعطى الوحدة ويتعرّفون بذلك على بعضهم.

وبناءاً عليه، فالكعبة مركز عام ومحور رئيس لتبادل وجهات النظر من الأطراف كافّة حتّى يلتقى المسلمون من القريب والبعيد إلى جانب بعضهم، يطرحوا هناك القضايا العلميّة والعمليّة والمشكلات السياسيّة والاجتماعية كى يقوموا بحلّها ويُحكموا بذلك العلاقة فيما بينهم.

لقد بُنيت الكعبة على يد قويّة لنبيٍّ عظيم حتّى تكون مركزاً لنشر التوحيد، وعندما احتاجت فى عصر خاتم الأنبياء (ص) إلى التجديد، وبعد انهيار قسم من جدار الكعبة وحصول خلاف بين القبائل العربية فى نصب الحجر الأسود فى من هى القبيلة التى ستنال شرف نصب هذا الحجر ... اتّفق الجميع على اختيار محمّد الأمين (ص) بوصفه العاقل المحايد والناظر غير المتحيّز ولا المغرض .. حتّى يقبلوا بأىّ قرار يتّخذه (ص) .. هناك طلب منهم الرسول (ص) أن يفترشوا رداءاً ليضعوا الحجر الأسود فيه، فتأخذ كلّ قبيلة طرفاً من الرداء، وبهذا عاد الحجر الأسود إلى مكانه الخاصّ، وجعله الرسول (ص) بيده المباركة فى محلّه الموجود اليوم. (١)

لقد ارتفعت أرضية الخلافات الجاهلية القوميّة والعرقيّة إلى حدّ ما على هدى إرشادات خاتم الأنبياء (ص)، وقد دعا الرسول الأكرم (ص) بهذا الابتكار التاريخى .. دعا الشعب إلى الاتّحاد، مقدِّماً الكعبة منادياً لذلك ومركزاً للوحدة.

إنّ هذا الوصف الممتاز يتلألأ إلى جانب سائر الأوصاف البارزة للكعبة، وهو أنّها تكوّن مدرسة التوحيد والاتّحاد والوحدة، فالبيت الذى تقدّسه امّة من الناس

١- وسائل الشيعة ٣٢٩: ٩- ٣٣٠.

ص: ١١٧

ويشارك الجميع فى بنائه وعمارته، وأهمّ جزء منه قد نصب فى موضعه الخاصّ مع حفظ تمام الحقوق، وكان للإنسان الكامل الأطهر دورٌ فى نصب هذا الجزء المقدّس، ذلك الإنسان الذى تعدّ الوحدة الشعبيّة من أهمّ رسائله الهامّة .. إنّ هذا البيت له دور فاعل فى أن يكون مركزاً للوحدة.

ملاحظة

لقد خصّصنا البحث الأوّل من هذا الفصل للحديث عن المكانة المحورية للكعبة فى توحيد الامّة الإسلاميّة.

١٠- أقدم المعابد العامّة

كلّ الأرض مسجد، قال رسولالله (ص): «جُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» (١)، وقد عبد الإنسان منذ القدم السحيق الله سبحانه فى زوايا الأرض وأطرافها، إلّا أنّ أوّل مكان مخصّص للعبادة الجماعيّة كان الكعبة، قال تعالى: (). (٢)

إنّ الكعبة- ومع هذا الماضى المقدّس والتاريخ المبارك- متقدّمة فى الشرف على بيت المقدس، فصارت قبلةً للعالمين، وقد استند إلى هذا التاريخ السحيق عندما نزل الوحى الإلهى حول تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظّمة واعترض اليهود على الإسلام بقداسة البيت المقدّس وقدمه، حيث ذكر أنّ الكعبة المطهّرة كانت أوّل بيت وأقدم بيت وضع للناس.

لعلّه من هذا المنطلق أطلق على الكعبة عنوان «البيت العتيق»، ذلك أنّ العتيق

١- المصدر السابق ٩٦٩: ٢.

٢- آل عمران: ٩٦.

ص: ١١٨

يُطلق على القديم والنفيس، والشيء الذى لا قِدَم له، أو هو قديم لكنّه ليس بنفيس لا يسمّى عتيقاً.

نعم، كما كان مدار الكرامة فى النظام الإنسانى الإلهى هو التقوى لا غير، كذلك محور قداسة الظواهر المادّية والنظام الخارج عن الإنسان كالأزمنة والأمكنة وأمثالها هو تجلّى الأمر الإلهى، كنزول الوحى فيه أو بسط الوحى عنده، وهذا الأمر الإلهى هو الموجب الوحيد لقداسة الكعبة، والتى غدت بيتاً عتيقاً نظراً إلى انضمام قدمها التاريخى إلى ذلك.

وتوضيح هذا الأمر أنّ حرمة الحرم ومكّة إنّما هى بالكعبة، وحرمة الكعبة بالوحى الإلهى والإنسان الكامل والمعصوم الذى يغدو الخليفة التامّة لله سبحانه على أثر الاتّصال به وتلقّيه الوحى، أعمّ من الوحى التشريعى والوحى التسديدى الغيبى، كما أنّ الكلام والكتاب الإلهى- أى القرآن الكريم الحكيم- يأخذ حرمته من حرمة المتكلِّم والكاتب، أى الله سبحانه، تماماً كما هى حرمة الخليفة- أى الإنسان الكامل- تكون بالمستخلف عنه، أى الله الحكيم، إنّ حرمة الله تعالى بالذات، وعلى أساس الأصل القاضى بأنّ كلّ ما بالعرض لابدّ أن يرجع إلى ما بالذات، تكون الحرمة الإلهيّة هى المرجع الحصرى لكافة الحرمات المذكورة.

وبناءاً عليه، فكافة الامور المذكورة من نزول الوحى إلى هبوط الكتاب السماوى ووجود الإنسان الكامل الذى يكون قلبه المطهّر مهبطاً للوحى (١)، لها دور فاعل فى قداسة الكعبة، تماماً كما أنّ لبنّاء البيت العتيق وكيفيّة تطهيره من لوث الوثنيّة والمعصية دوراً أيضاً فى قداسة الكعبة.

وللبيت العتيق معنى آخر سبق التعرّض له وبيانه.

١- الشعراء: ١٩٣- ١٩٤.

ص: ١١٩

١١- أفضل المعابد

كما لا يوجد عند الله أحبّ من الإسلام المتمثّل بالكعبة، كذلك ليس هناك من بقعة أحبّ إليه تعالى من الكعبة، من هنا يقول الإمام الصادق (ع): «إنّ الله اختار من كلّ شيء شيئاً واختار من الأرض موضع الكعبة». (١)

لقد انتشر في صدر الإسلام تفكير إسرائيلي مصحوب بترسّبات جاهليّة على يد أفراد مثل كعب الأحبار، كمرض ووباء معدٍ، وقد وقفت العترة الطاهرة- وهي عدل القرآن- وبكلّ قوّة وصلابة في وجه هذا المرض وإبطاله، وهذا أُنموذج لذلك:

يقول زرارة: «كنت قاعداً إلى جنب أبي جعفر (ع) وهو محتب مستقبل الكعبة، فقال: أما أنّ النظر إليها عبادة، فجاءه رجل من بجيلة يُقال له: عاصم بن عمر، فقال لأبي جعفر (ع): إنّ كعب الأحبار كان يقول: إنّ الكعبة تسجد لبيت المقدس في كلّ غداة، فقال أبو جعفر (ع): فما تقول فيما قال كعب الأحبار؟ فقال: صدق القول ما قال كعب، فقال أبو جعفر (ع): كذبت وكذب كعب الأحبار معك، وغضب، وقال زرارة: ما رأيته استقبل أحداً يقول: كذبت، غيره. قال: ما خلق الله عزّ وجلّ بقعةً في الأرض أحبّ إليه منها، ثمّ أومئ بيده نحو الكعبة، ولا أكرم على الله عزّ وجلّ منها ...». (٢)

لم يُسند الله تعالى البيت المقدّس- رغم كلّ قداسته- إلى نفسه، وإنّما أطلق هذا التعبير بحقّ الكعبة حين قال: بَيْتِي (٣)، نعم أسندت الكعبة- من جهة- للناس حيث قال تعالى: (...) (٤)، إلّا أنّ هذا الإسناد المرفق بحرف اللّام يدلّ على أنّ الكعبة جعلت- من حيث التشريع- معبداً وقبلةً ومطافاً للناس.

١- وسائل الشيعة ٣٤٨: ٩.

٢- وسائل الشيعة ٣٦٣: ٩.

٣- البقرة: ١٢٥؛ والحج: ٢٦.

٤- آل عمران: ٩٦.

ص: ۱۲۰

۱۲- منشأ البركة

الكعبة منشأ البركات الكثيرة ووسيلة هداية العالمين، قال تعالى: () (۱)، فالله سبحانه ثابت دائم بنفسه، وخيراته شاملة للعالم كثيرة حول الكعبة وثابتة، من هنا جاء وصف «مباركة» الذى يُطلق على الشيء الثابت الدائم.

ومن علامات «المبارك» فى الكعبة استمرار العبادة فى أطرافها، حتّى لا ينقطع الطواف ولا للحظة واحدة من حولها باستثناء حالة صلاة الجماعة، كما أنّ الثواب على العبادات عندها مضاعف، وكذلك غفران الذنوب إلى جانبها (۲)، والظاهر أنّه لا يوجد دليل على تقييد هذه البركة.

۱۳- الكعبة وسيلة الهداية

الكعبة وسيلة هداية العالمين، قال سبحانه: ()، فكلّ العباد والسالكين يتوجّهون إلى الكعبة، ومن هناك انطلقت دعوة الحقّ على يد الكثير من الأنبياء: حتّى بلغت مسامع العالمين، من هنا قال سبحانه عنها: () تماماً كما دعا خاتم الأنبياء (ص) الناس إلى التوحيد من هناك، وكذا خاتم الأوصياء (ع) سيكون منطلقه وظهوره من تلك النقطة أيضاً نحو العالمين، وهناك الآيات الإلهيّة الواضحة، قال سبحانه: () (۳) ووسائل اخرى كثيرة لهداية الناس إلى الحقّ.

ومن مصاديق الهداية الإلهيّة فى تلك الأرض معرفة الله تعالى بدلالة الآيات البيّنة فى

۱- المصدر السابق.

۲- الطبرسى، مجمع البيان ۱- ۷۹۸: ۲.

۳- آل عمران: ۹۷.

ص: ١٢١

الكعبة وأطرافها، وكذلك دلالة الكعبة على الجهة التى لابدّ من الصلاة نحوها، وهى الطريق إلى الجنّة الذى يتمّ العثور عليه عبر إقامة الحجّ والطواف حولها ((١))، لكن وكما أُشير آنفاً .. لا دليل على تقييد البركة والهداية المذكورين، كما لا تفصيل بينهما وتمييز.

١٤- حماية الكعبة

اسّست الكعبة حتّى يتّجه إليها العابدون، وحيث كانت العبادة لازمةً للإنسان وضروريّة، ولا تقبل هذه السنّةُ القديمة الإلهيّة الزوالَ، كذلك الحجّ- كالصلاة- من الاصول الرئيسة للإسلام، وأحد أبرز الوجوه العبادية للشرع عموماً ودوماً حماية الكعبة وحفظها من الهجوم والسهام الحاقدة، ولهذا كان ذلك جزءاً من البرامج الإلهيّة الحتميّة، وعلى هذا الأساس هلك أصحاب الفيل بمعجزة غيبيّة لمّا أرادوا هدم الكعبة وإعدامها. (٢)

والذى يُستفاد من الآية الشريفة: () (٣) أنّ التصميم على القيام بالظلم فى الحجّ وزيارة الكعبة، وإن لم يكن يبلغ حدّ العمل، إلّا أنّه يوجب الانتقام الإلهى أيضاً، وكلّ شخص يريد الظلم بإلحاد، أو يسدّ هذا السبيل الإلهى، ويصرف الناس عن زيارة الكعبة والعبادة .. فإنّه سوف يكون مشمولًا لهذا التهديد المرعب المخيف، والله سبحانه سوف يذيقهم عذاباً أليماً، وإذا ما وقعت الكعبة فى بعض فترات التاريخ موقع الظلم وإرادة إلحاق الضرر بها ولم يلحق المهاجمين المعتدين العذاب فوراً، فإنّ ذلك كان لسبب سوف يأتى ذكره عند الحديث عن العلاقة بين الكعبة والإمامة وأهمّية مقام الإمامة الرفيع.

أمّا عن حماية الكعبة ومصونيّتها فقد تقدّم الحديث عن ذلك مفصّلًا نسبيّاً فى

١- الطبرسى، مجمع البيان ١- ٧٩٨: ٢.

٢- الفيل: ١- ٥.

٣- الحجّ: ٢٥.

ص: ۱۲۲

الفصل الثالث من القسم الأوّل، لا سیما فی الفرع الثالث عند الحدیث عن «علاقة الحجّ وشؤونه بالولایة». (۱)

۱۵- الولایة روح الکعبة

تحاذی الکعبة البیت المعمور، وهو فی مقابل العرش الإلهی، وقد بنی البیت المعمور حتّی یحصل الملائکة الذین لم یعرفوا لمقام الإنسانیة الخلافة ویجعلون التسبیح والتقدیس الصادر منهم سنداً مناسباً لصیرورتهم خلفاء لله، وتعرّفوا بالتنبیه الإلهی علی أوج مقام الإنسان الکامل، وأعلنوا الندم علی ما اقترفوه، کاتبین استقالتهم، معلنین ندمهم عبر الاستفهام التعجّبی والاستخبار والاستعلام والاستسفار ... حتّی یطوف هؤلاء به، فیرمّمون بذلک نقص عملهم (۲).. کما کان البیت المعمور قد صنع

۱- ثمّة روایات فی هذا المضمار عن الأئمّة المعصومین: جاءت فی بعض المجامیع الروائیة تحت عنوان «باب مَن أراد الکعبة بسوء» فانظر: من لا یحضره الفقیه ۲۴۸: ۲، والوافی ۵۳: ۱۲.

۲- جاء فی الکافی ۱۸۷: ۴- ۱۸۸، باب بدء البیت والطواف، حدیثان مختلفان قلیلًا فی السند وبعض العبارات فی المتن إلّا أنّ الذی یبدو أنّهما من أصل واحد، وقد جاء فی الروایتین أنّ الإمام الصادق ینقل جواب والده الإمام الباقر ۷ عن سؤال وجّهه إلیه شخص یرید أن یعرف علّة تشریع الطواف، وفی الروایة الاولی صرّح ب-: «. فأمر الله ملکاً فی الملائکة أن یجعل له بیتاً فی السماء السادسة یسمّی الضراح بإزاء عرشه ..»، کما کان القسم الأخیر من الروایة الثانیة علی الشکل التالی: «إنّ الله عزّ وجلّ لمّا أمر الملائکة أن یسجدوا لآدم ۷، ردّوا علیه، فقالوا: أَتَجْعَلُ فِیهَا مَنْ یُفْسِدُ فِیهَا وَیَسْفِکُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَنُقَدِّسُ لَکَ قال الله تبارک وتعالی: إِنِّی أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ البقرة: ۳۰، فغضب علیهم، ثمّ سألوه التوبة، فأمرهم أن یطوفوا بالضراح، وهو البیت المعمور، ومکثوا یطوفون به سبع سنین] و [یستغفرون الله عزّ وجلّ ممّا قالوا. ثمّ تاب الله علیهم من بعد ذلک ورضی عنهم، فهذا کان أصل الطواف، ثمّ جعلالله البیت الحرام حذو الضراح توبةً لمن أذنب من بنی آدم وطهوراً لهم».

لابدّ من الانتباه فی ورود تعابیر مثل ردّ الملائکة، غضبهم ثمّ ندمهم واستغفارهم، سخط الله وغضبه، حجبهم عن النور الإلهی، وهو ما جاء فی بعض الروایات فی ذیل الآیات ۳۰- ۳۴ من سورة البقرة، فهذه التعابیر:

أوّلًا: بحاجة إلی توجیه وتبیین علی تقدیر صحّة سندها تماماً کما هی الحال فی بعض الآیات المتعلّقة بالتوحید والنبوّة.

ثانیاً: لیس عالم الملائکة منطقة للتشریع والأحکام الفقهیّة، وإلّا کانت لدیهم شریعة ورسالة وحدود وعقوبات وثواب و ...

ثالثاً: إنّ احتفاف حوار الملائکة لله بکلمات مثل التسبیح والتقدیس والعلم والحکمة دلیل علی اعتقادهم واعترافهم بنزاهة عمل الله تعالی وقداسته من کلّ عیب ونقص، وإذعان منهم بالعلم والحکمة الإلهیة، وهذا الاعتقاد والإذعان قرینة کافیة علی استفهامیّة سؤالهم.

رابعاً: رغم أنّ ظاهر بعض الروایات کراهة الملائکة لجعل الخلافة لآدم إلّا أنّ الملائکة المعهودین فی القرآن معصومون جمیعاً، فأدلّة عصمتهم تأبی عن التخصیص.

خامساً: إنّ ثناء الملائکة وتنزیههم لله تعالی لیس سنداً للتدارک، لأنّ سیرة المَلَک وسریرته هو التسبیح المنسجم مع الثناء والتقدیس الإلهیّین.

سادساً: جاء فی بعض الروایات أنّ الملائکة غضبوا لرضا الله تعالی وتأسّفوا علی أهل الأرض بحار الأنوار ۱۰۳: ۱۱، فغضب الملائکة وتأسّفهم له صبغة عبادیة.

ص: ۱۲۳

لـذلک، کـذا الکعبهٔ صـنعت للطواف حولها حتّی یرمّم الجمیع قصورهم ویجبروا تقصـیرهم لاسـیّما الغفلهٔ عن مقام الإنسانیهٔ، والسـهو والنسیان أو العصیان فی محضر خلیفهٔ الله.

من هنـا، فأفضـل تنبّه للطائفین الغافلین والحجّاج الـذاهلین هو تـدارک الجهل وجبران غفلتهم بأنفسـهم وعـدم معرفتهم للمقام الشامخ للإنسان الکامل وخلیفهٔ العصر بقیّهٔ الله (ع)، حتّی یغدو کالملائکهٔ مقبول الطواف ومشکورَ السعی.

بناءاً علیه، رغم أنّ النظر إلی الکعبهٔ محمود وممدوح، والناظر إلیها مُثاب ومأجور (۱)، إلّا أنّه کما هی کلمهٔ التوحید مشروطهٔ بالولایهٔ، حصن الأمن ودرع النجاهٔ (۲)، کـذلک النظر العرفانی- المنسـجم مع الولایـهٔ- إلی الکعبـهٔ هو أیضاً أساس غفران الـذنب، وأصل نیل الجاه، والتحرّر من حفرهٔ الطبیعـهٔ وغمّ الـدنیا والآخرهٔ، تماماً کما یقول الإمام الصادق (ع): «من نظر إلی الکعبهٔ بمعرفهٔ، فعرف من حقّنا وحُرمتنا مثل

۱- وسائل الشیعهٔ ۳۶۴: ۹.

۲- بحار الأنوار ۷: ۳.

ص: ۱۲۴

الذی عرف من حقّها وحرمتها، غفر الله ذنوبه وکفاه همّ الدُّنیا والآخرهٔ» ((۱)). وشاهد ذلک عدم قبول عبادات منکری الولایهٔ.

من هـذا المنطلق یتّضـح معنی الحـدیث الوارد فی محبوبیّـهٔ أرض مکّـهٔ وکـلّ مـا کـان فی فضائهـا وعلیها، أعمّ من التراب، والحجارهٔ، والأشجار، والجبال والماء (۲)، أی أنّ منطقـهٔ الحرم التی یعـدّ إدراک حقّها ومعرفـهٔ حرمتها معرفـهً مندمجهً بعرفان حقّ الولایهٔ وامتثال آثـار الولاـء أحبّ الامور، ولا شـیء مثله فی المحبوبیّـهٔ، ذلک أنّ القرآن عـدل الثقل الأصـغر (الولایـهٔ) وهو محبوب العارفین بالثقلین ومعروفهم، وأرض الوحی أسـاس انبعـاث هـذا الإقـدام الممزوج بالامتثـال، وهـذه المعرفـهٔ المتناغمـهٔ مع العمـل، من هنـا کـانت أکـثر الأراضی محبوبیّهً.

فإذا کانت الکعبـهٔ مدینـهً بتمام ألوان الشـرف، وقـد قدّرت وظائف لذلک، فروح هذه المراسم والمناسک هی الولایهٔ والإمامهٔ ومعرفهٔ الإمام والخضوع له والتسـلیم أمامه، علی هـذا الأساس تطرح فضائل أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب (ع)، ویتوهّم فریق أنّه أفضل منه، فیبیّن الله تعالی أفضلیّته بوصفه أبرز مصادیق أهل الإیمان والجهاد، قال سبحانه: (). (۳)

إنّ حرمـهٔ الکعبـهٔ- التی یوجب هتکها والإساءهٔ إلیها العـذاب الإلهی الألیم- منطلقـهٔ من حرمـهٔ الولایـهٔ التی هی باطن المقامات النبویّهٔ الشامخهٔ ومقامات الرسالهٔ والإمامهٔ، فمن لم یعرف إمامه، وکانت حیاته کموته جاهلیّین (۴) إذا احتمی بالکعبهٔ فلا یأمن بالأمن الإلهی، بل یُعطی عدوّه مهلهً حتّی یلقی القبض علیه، حتّی لو کان ذلک

۱- وسائل الشیعهٔ ۳۶۴: ۹.

۲- المصدر السابق: ۳۴۹.

۳- التوبهٔ: ۱۹، وانظر: بحار الأنوار ۲۸۸: ۲۲.

۴- المناقب ۲۴۶: ۱.

ص: ۱۲۵

فی إطار تخریب الکعبة، ذلک أنّه: «لم یناد بشیء کما نُودی بالولایة». (۱)

وقد تقدّم مزید من التوضیح حول العلاقة بین شؤون الحجّ المختلفة وعین الولایة فی الفصل الخامس من القسم الأوّل.

۱۶- علامة القبلة

تکمن أهمّیة القبلة ومکانتها فی أنّها علامة علی کیان الدِّین والامّة، تماماً کما یسمّی المسلمون «أهل القبلة» ویُعرفون أیضاً بأهل القرآن؛ ولهذا اعتبر الله سبحانه القبلة امتحاناً کبیراً، حیث قال: (). (۲)

لقد کان بیت المقدس قبلة المسلمین قبل الهجرة ومقداراً بعدها، رغم أنّ رسولالله کان یسعی- حدّ الإمکان- أثناء الصلاة أن یجعل الکعبة بینه وبین بیت المقدس حتّی یتمکّن فی آن واحد من الصلاة إلی الکعبة وإلی بیت المقدس. (۳)

نعم، هذا العمل لم یکن ممکناً فی المدینة المنوّرة، من هنا تغیّرت القبلة بعد سنة وبضعة أشهر من الهجرة إلی المدینة بأمر من الله لتتحوّل من بیت المقدس إلی الکعبة، وهنا قال أعداء الإسلام اللجوجون والمعاندون: إذا لم یکن التوجّه إلی بیت المقدس حقّاً فلماذا کانت الصلاة إلیه لأکثر من أربعة عشر عاماً- طبقاً لکون الصلاة قد فرضت فی أوّل البعثة- وإذا لم یکن استقباله حقّاً فلماذا تحوّل محمّد عنه؟!

وبالأخذ بعین الاعتبار فی القبلة عنصر الجهة لا المکان، علی خلاف الطواف حیث العبرة فیه بالمطاف والمکان لا الجهة، أجاب الله سبحانه اعتراضهم هذا بالقول:

۱- الکافی ۱۸: ۲.

۲- البقرة: ۱۴۳.

۳- بحار الأنوار ۱۰۵: ۴؛ و ۵۹: ۸۱ و ۲۱۸: ۹۲.

ص: ۱۲۶

() (۱)، بمعنی أنّ جمیع الجهات لله تعالی، إذ کلّ شیء مِلکه ومُلکه (۲)، وزمام الأشیاء بیده وإلیه. (۳) وانطلاقاً من کرویّة الأرض وحرکتها الوضعیّة نری:

أوّلًا: أنّ تمام نقاط الأرض تعدّ مشرقاً ومغرباً بملاحظة طلوع الشمس وغروبها.

ثانیاً: إذا لم یکن هناک مشرق ومغرب فلا- شمال ولا- جنوب أیضاً، وعلیه فتمام الجهات متساویة فی ملک الحقّ سبحانه، ولا مزیّة لإحداها علی الاخری، فبیت المقدس لیس بأشرف من الکعبة حتّی یکون العدول عنه مستحیلًا عقلًا وممنوعاً؛ فلا رجحان ذاتیّ لأیّ من هذه الجهات، فکلّها لله، وهو المبدأ الفاعلی لجعل هذه أو تلک قبلةً.

وبناءاً علیه، فکلّ جهة یتّجه إلیها الإنسان هی وجه الله، قال سبحانه: () (۴)، فلاخصوصیّة للکعبة من هذه الناحیة، أی أنّ الأمر لیس بحیث لو لم یستقبل الإنسان الکعبة فلا یکون مستقبلًا لله سبحانه، حتّی لو کان رسولالله (ص) یجلس نحو القبلة. (۵)

إنّ وجوب الاتّجاه نحو الکعبة فی بعض الامور، مثل: الصلاة والذبح، وحرمة ذلک أو حرمة استدبار الکعبة فی موارد اخری إنّما هو منحصر فی نطاق الأحکام الفقهیّة، وإلّا فلا جهة من الجهات یمکنها أن تحدّد الله تعالی.

ویؤیّد هذا الأمر أنّه إذا لم یکن القیام واجباً فی أصل الصلاة أمکن للمصلّی فی داخل الکعبة أن ینام علی ظهره ویصلّی متّجهاً نحو السماء، ذلک أنّ داخل الکعبة ومن تمام جهاتها الأعمّ من الأضلاع والزوایا یعدّ قبلةً ومصداقاً بارزاً لقوله تعالی: ().

۱- البقرة: ۱۱۵.

۲- الملک: ۱.

۳- یس: ۸۳.

۴- البقرة: ۱۱۵.

۵- الکافی ۶۶۱: ۲.

ص: ۱۲۷

وعلی أیّ حال، لم تجعل الکعبـة أوّل قبلـة للمسـلمین حتّی زال التعصّب الجاهلی وعلم المتّبع من المنقلب، قال سـبحانه: () (۱)، ذلک أنه لو جعلت الکعبـة قبلـةً منذ انطلاقة البعثة فسوف تحیا ترسّبات الجاهلیة العربیة والتعصّبات القومیّة، وبعد أن تأمّن الهدف المذکور ولمواجهـة تعصّب یهود المدینة وأطرافها وطعنهم حیث قالوا: لم یکن المسـلمون مسـتقلّین فی القبلة بل تابعین لقبلتنا، من هنا حوّل الله القبلة مرّةً اخری إلی الکعبة.

لقـد أدّی توهّم التبعیّة للیهود فی أمر القبلة إلی ظهور إحساس الحقارة والذلّة فی نفوس المسـلمین، حتّی أنّ الرسول کان ینتظر الوحی لحلّ هذا المعضل، قال تعالی: () (۲) رغم أنّ الله تعالی عـدّ رسوله الأکرم (ص) أکمل مصداق للهدایة حیث قال: () (۳)، مصرّحاً فی أمر القبلة بقوله: () (۴)، لکن مع ذلک کان انتظار النبیّ (ص) من ناحیة الطعن والتحقیر الذی مارسه معوجّو الفکر وسیّئو اللِّسان ضـدّ الإسـلام والمسـلمین، لاـ أنّه انطلق من أساس شخصـی أو عرقی أو قبلی، لـذا قال تعالی: () (۵)، علی أساس أنّ الإنسان الکامل الـذی وصل إلی مقام الرضا ورضـی الله عنه کما رضی هو عنه () (۶)، لیس عنده رضا نفسـی أو قومی بل «رضی الله رضانا أهل البیت» (۷)، فمثل هذا الإنسان

۱- البقرة: ۱۴۳.

۲- البقرة: ۱۴۴.

۳- الزخرف: ۴۳.

۴- البقرة: ۱۴۳.

۵- البقرة: ۱۴۴.

۶- المائدة: ۱۱۹.

۷- بحار الأنوار ۳۶۶: ۴۴.

ص: ۱۲۸

یطلب ما یرضاه الله وبإذنه، ولهذا قبل القبلة حیث کانت مرضیّةً عند الله، والله تعالی رضی بالقبلة حیث تکون مصونةً من الطعن.

القبلة هی البُعد الذی لا یتغیّر للکعبة

الکعبة هی ما یتّجه إلیه المسلمون فی حیاتهم ومماتهم ویرتبطون به ارتباطاً دینیّاً مباشراً، لهذا عُلّمنا أن نقول: «الکعبة قبلتی» (۱)، إنّ الارتباط المباشر بین المسلمین والکعبة فی حیاتهم ومماتهم یظهر فی بعض الحالات بالاتّجاه نحو القبلة واجباً، مثل حال الصلاة والذبح، واخری مستحبّاً، وفی بعض الحالات یکون استقبال الکعبة أو استدبارها حراماً أو مکروهاً، وفی هذا المجال ثمّة نقاط تستحقّ الانتباه وهی:

۱- إنّ الاستقبال غیر القبلة، تماماً کما أنّ المراد من استقبال القبلة أو استدبارها هو الاستقبال بمقادیم البدن لا خصوص الوجه.

۲- لاستقبال الکعبة بالنسبة لسکّان المناطق البعیدة امتداد واسع وملاکه الصدق العرفی لا الصدق الریاضی، ففی نظر العرف یعدّ استقبال المسجد الحرام من خارج الحرم استقبالًا حقیقیّاً للقبلة لا مجازیّاً، حتّی لو لم یکن کذلک من ناحیة الحسابات الهندسیّة.

۳- لقد أشار بعض العلماء الکبار إلی أمر ظریف هنا یکمن فی أنّ الکعبة لیست قبلةً فی نفسها، وعلیه فإذا جرف الکعبة سیلٌ أو ما شابه فخرّبها فلا یعنی ذلک زوال القبلة وانعدامها، بل إنّ فضاءها وبُعدها الخاصّ ین لا یقبلان التغییر والتبدیل، حیث یمتدّان من أعماق الأرض وتخومها إلی أوج السماء وعنانها. (۲)

فالکعبة وضعت فی مکان القبلة، من هنا فمن هو فی أعماق الأرض أو فی مرتفعات

۱- المصدر السابق ۱۷۵: ۶، ۲۲۸- ۲۲۹، ۲۳۷- ۲۳۸.

۲- وسائل الشیعة ۲۴۷: ۳.

ص: ۱۲۹

الجبال يمكنه أن يتّجه إلى الكعبة ويصدق عليه استقبال القبلة.

قبلة الأنبياء:

لقد كان الأنبياء وأتباعهم أهل الصلاة والسجود، قال تعالى: () (۱)، وقال سبحانه: (). (۲)

وحيث كان للصلاة والسجود جهة وقبلة، وجب إمّا القبول بجهة خاصّة بوصفها قبلةً أو أن نقول- طبقاً لقوله تعالى: () (۳): إنّ تمام الجهات متساوية فى الشريعة ولا ترجيح لأحدها فى الاستقبال على الاخرى، وهو فرض بعيد؛ حيث يستفاد من ظاهر الآية الشريفة: () (۴)، بمعونة الأحاديث المأثورة أنّ الكعبة كانت محلّ تكريم واحترام من جانب الأنبياء جميعهم، ورغم أنّ ظاهر الآية ليس ناظراً إلى ناحية بُعد القبلة فى الكعبة، لكن على فرض انعقاد ظهور إطلاقى فيها لانحصار القبلة فى الكعبة يمكن تقييد الإطلاق المذكور بدليل معتبر آخر إذا كان موجوداً.

وعلى أيّة حال، فحرمة الكعبة محرزة منذ قديم الأيّام إلى حدّ أنّها كانت محلّ

۱- مريم: ۳۱.

۲- مريم: ۵۸- ۵۹.

۳- البقرة: ۱۱۵.

۴- آل عمران: ۹۶.

ص: ۱۳۰

تقدير وتكريم منذ آدم حتّى الخاتم (ص) تماماً، كما هو بُعد المطاف فيها مستمرّاً، نعم لبُعد القبلة فى الكعبة أحكام فقهيّة مختلفة يمكن تصوّرها عبر الأعصار والقرون، تماماً كما نشاهد هذا التنوّع فى صدر الإسلام إلى أن جاء الحكم الدائم للقبلة.

ملاحظة

كان بيت المقدس الذى بناه داود وسليمان (۱)، منذ بنائه قبلةً لبنى إسرائيل، وما يزال حتّى الآن كذلك، كما أنّ المسلمين قبل تحويل القبلة كانوا يصلّون إليه، ورسولالله (ص) كان فى مكّة يصلّى إليه وإلى الكعبة معاً قدر الإمكان، بحيث يتّجه إليهما فى آن واحد. (۲)

الكعبة أشرف من بيت المقدس

۱- يشكّل المسجد الحرام والمسجد الأقصى مبدأ المسير الأرضى للمعراج النبوى ومنتهاه، قال تعالى: () (۳)، فطبقاً لهذه الآية الشريفة أطراف المسجد الأقصى مليئة بالبركة، كما أنّ مكّة المكرّمة هى الاخرى، وعلى إثر دعاء النبىّ إبراهيم (ع) مليئةٌ أيضاً بالنِّعم الإلهيّة، () (۴)، رغم أنّها أرض ليس فيها سبيل للإنتاج الزراعى، فصارت نقطة تساقط الثمرات والمحاصيل المختلفة من سائر أنحاء العالم فى تمام الفصول، وهى أرض غير ذى زرع، وهذا كلّه من الآيات الإلهيّة الواضحة. (۵)

۱- بحار الأنوار ۷۷: ۱۴.

۲- المصدر السابق ۱۰۵: ۴، و ۵۹: ۸۱، و ۲۱۸: ۹۲.

۳- الإسراء: ۱.

۴- القصص: ۵۷.

۵- آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۳۱

۲- قيل: يكفى شرفاً للكعبة أنّ الآمر ببنائها هو الله تعالى، ومهندسها جبرئيل وبنّاءها الخليل ومساعده إسماعيل (۱)، ومثل هذا الشرف غير ثابت فى حقّ بيت المقدس.

۳- بُنيت الكعبة على يد إبراهيم الخليل، وهو من أنبياء اولى العزم:، أمّا بيت المقدس فبناه سليمان (ع) وهو من حفظة شريعة أنبياء أُولى العزم وليس واحداً منهم.

۴- لم يثبت فى بيت المقدس أىّ وعد إلهى بحفظه من تهديد الأعداء، أمّا الكعبة فقد جاء فيها هذا الوعد، قال تعالى: () (۲)، كما تمّ إنجاز هذا الوعد أيضاً، قال سبحانه: (...) (۳)، أمّا بختنصّر فقد خرّب بيت المقدس وهدّمه دون أن يواجه عقبةً أو تهديداً.

الخصوصيّات الفقهيّة للكعبة

۱- بيّن الله تعالى وجوب الحجّ وزيارة الكعبة بقوله سبحانه: () (۴)، ولم يرد مثل هذا التعبير فى حقّ أىّ عبادة اخرى، وقد سبق أن شرحنا هذه النقطة من قبل.

۲- لقد عُدّ زوّار الكعبة من شعائر الله سبحانه، فهتك حرمتهم يقف فى صفّ هتك سائر الحرمات الدينيّة، قال سبحانه: (

۱- الفخر الرازى، التفسير الكبير ۱۵۹: ۸.

۲- الحج: ۲۵.

۳- الفيل: ۱- ۵.

۴- آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۳۲

). (۱)

۳- إذا نجّس شخص الكعبة- والعياذ بالله- عامداً متعمِّداً معانداً، كان حكمه الإعدام، أمّا مَن ينجّس المسجد الحرام عمداً فيُحكم عليه بالضرب الشديد.

۴- كما أنّ الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه (۲)، كذا الحال فى الإسلام الممثَّل، أى الكعبة، لا ينبغى أن يكون هناك بناء أعلى منها، إنّ الخضوع فى ساحة الكعبة المقدّسة يستدعى ليس فقط عدم وجود شخص أعلى منها، كما هو كذلك، بل وأيضاً من ناحية الصورة لا يفترض أن يكون أرفع منها لتكون تحته، كما يقول الإمام الباقر (ع): «لا ينبغى لأحد أن يرفع بناءاً فوق الكعبة» (۳)، وعليه فبناء بيت يستر بناء الكعبة مكروه.

۵- يُستفاد من الآية الكريمة: () (۴)، وكذلك من الإعلان العمومى للنبىّ إبراهيم (ع): () (۵)، أنّ الكعبة بُنيت للناس، وهذا معناه أنّ حريمها يسع الناس كلّهم، ومن الممكن أن يمتدّ لكيلومترات عديدة، من هنا، وكما أوضحنا من قبل، يمكن تخريب البيوت الواقعة فى أطراف الكعبة حتّى لو لم يرضَ أصحابها بذلك.

۶- لا تخضع إدارة الكعبة للتقسيمات الجغرافية ولا تُحكم للقوانين الدولية الاعتبارية أو المناطقيّة أو الإقليميّة؛ ذلك أنّ الكعبة ليست ملكاً لشخص، بل كلّ الورعين والمتّقين هم أولياؤها، لا خصوص الشعب الحجازى، قال تعالى: (). (۶)

۱- المائدة: ۲.

۲- وسائل الشيعة ۳۷۶: ۱۷، ۴۶۰.

۳- المصدر السابق ۳۴۳: ۹.

۴- آل عمران: ۹۶.

۵- الحج: ۲۷.

۶- الأنفال: ۳۴.

ص: ۱۳۳

۷- إنّ قبلة المسلمين ومطافهم تعبّر عن بُعد خاصّ يمتدّ فى العمق والأسفل حتّى الأرض السابعة ويرتفع فى الأعلى حتّى السماء السابعة (۱)، وتقع الكعبة فى هذا البُعد، وإلّا فإذا لم يكن الأمر كذلك لزم زوال القبلة والمطاف عندما قصف الحجّاج بناء الكعبة بالمنجنيق أو عندما يأتيها سيل فيخرّبها.

من هنا، لا يجوز لغير الطاهرين العبور من فوق الكعبة بالطائرة، ومنطلق هذا التحريم كون هذا الفضاء قبلةً، لا أنّ القبلة هى المسجد، فإنه وإن لم يجز عبور غير الطاهرين فى المسجد الحرام إلّا أنّ المسجدية محدودة، أمّا بُعد القبلة فى الكعبة فهو أوسع من ذلك، ومن نطاق المسجد الحرام، وعليه يمكن التمييز فى الفضاء بين المسجد الحرام والكعبة.

ملاحظة

لقد جرى توفير حفظ البُعد الخاص الذى تقع الكعبة فيه؛ أمّا سائر الأماكن الاخرى والأبنية فهى وإن كانت لها أبعاد فضائية، إلّا أنّه فى حال عرض عليها الخراب فلا تحفظ أبعادها الاخرى ولم تحفظ.

عبقٌ من تاريخ الكعبة

الكعبة أوّل معبد شعبى وعالمى لتمام البشر، قال تعالى: () (۲)، وقد جرى تعيين محلّه وخارطته بإرشاد وأمر من الله سبحانه، قال تعالى: (. ..). (۳)

۱- وسائل الشيعة ۲۴۸: ۳.

۲- آل عمران: ۹۶.

۳- الحج: ۲۶.

ص: ۱۳۴

وبناءاً عليه، كانت الكعبـة أوّل معبد (لا أوّل بيت) بُنى على وجه الأرض، كما أنّه على أساس الروايـة التى تبيّن دحو الأرض، فإنّ مكان الكعبة هو أوّل مكان خرج من تحت الماء. (۱)

لقد كان للكعبة تاريخ وحضور فى عهد الأنبياء السابقين، وشاهد هذا الكلام أنّ النبىّ إبراهيم (ع) نادى الله سبحانه عندما أسكن هاجر وإسماعيل فى أرض مكّة بقوله: () (۲)، وعندما ودّعهم، وقالت له هاجر: لمن تتركنا؟ قال: «إلى ربّ هذه البيّة». (۳)

ويستوحى من جملة: () أنّ الكعبة كانت مشهورةً قبل عهد إبراهيم (ع) بأنّها البيت الحرام، وأنّ موضعها كان محدّداً.

ويحتمل أن يكون بناء الكعبة قد هدم أو أصابه الضرر عدّة مرّات نتيجة الأحداث الطبيعيّة والوقائع المختلفة، ثمّ أُعيد بناؤها من جديد، تماماً كما حصل مع بنّائها إبراهيم (ع) حينما أعاد بناءها بيـده القويّـة، لكن حيث تكفّل الله سبحانه بتدبير أُمور الكعبة ورعايتها، فقال: () (۴)، فلم يـذهب إطلاقـاً مكـان الكعبـة وموقعيّتهـا وكـذلك آياتهـا البيّنـات مثل الحجر الأسود، ومقام إبراهيم، و ... كما أنّها بقيت مصونة من سـهام الأحداث المزعجة المؤلمة، وفى حديث عن الإمام الحسين (ع) ما يشير إلى حماية هذه الآيات البيّنات، يقول الإمام الباقر (ع) فى هـذا الحـديث: «نعم، أذكر وأنا معه [الحسين (ع)] فى المسـجد الحرام، وقد دخل فيه السـيل والناس يقومون على المقام يخرج الخارج يقول: قد ذهب به السيل، ويخرج منه الخارج فيقول: هو مكانه. قال: فقال لى: يا فلان ما صنع هؤلاء؟ فقلت: أصلحك الله يخافون أن يكون

۱- وسائل الشيعة ۳۳۱: ۷- ۳۳۲، و ۳۴۷: ۹- ۳۴۸.

۲- إبراهيم: ۳۷.

۳- بحار الأنوار ۱۱۶: ۱۲.

۴- قريش: ۳.

ص: ۱۳۵

السيل قد ذهب بالمقام، فقال: نادِ: إنّ الله تعالى قد جعله علماً لم‌يكن ليذهب به، فاستقرّوا ...». (۱)

وعلى أيّة حال، فظهور الإعجاز الإلهى فى خضمّ الأحداث الخطيرة هو ما يضمن صيانة الآيات للحرم، بل وضمنها.

لقد كان ارتفاع الكعبة فى زمان بُناته: إبراهيم وإسماعيل ۹ إلى ۱۲ ذراعاً، كما كان لها بابان، أمّا ارتفاعها فى عهد قريش أو ابن الزبير فقد بلغ ثمانية عشر ذراعاً (۹ أمتار)، وقد صارت ذات سقف بعد ذلك، وفى واقعة الحجّاج وابن الزبير بلغت سبعة وعشرين ذراعاً (۲)، إلى أن بلغت ارتفاعها الحالى.

أمّا أُسسها المعنوية، فتصل- حسب البيان النورانى للإمام الصادق (ع)- إلى نهاية الطبقة الثامنة للأرض، فيما ارتفاعها الحقيقى يبلغ منتهى السماء السابعة. (۳)

ويُعلم من أنّه عند تطهير الكعبة من الأصنام ووضع الإمام أميرالمؤمنين علىّ (ع) قدميه على كتفى رسولالله (ص) ثمّ إلقاء الأصنام من على ظهر الكعبة أرضاً .. أنّ ارتفاع الكعبة آنذاك- حسب الظاهر- كان تقريباً بحجم قامة رجلين متوسّطى القامة، نعم، ثمّة حساب آخر لما أشار إليه أمير المؤمنين (ع) من البُعد المعنوى لهذه الحادثة حيث قال: «فوالذى فلق الحبّة وبرأ النسمة لو أردت أن أمسك السماء لمسكتها». (۴)

وواحدة من الأحداث المرّة التى عرضت على الكعبة، أى القبلة والمعبد ومطاف

۱- الكافى ۲۲۳: ۴؛ نعم هذا النقل يحتاج إلى المزيد من البحث التأريخى من حيث سنّ الإمام الباقر.

۲- المصدر السابق: ۲۰۳، ۲۰۷.

۳- وسائل الشيعة ۲۴۸: ۳.

۴- بحار الأنوار ۷۶: ۳۸، وفى صفحة ۷۸، جاء هذا النصّ فى نقل آخر كالتالى: «والذى بعثك بالحقّ، لو هممتُ أن أمسّ السماء بيدى لمستها».

ص: ۱۳۶

الأنبياء والأولياء الإلهيّين: .. أنّها كانت لمدد عدّة بيتاً للأصنام، أى أنّ عَبَدَة الأصنام فى الحجاز كانوا يضعون الأصنام فوق الكعبة، وفى بعض الأحيان يضعونها داخلها، ولهذا كانوا يفتخرون بخزانة الكعبة وإدارتها، وأحد الذين حملوا سمة خازن الكعبة كان أبوغبشان وهو- كما اشير من قبل- قد باع وهو ثمل مفاتيح الكعبة وخزانتها بقدحين من الشراب والخمر.

ص: ۱۳۷

الفصل السادس الحجر الأسود

السرّ فی تشبیه الحجرالأسود بمقام الرسول الأکرم (ص)

تضم الکعبة المطهرة أربعة أرکان و ترتیبها حسب الطواف کما یلی: رکن الحجرالأسود، الرکن العراقی، الرکن الغربی والرکن الیمانی. و المسافة بین الحجرالأسود وباب الکعبة تُعرف ب- «الملتزم». قال الإمام الصادق (ع): «هو الموضع الذی تاب الله فیه علی آدم». (۱)

و «المستجار» موضع یقع إلی جانب الرکن الیمانی، بمحاذاة الملتزم، حیث یتعلق الزائرون بأستار لطف الله تعالی؛ وقد عبّر أمیرالمؤمنین الإمام علی (ع) عن سرّ التعلق والتشبث بأستار الکعبة ومعنی ذلک بقوله: «هو مثل رجلٍ له عند آخر جنایة وذنبٌ فهو یتعلّقُ بثوبه یتضرّع إلیه و یخضع له أن یتجافی له عن ذنبه». (۲)

یقع الحجرالأسود إلی یسار الزائر الذی بإزاء باب الکعبة ومقام إبراهیم (ع) علی یمینه (وإن کان مقام إبراهیم یقع الآن خلف الزائر المفترض) ولکن بالنسبة للکعبة نفسها، فلو افترضنا أن وجه الکعبة یقع قبالة الناس وجهاً لوجه من الجدار الذی یقع فی باب الکعبة، فإن الحجرالأسود یقع إلی یمین بیت الله الحرام و مقام إبراهیم إلی یساره.

۱- وسائل الشیعة ۵۳۹: ۳.

۲- المصدر السابق ۱۵۹: ۸- ۱۶۰.

ص: ۱۳۸

یقول الإمام الصادق (ع) مبیناً سرَّ الأمر المذکور، مجیباً علی هذا السؤال: لماذا یستلم الناس الحجرالأسود والرکن الیمانی من بین أرکان الکعبهٔ فقط؟ فقال: لأنها بمنزلهٔ یمین عرشه (۱) والله سبحانه وتعالی أمر باستلام کل ما هو علی یمین عرشه.

ثم قال مجیباً عن السبب فی وقوع مقام إبراهیم علی الجانب الأیسر: لأن «لکل من النبی إبراهیم (ع) و الرسول الأکرم (ص) مقاماً خاصاً فی یوم القیامهٔ، ومقام محمد (ص) عن یمین عرش ربّنا عزّوجل، ومقام إبراهیم (ع) عن شمال عرشه ...». (۲)

والحجرالأسود، هو المقام الذی یستند إلیه الإمام المهدی [عندما یبایعه الناس، فی بدایهٔ ثورته العالمیهٔ لبسط العدالهٔ؛ وکما عبر الإمام الصادق (ع) عن ذلک قائلًا: «... وإلی ذلک المقام یسند القائم ظهره، و هو الحجهٔ و الدلیل علی القائم، و هو الشاهد لمن وافاه فی ذلک المکان، والشاهد علی من أدّی إلی المیثاق والعهد الذی أخذ الله عزّوجلّ علی العباد». (۳)

نزول الحجر الأسود من الجنّهٔ

بناءاً علی ما جاء فی بعض الروایات، فإن الحجر الأسود قد نزل من الجنهٔ، وکان فی البدایهٔ أبیض اللون، واسودّ تدریجیاً علی أثر استلامه من قبل المذنبین، حتّی أصبح کما هو علیه الآن: «... کان ملکاً من عظماء الملائکهٔ عندالله ...»، «إنّ الحجر

۱- قال الرسول الأکرم ۹: «ما أتیت الرکن الیمانی إلاـ وجدت جبرئیل قد سبقنی إلیه یلتزمه». وقال الإمام الصادق ۷ أیضاً: «الرکن الیمانی باب من أبواب الجنهٔ لم یغلقه الله منذ فتحه». «الرکن الیمانی بابنا الذی ندخل من الجنهٔ.» «الرکن الیمانی علی باب من أبواب الجنهٔ مفتوح لشیعهٔ آل‌محمد، مسدود عن غیرهم، و مامن مؤمن یدعو بدعاء عنده إلّاصد دعاؤه حتی یلصق بالعرش ما بینه وبین الله حجاب.» وسائل الشیعهٔ ۴۱۹: ۹- ۴۲۲.

۲- بحار الأنوار ۳۳۹: ۷.

۳- الکافی ۱۸۵: ۴.

ص: ۱۳۹

کان درّةً بیضاء فی الجنـة ...»، «... وکان أشـدّ بیاضاً مِنَ اللبن فاسودّ من خطایا بنی آدم، ولولا ما مسّه من أرجاس الجاهلیـة ما مسَّه ذو عاهةٍ إلّا برأ». (۱)

بعض المفسـرین الذین یبحثون عن تبریرٍ أو تفسـیر مادیّ لأی ظاهرة من الظواهر، قالوا فی معرض نفیهم لهذا النوع من الروایات: نزول الحجر من السماء أو الجنّة، لا معنی له!! (۲)

وفی الردّ علی هـذا الکلام و نقده لابد من القول (۳): ما یؤید الروایات التی تدور حولها بعض الإشـکالات، الآیات التی ورد الحدیث فیها عن إنزال النعم الإلهیة من خزائن الغیب، کقوله تعالی: () (۴)، () (۵) و (). (۶)

فکلمـة «الإنـزال» لیست بمعنی الخلق، بل هی بمعنی التنزیل والإنزال الواقعی من وراء الطبیعـة إلی عالم الطبیعـة کنزول القرآن فی لیلة القـدر؛ ولکن المراد هنـا، الإنـزال علی نحو التجلّی، و لیس بصورة التجـافی، مثـل نزول الثلـج والمطر؛ أی لایعنی الأـمر نفاد المخازن الإلهیـة وخلوّهـا من الموجودات، بعـد تنزلهـا إلی عـالم الطبیعـة من العـالم الأـعلی؛ لأـن خزائن الله لایعتریها النقصان أو النفاد؛ () (۷) والوجود الغیبی لهذه الأشیاء وجود نورانی وتحمّل ذلک أمرٌ غیر میسور للجمیع. من هنا فإن ظهورها فی هذه النشأة اقترن بتنزّل مرتبتها الوجودیة. ولکن

۱- وسائل الشیعة ۴۰۳: ۹- ۴۰۷.

۲- بحارالأنوار ۴۶۶: ۱- ۴۶۸.

۳- المیزان ۱۹۰: ۲- ۱۹۵.

۴- الحجر: ۲۱.

۵- الزمر: ۶.

۶- الحدید: ۲۵.

۷- النحل: ۹۶.

ص: ۱۴۰

حرمة و كرامة الموجودات المتنزلة من الخزائن الإلهية واحدة بلحاظ تباين درجات تلك الخزائن. مثلما يعتبر الحجر الأسود حالةً خاصةً.

وبناءاً على ذلك، فإن مجرّد الاستبعاد العلمى لمسألة هبوط الحجر الأسود من الجنّة لا قيمة له؛ لأن دراسة السير الأفقى للموجودات و ماضيها و حاضرها و مستقبلها الطبيعى يتم فى نطاق العلوم ا لطبيعية، ولكن السير العمودى للأشياء والموجودات والنقاش حول العلة الفاعلية و الغائية لها تقع خارج نطاق العلوم الطبيعية، مهما توصلت هذه العلوم إلى تطورات ملحوظة فى هذا الجانب.

ونستنتج من ذلك أولًا: إن الحجر الأسود من أحجار الجنّة والسماء، كما ورد ذلك فى العديد من الروايات المعتبرة.

ثانياً: لا يوجد دليل عقلى أو نقلى يدل على خلاف ذلك.

وبناءاً على ذلك، فإن إثبات المسائل الاعتقادية على الرغم من أنه لا يمكن أن يتحقق بالاستناد إلى الخبر الواحد، ذلك أنها تحتاج إلى القطع واليقين ولا يمكن الاكتفاء فيها بالظّن، لكن بالمقابل لايوجد أىّ وجه لإنكار تلك الروايات و رفضها.

شهادة الحجر الأسود يوم القيامة

الحجر الأسود كالمسجد، يشهد يوم القيامة لصالح البعض، و هو آيةٌ من آيات الله البيّنات إلى جانب الكعبة (۱)، ويمين الله عزّ وجلّ فى الأرض واستلامه بمنزلة البيعة لله تعالى؛ «هو يمين الله عزّ و جلّ فى أرضه يبايع بها خلقه». (۲)

وكما قال أميرالمؤمنين الإمام على (ع) فى ردّه على من قال عند استلام الحجر: أعلم

۱- وسائل الشيعة ۳۴۶: ۹.

۲- المصدر السابق: ۴۰۵- ۴۰۶.

ص: ۱۴۱

بأنك لا تضر و لا تنفع ولكنى أحبك لحب رسولالله (ص) لك، فقال (ع): والحجرالأسود من الشهداء أيضاً يوم القيامة؛ «فوالله ليبعثنَّه اللهُ يومَ القيامة و له لسانٌ و شفتان فيشهد لمن وافاه» (۱)، كما أكّد الإمام الصادق (ع) فى ردّه على ذلك الظنّ فقال: «كَذِبَ ثمَّ كذب ثمَّ كذب. إنَّ للحجر لساناً ذلقاً يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة». (۲)

تنبيه: هذا النوع من الأحاديث المأثورة، والتى تصرّح بمنفعة الحجر الأسود ونحوه، يعود إلى كونه وسيلة ذات تأثير معين و الذى تجسّد بلطفالله و بركاته على هذا الحجر، و عدا ذلك فإن أيّاً من أحجار الكعبة وأمثالها ليست ضارّة بذاتها أو نافعة، كما عبّر أميرالمؤمنين (ع) بشأن سلب تأثيرها الذاتى فقال (ع): «... أحجار لاتَضُرُّ و لا تنفَع و لا تبصر و لا تسمع». (۳)

۱- وسائل الشيعة ۴۰۶: ۹.

۲- المصدر السابق: ۴۰۶.

۳- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲، الفقرة ۵۴ ۵۳. و قد مرَّ ذكر نص هذا الحديث الشريف و ترجمته فى الفصل الثالث من القسم الأول فى موضوع «صورة الحج فى الروايات». فراجع.

ص: ۱۴۲

الفصل السابع ألحطيم وحجر إسماعيل

«الحطيم» منطقة محدّدة بين الحجر الأسود، وباب الكعبة و مقام إبراهيم (ع)، ولكن قيل فى بعض الروايات، بأنها المسافة بين الحجرالأسود وباب الكعبة فقط (۱)، وحول السرّ فى تسمية هذا المكان بالحطيم، قال الإمام الصادق (ع): «لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً». (۲)

والحطيم أفضل الأماكن حول الكعبة؛ فبعد أن ذكر الإمام الباقر (ع) حدوده قال موضحاً هذه القضية المتعلقة بالحطيم: «إنَّ أفضلَ البقاع ما بين الركن الأسود و المقام وباب الكعبة، و ذاك حطيم إسماعيل، ووالله لو أنَّ عبداً صفَّ قدميه فى ذلك المكان و قام الليل مصلِّياً حتى يجيئه النَّهارُ و صامَ النهار حتى يجيئه الليل و لم‌يعرف حقَّنا و حرمتنا أهلَ البيت، لم يقبل الله منه شيئاً أَبَداً». (۳)

والحطيم محل نزول جبرئيل (ع) و وقوفه بين يدى بقية الله الأعظم إمام العصر والزمان [، كما ورد ذلك عن الإمام الصادق (ع) قال: «عندما يأذن الله سبحانه وتعالى بخروج القائم [... يبعث إليه جبرئيل (ع)؛ فيهبط جبرئيل على الحطيم ... و يقول: أنا أوّل

۱- الكافى ۵۲۵: ۴؛ وسائل الشيعة ۵۳۹: ۳.

۲- وسائل الشيعة ۵۳۹: ۳.

۳- المصدر السابق ۱۲۳: ۱.

ص: ۱۴۳

من يبايعك ...». (۱)

ويقول الأستاذ العلامة الطباطبائى ۱ كغيره من المحققين: الحطيم هو ذلك الجدار المقوس إزاء الميزاب الذهبى (۲)، كما يُفهم من بعض الروايات أن جماعة يسمّون «حجر إسماعيل» الذى يقع بين الركن العراقى و الركن الغربى بالحطيم. و هذا ما ورد عن الإمام الصادق (ع) فى جوابه للسائل الذى سأل عن حجر إسماعيل، فقال (ع):

«إنَّكم تسمونَهُ الحطيمَ، وَانّما كان لغَنَم إسماعيلَ، وَانَّما دَفَنَ فيه أمَّهُ و كرهَ أن يُوطَأَ قَبرها فحجَر عليه، و فيه قبورُ أنبياء». (۳)

ومن بين الوجوه المحتملة بشأن السرّ فى تسمية الحطيم بهذا الإسم، والذى اشير اليه أيضاً فى الرواية المذكورة، أن النبى إبراهيم (ع) كان يهشّم (۴) التبن والعلف هناك لإطعام أغنامه، ويسمّون العلف بالحطيم والتبن بالحطام، لأن المحطوم هو الذى تم تهشيمه وتكسيره؛ ونقلت فى بعض الكتب اللغوية وجوه أخرى أيضاً فى سبب تسمية حجر إسماعيل بالحطيم. وفيها: أن هذا الجزء قد فُصِلَ و كُسِّرَ عن البيت، والآخر أن الأعراب فى الجاهلية، كانوا يلقون الملابس التى كانوا يلبسونها حال الطواف فى ذلك المكان و كانت تتحطم و تبلى تدريجياً. (۵)

أما «حجر إسماعيل» الذى يعدّ من آيات الله البينات (۶)، فهو مدفن إسماعيل ومجموعة أخرى من أنبياءالله (۷)، كما أنه مدفن أم إسماعيل و بناته:، و قد حجر (ع)

۱- بحار الأنوار ۳۳۷: ۵۲- ۳۳۸.

۲- الميزان ۳۶۰: ۳.

۳- وسائل الشيعة ۴۳۱: ۹.

۴- بحار الأنوار ۸۶: ۶۵.

۵- لسان العرب ۱۳۷: ۱۲- ۱۴۰ حطم.

۶- الكافى ۲۲۳: ۴.

۷- وسائل الشيعة ۴۳۰: ۹.

ص: ۱۴۴

أطراف قبر أمه هـاجر كى لا يطأه الطائفون (۱)، وحجر إسـماعيل ليس قبلة ولكنه فى ضمن المطاف كالكعبة، احتراماً لتلك القبور، و الطواف فى داخله باطل.

وحجر إسـماعيل من أفضـل الأماكن فى المسـجد الحرام لأداء الصـلاة فيها (۲)، كمـا كان المكان الـذى يصـلى فيه شبر و شبير أولاد هارون (ع) (۳)، وصلّى فيه الأئمة المعصومون: أيضاً (۴)، وكانوا يدعون الله فيه بخالص الدعاء (۵)، كما كانوا يستقبلون الناس هناك ويجيبون على أسـئلتهم واستفساراتهم (۶)، و قـد نصب ميزاب الكعبـة فوق حجر إسـماعيل؛ وقد ورد الحديث فى بعض الروايات، عن الشفاء بماء المطر الذى ينزل من هذا الميزاب (۷)، وآخر الكلام عن حجر إسماعيل أنه يستحب للحاجّ أن يُحرم منه.

۱- الكافى ۲۱۰: ۴.

۲- المصدر السابق ۵۲۵: ۳؛ وسائل الشيعة ۵۳۹: ۲.

۳- وسائل الشيعة ۵۳۹: ۲.

۴- الكافى ۱۸۸: ۴؛ وسائل الشيعة ۲۷۴: ۵.

۵- المصدر السابق ۲۱: ۷.

۶- المصدر السابق ۲۶۰: ۱، ۳۷۹، و ۲۱: ۷ و ۲۳۲: ۸ و ۲۷۱؛ وسائل الشيعة ۴۱۹: ۱۳.

۷- المصدر السابق ۳۸۷: ۶.

ص: ۱۴۵

الفصل الثامن مقام إبراهيم

اشارة

إحدى العلامات والآيات البيّنات لله تعالى فى مكة: «مقام إبراهيم»، مثلما أشار الإمام الصادق (ع) فى بيان المراد من كلمة «بيّنات» فى الآية المباركة: () (۱)، فقال (ع): «مقام إبراهيمَ حيث قامَ على الحجر فأثَّرت فيه قدماه، و الحجر الأسوَدُ، و منزِلُ إسماعيل (ع)» (۲)؛ و كان هذا الحجر موضوعاً فى البداية على وجه الأرض بشكل طليق إلى جوار الكعبة، ثم وضعوه فى الملتزم لكى لاينقل من مكانه؛ و موضع المقام الآن مُبرَّزٌ أيضاً وموضوع بداخل صندوق معدنى، ومنقوش على جبهة الشريط المعدنى الذى وضع الحجر على حافته جملة نورانية تقول: () (۳)، حيث يمكن رؤيتها و قراءتها من قبل الجميع بكل وضوح، مما يدلل على حُسن تدبير المسؤولين عن الحرم.

مسألة تغيير مقام إبراهيم وردت فى بعض الأحاديث؛ حيث قال الإمام الباقر (ع):

كان المقام فى البدء، بالقرب فى جدار الكعبة، و قاموا بنقله قبل الإسلام إلى

۱- آل عمران: ۹۷.

۲- الكافى ۲۲۳: ۴.

۳- البقرة: ۲۵۵.

ص: ۱۴۶

موضعه الحالی، وأعاده الرسول الأکرم (ص) بعد فتح مکة إلی موضعه الأصلی، ولکن تغیّر مکانه مرةً أخری فی عصر الخلفاء: «کانَمَوضعُ المقام الذی وَضَعَهُ إبراهیم (ع) عِندَ جِدارِ البیتِ فلم یزل هناکَ حَتّی حَوَّلَهُ ...». ولکن بما أنَّ الوضع الموجود اقِرَّ من قبل الأئمة المعصومین: ولم ینتقد أهل بیت النبوة: ما یترتب علی هذا الوضع من حکمٍ فقهی، نفهم من ذلک أن إقامة صلاة الطواف عند الموضع مبرءة للذمة.

وقد قال الإمام الباقر (ع) فی صدر الروایة المذکورة: فی السنة التی جرف فیها السیل المسجد الحرام کنت فی مکة مع الإمام الحسین (ع) (۱)، و خاطب الإمام الحسین (ع) الناس الذین کانوا خائفین من زوال مقام إبراهیم (ع) قائلًا: اعلموا! أنّ السیل لن یجرف مقام إبراهیم أبداً؛ لأنّ الله قد جعله عَلَماً وآیةً له؛ «أنَّ الله قد جَعَلَهُ علماً لم یکن لیذهَبَ به». (۲)

والجدیر بالذکر، أنه لایمکن اعتبار جمیع الآیات التی وردت بشأن مکة علی أنها وردت من باب المعجزة وخلافاً للعادة و الطبیعة، استناداً إلی هذه الآیة المبارکة فی قوله تعالی: () بما فیها هذه الآیة الشریفة؛ لأن المراد بالآیة، لیس فقط المعجزة من قبیل معجزة ناقة صالح (ع)، و شقّ القمر و نحو ذلک، بل الآیة بمعنی العلامة والأمارة التی تدلّ علی الحق وتذکّر الناس بذلک، سواء کانت تکوینیة أم تشریعیة أم کلیهما معاً، وکما قال بعض المفسرین: إن جملة () هی من باب التفصیل بعد الإجمال ومصداق لآیات بینات مذکِّرَةً بالحق و من العلامات الإلهیة، دون أن یکون فی البین أمرٌ خارقٌ للعادة.

فإذا صارَ «مقام إبراهیم» بیاناً لقوله تعالی: ()، فإنّ المستفاد منه ما

۱- کما مرَّ، فإن هذه الروایة بحاجة إلی تحقیق تاریخی من حیث مقدار عمر الإمام الباقر ۷.

۲- الکافی ۲۲۳: ۲.

ص: ۱۴۷

يلى: كما أن إبراهيم (ع) كان لوحده أمـة؛ () (۱)، فإن آثار أقـدامه و مقامه أيضاً لوحـدهما آيات بيّنات و «أمـة واحـدة» فى موضوع الإعجاز. (۲)

ولعل السرّ فى التعبير بصيغة الجمع يتمثل فى أنّه:

أوّلًا: إن الحجر الصلد والقوى أصبح كالعجين فى تغيير شكله.

ثانياً: المكان المحدد لذلك أصبح على شكل العجين، و ليس كل الحجر.

ثالثاً: تقبّله لآثار الأقدام إلى عمق معين والبقيّة بقيت بحالتها الصخرية.

رابعاً: بقى محفوظاً من سرقة جميع الطغاة الذين أرادوا إخفاء هذا الأثر ومحوه.

خامساً: بقى محفوظاً من سرقة سرّاق القطع الفنية والأثرية الذين هم بصدد سرقة المواد النفيسة ذات القدم. (۳)

والـذين يقولون بـأن قوله تعالى: () إنما هو إشارةٌ لآياتٍ أخرى متعـددة، وبالإضافـة إلى مقام إبراهيم وجعل هـذا البلـد آمناً بسـكانه و زائريه، فـإنهم ذكروا أموراً أخرى أيضـاً من الآيـات العلنيـة لله سـبحانه وتعـالى فى مكـة و الحرم الإـلهى، والتى لم يتم ذكرهـا بشـكل منفصل بسبب وضوحها وعدم تصريح الله سبحانه وتعالى بها (۴)؛ أموراً من قبيل:

۱- عدم تحليق الطيور فوق الكعبة و انحرافها أثناء الطيران عن فضاء الكعبة.

۲- عدم تلويث الطيور للكعبة.

۳- تعايش أنواع الحيوانات فى الحرم و عدم تعرض الحيوانات المفترسة لغيرها.

۴- تورط الظلمة الذين أرادوا سوءاً بالكعبة و قهرهم من قبل الله تعالى، مثل أصحاب الفيل.

۱- النحل: ۱۲۰.

۲- الكشاف ۳۸۷: ۱.

۳- المصدر السابق: ۳۸۷- ۳۸۸، مع قليل من التصرف.

۴- روضة المتقين ۱۱۳: ۴- ۱۱۴.

ص: ۱۴۸

۵- عدم إصابة الحجيج بالتعب والإرهاق النفسى، على الرغم من مجيئهم من أماكن بعيدة و بصعوبة بالغة و بشكل متكرر أيضاً.

وبناءاً على ذلك، ولغرض بيان أهمية مقام إبراهيم خاصة، فإنالله سبحانه وتعالى يذكر مقام إبراهيم (ع) بشكل مستقل، من باب ذكر الخاص بعد العام، بعد ذكر الآيات الأخرى على وجه العموم.

كيفية تكوّن مقام إبراهيم

هناك عدة احتمالات بشأن كيفية تكوّن مقام إبراهيم (ع) ومنها:

۱- وقوف النبى إبراهيم (ع) على هذا الحجر أثناء القيام ببناء الكعبة. وعن طريق الإعجاز الإلهى أصبح الحجر آنذاك ليناً و قابلًا لبروز الآثار عليه؛ فبقى أثر الأقدام عليه. (۱)

۲- عندما عاد للمرة الثانية إلى مكة قالت زوجة إسماعيل (ع): ترجّل كى أغسل رأسك، وعندما ترجّلَ (ع)، وضع قدمه على الحجر وأحدث أثراً فى ذلك الحجر. (۲)

وعلى أية حال، فإن حقيقة وضع إبراهيم (ع) قدمه على الحجر الصلد وانغماس أثر قدمه المباركة و بقاء هذا الأثر فى ذلك الحجر .. يعدّ من الأمور المسلّم بها والتى اعتبروها معجزة له. (۳)

وقد ورد ذكر مشابهٍ لهذه الخاصيّة، بشأن النبى داود (ع)، إذ إن الله سبحانه وتعالى جعل الحديد البارد الصلد بيده ليّناً كالشمع؛ (). (۴)

۱- المصدر السابق: ۱۱۴.

۲- بحار الأنوار ۱۱۶: ۱۲- ۱۱۷.

۳- التبيان ۴۵۲: ۱؛ التفسير الكبير ۵۰: ۳.

۴- سبأ: ۱۰.

ص: ۱۴۹

والملاحظة التى يجدر الإشارة لها هنا، أنه ورد حديث عن التعليم فى مسألة صناعة الحديد؛ قال تعالى: () (۱)؛ لأن صناعة الدروع يمكن تعليمها و نقلها للآخرين كما هو الحال فى سائر العلوم والمهن الأخرى، على العكس من عملية إلانة الحديد البارد و القوى بواسطة اليد. ومن هنا لم يقل تعالى: «وَعلّمناه إلانة الحديد». ويصدق هذا الأمر بشأن مقام إبراهيم (ع) أيضاً، مع وجود هذا الفرق حيث إن الحديث هنا يتعلق ب- «وألنّا له الحجر».

وبقيت «آثار» كلتا قدمى إبراهيم (ع) المباركتين محفوظتين فى مقام إبراهيم (ع) (۲) كما كان الحديد يحافظ على «بدن» داود (ع).

ومقام إبراهيم (ع) يطلق أيضاً على قطعة الأرض التى يقع فيها مقام إبراهيم (ع) فى المسجد الحرام، وهى محل صلاة الطواف (۳)، مثلما يطلق أحياناً على الكعبة أيضاً. (۴)

ملاحظة

قال الإمام السجاد (ع): «أفضل البقاع ما بين الركن و المقام ...» (۵)، أى إن المسافة ما بين الركن (الحجر الأسود) إلى مقام إبراهيم، هى من أفضل الأماكن، و روى عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «أنَّ ما بين الركن و المقام لمشحونٌ من قبور الأنبياء» (۶)، و هذا المكان، هو منطلق حركة الإمام الحجة [العالمية. ويقول الإمام الباقر (ع) بهذا الشأن: «كَأنّى بالقائم يومَ عاشورا يوم السبت، قائماً بين الركن و المقام، بين يديه جبرئيلَ (ع)

۱- الأنبياء: ۸۰.

۲- نقل عن أنس به مالك أنه قال: رأيت أثر أصابع و عمق القدم فى الحجر، ولكن مُسح واستوى بسبب المسح بأيدى الناس التحرير و التنوير ۶۸۱: ۱.

۳- المصدر السابق ۲۴۱: ۹۶.

۴- التحرير و التنوير ۶۸۱: ۱.

۵- من لايحضره الفقيه ۲۴۵: ۲.

۶- الكافى ۲۱۴: ۴- ۲۱۲.

ص: ۱۵۰

ينادى: البيعة لله. فيملأها عدلًا كما مُلِئَت ظلماً وجوراً». (۱)

۱- بحارالأنوار ۲۹۰: ۵۲.

ص: ۱۵۱

الفصل التاسع زمزم

اشارة

تـدفّق مـاء زمزم ببركـة ذريّـة إبراهيم الخليـل (ع)؛ لأـنه (ع) ترك وليـده وأمه هاجر بوادٍ غير ذى زرع وضـرع فى أرض مكـة بأمر الله سبحانه و تعالى؛ و على أثر عطش الوليـد، أخذت أمه تبحث عن الماء و تدعو و تنادى: «هل بالوادى من أنيس؟»، فأخذت تسـعى بين الصفا و المروة سبع مرات ذهاباً وإياباً، وفجأةً رأت تحت أقدام الوليد عيناً ينبع فيها الماء. (۱)

ولا زال ذلك الماء يتدفق لحد الآن بعد مضى آلاف السنين عليه، على الرغم من أنه تمّ حفر آبار إضافية أخرى فى ذلك الوادى، هذا أولًا،

وثانياً: إنّ مكـة ليس بلداً تسـقط عليها الثلوج، كما أن أمطارها ليست غزيرة، لكى يصـبح تدافع الماء من زمزم على أساس قوله تعالى: () (۲)، وبناءاً على ذلك، فإن تدفّق ماء زمزم واسـتمراره آلاف السنين على ذلك فى بلدٍ مثل مكة، وما فيه من صفة الشفا وصيانته من الفساد (۳)، كل واحدة من هذه الأمور هى

۱- استناداً لبعض الروايات، فإن إبراهيم ۷ هو الذى حفر بئر زمزم بأمر الله سبحانه وتعالى الكافى ۲۰۲: ۴- ۲۰۳.

۲- الزمر: ۲۱.

۳- من مجموع التجارب الفردية وما كان يقوم به المؤمنون و بخاصة خاتم الرسل ۹ تجاه ماء زمزم و تقديمه كهدية، نلاحظ أن ذلك الماء غالباً ما كان يبقى لفترة طويلة من الزمن، لذا يمكن القول بأن ماء زمزم لايفسد بسرعة.

ص: ۱۵۲

معجزة بحد ذاتها، لذا یمکن القول بأن زمزم هو مصداق ل- () لوحده.

وقال الرسول الأکرم (ص): «ماء زمزم، أفضل ماءٍ علی وجه الأرض» (۱)

و قال أیضاً: «ماء زمزم لما شُربَ له؛ من شربه لمرضٍ شفاه الله أو لجوعٍ أشبعه الله أو لحاجةٍ قضاها الله» (۲)، وکان یقول بعد شرب ماء زمزم: «أللهم إنی أسألک علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاءً من کل داءٍ و سقمٍ» (۳)، و قال الإمام الصادق (ع) بشأن الشفاء من ماء زمزم: «ماء زمزم شفاءٌ من کل داء». (۴)

من هنا، یستحب استحباباً مؤکداً أن یشرب حجاج بیت الله الحرام من ذلک الماء، والتأسی برسولالله (ص) بقراءة هذا الدعاء: «اللهم اجعله علماً ...». (۵)

کما کان الرسول الأکرم (ص) یستعمل ماء زمزم فی مکة، وبعد أن هاجر إلی المدینة المنورة کان یستهدی ماء زمزم من الآخرین لشدة تعلقه به. ولهذا السبب کان الزائرون یجلبون معهم ماء زمزم عند عودتهم من مکة هدیة للرسول الأکرم (ص) وکان یقبل منهم الهدیة. (۶)

من أسماء زمزم

من أسماء زمزم الأخری، حفیرة عبدالمطلب، المضنونة والمصونة (۷)، والسرّ فی تسمیة بئر زمزم بالمضنون (۸) أو المصون أنه فی برهةٍ من التاریخ و منذ أن استولت

۱- الکافی ۲۴۶: ۳.

۲- بحارالأنوار ۴۵: ۵۷.

۳- الکافی ۲۵۰: ۴.

۴- المصدر السابق ۳۸۷: ۶.

۵- المصدر السابق ۴۳۰: ۴.

۶- وسائل الشیعة ۳۵۰: ۹- ۳۵۱.

۷- المصدر السابق: ۳۵۱ و ۵۱۵- ۵۱۶.

۸- «ضنَّ» بمعنی بخل و الشیء الثمین والنفیس إذا بخل به یسمی مضنوناً.

ص: ۱۵۳

قبیلـة خزاعـة علی مکـة، دفنوا هـذا البئر وأخمدوه، إلی أن تولّی عبدالمطلب شؤون مکة و أمر بإعادة حفره (۱)، غـارت البئر و لم ینبع منها الماء.

إذن، فالسرّ وراء اشتهارها ببئر عبدالمطلب یعود إلی أن عبدالمطلب هو الذی أعاد فتح البئر وترمیمه.

۱- الکافی ۲۲۰ ۲۱۸: ۴.

ص: ۱۵۴

الفصل العاشر

الصفا والمروة

الصفا و المروة اسمان لجبلين بالقرب من الكعبة. وهذان الجبلان من شعائر الله تعالى: (). (۱)

والسرّ فی تسمیة الصفا بهذا الاسم أنه اکتسب تسمیته من وصف الأنبیاء وبخاصة آدم (ع)، و هم الذین اصطفاهم الله تعالی: (). (۲)

قال الإمام الصادق (ع): بعد أن هبط آدم (ع) علی جبل الصفا وهو من صفوة الله تعالی، فإنّ الجبل صفا من صفوة الله واصطفاء آدم (ع). (۳)

وعلیه؛ فإن الذی یکسب الصفا من هذا الجبل هو ممن اصطفاه الله تعالی: (). (۴)

وقال الإمام الصادق (ع) بشأن السرّ فی تسمیة المروة بهذا الاسم: بعد أن نزلت حواء ۳ وهی امرأة علی جبل المروة، سمی ذلک الجبل «المروة». (۵)

۱- البقرة: ۱۵۸.

۲- آل عمران: ۳۳.

۳- الکافی ۱۹۰: ۴؛ بحار الأنوار ۱۶۲: ۱۱ و ۱۶۹.

۴- الحج: ۷۵.

۵- الکافی ۱۹۰: ۴.

ص: ۱۵۵

وقال بعض اللغويين: إن الصفا حجر أملس (۱)، والمروة يطلق على الحجر الناعم البرّاق، وتسمية الجبلين بالصفا و المروة إنّما هو بلحاظ نوع أحجارهما. (۲)

ونصب فى الجاهلية اثنان من الأصنام على قمة الصفا والمروة، و اسمهما «أساف» (أثاف) و «نائلة» (۳) حيث كان الناس يتمسحون بهما تبركاً أثناء السعى (۴)؛ ولهذا السبب كان بعض المسلمين فى صدر الإسلام يتجنب السعى بين الصفا و المروة. و لغرض إزالة هذا الوهم وتحاشيه قال الله سبحانه و تعالى: ().

ومن هذا المنطلق فإنّ الصفا والمروة كالكعبة؛ لأنهم جعلوا الكعبة فى الجاهلية مقراً لأصنامهم غصباً، ولا ينبغى اعتبار ذلك مانعاً للطواف حول بيت الله.

والصفا و المروة من الرموز العبادية كسائر أماكن الحج ومناسكه: ()، والشعائر جمع «شعيرة» بمعنى العلامة، ولكن ليس معنى ذلك أن الصفا والمروة، هما من العلائم و الرموز التكوينية للحق تعالى فقط، لأنه بلحاظ التكوين، تكون جميع الموجودات من شعائر الله؛ فالصفا والمروة مثلها كمثل الكعبة وعرفات والمشعر و منى، شعائر جعلية و تشريعية و علائم عبادية.

۱- لسان العرب ۴۶۲: ۱۴- ۴۶۴ صفا.

۲- المصدر السابق ۲۷۵: ۱۵- ۲۷۶ مرا.

۳- بحار الأنوار ۲۳۵: ۹۶.

۴- الكافى ۴۳۵: ۴ «البقرة: ۱۵۸».

ص: ۱۵۶

الفصل الحادی عشر عرفات

عرفات، منطقـة خارج دائرة الحرم و بالقرب من المشـعر الحرام الـذی یقع فیه «جبل الرحمة» و «مسـجد نمرة». والوقوف فی هذه البقعة من ظهیرة الیوم التاسع من شهر ذی‌الحجة الحرام إلی غروبه واجب علی الذین عقدوا الإحرام لأداء حج التمتع، و هو من أرکان الحج.

وهناک عدة وجوه وردت حول السرّ فی تسمیة هذه البقعة باسم عرفات:

۱- أنّ آدم و حواء (ع) تعرّفا علی بعضهما البعض بعد الهبوط فی تلک البقعة. (۱)

۲- أنهما اعترفا بذنبهما فی تلک البقعة. (۲)

۳- أن جبرئیل (ع) عند تعلیمه مناسک الحج لإبراهیم (ع)، قال له: اعترف بذنوبک بین یدی الله فی هذه البقعة. (۳)

۴- عندما طلب النبی إبراهیم (ع) من الله سـبحانه و تعالی أن یُرِیَهُ مناسک الحج و یتعلّمها، () (۴)، نزل جبرئیل (ع) إلی أرض عرفات وکان مأموراً بتعلیم

۱- بحار الأنوار ۲۴۲: ۴۴ و ۲۴۵: ۵۷.

۲- المصدر السابق ۱۶۸: ۱۱.

۳- المصدر السابق ۳۰۷: ۴.

۴- البقرة: ۱۲۸.

ص: ۱۵۷

إبراهیم الخلیل (ع) مناسک الحج، فقال له: «هذه عرفاتٌ فاعرف بها مناسککَ واعترف بذنبک». (۱)

وبناءاً علی هذا الوجه، فإن سبب تسمیة تلک الأرض بعرفات أن جبرئیل (ع) أشار إلی تلک الأرض باسم عرفات.

۵- أن إبراهیم (ع) قد رأی فی المنام قبل یوم التاسع من ذی الحجّة أنه یذبح إسماعیل (ع). وبعد أن أفاق من نومه اعترته حالة من التروّی والتفکیر، فیما إذا کانت هذه الرؤیا من الله و بمنزلة الأمر السماوی أملا؟!

من هنا یسمی الیوم الثامن ب- «یوم الترویة»، وإن کان من المحتمل أن یکون السرّ فی تسمیته بیوم الترویة أنه فی ذلک الیوم کانوا یخزنون الماء لسقایة الحاج، لکی یسقون الحجیج بالماء فی عرفات والمشعر ومنی؛ وهذا ما أشار إلیه الإمام الصادق (ع) فقال: «إنّ إبراهیم أتاه جبرئیل عند زوال الشمس من یوم الترویة فقال: یا إبراهیم! ارتو من الماء لک و لأهلک، و لم یکن بین مکّةَ و عرفاتِ یومئذٍ ماء، فسُمِّیت الترویة لذلک». (۲)

وتکررت الرؤیا المذکورة لإبراهیم (ع) فی لیلة التاسع من ذی الحجة مرة أخری. وعلیه فقد أصبح لزاماً علیه أن یذبح ابنه إسماعیل (ع). وتحققت هذه المعرفة فی الیوم التاسع وفی أرض عرفات؛ ولهذا السبب سمی ذلک الیوم بیوم «عرفة» وسمیت تلک الأرض ب- «عرفات». (۳)

۱- الکافی ۲۰۷: ۴.

۲- المصدر السابق.

۳- الدر المنثور ۱۱۱: ۷.

ص: ۱۵۸

الفصل الثانی عشر المشعر الحرام

یقع المشعر الحرام ومنی ضمن حدود الحرم فی الحد الفاصل بین مکهٔ و عرفات. و یفیض الجمیع من عرفات باتجاه المشعر الحرام بعد غروب الشمس فی الیوم التاسع من ذی الحجهٔ فی نهایهٔ نصف یوم من الوقوف فی عرفات ویمضون اللیل هناک.

ویسمّون المشعر ب- «المزدلفهٔ» و «جمع» أیضاً، وطبقاً لما ذکره الإمام الصادق (ع) فإن السرّ فی تسمیهٔ تلک البقعهٔ ب- «المزدلفهٔ» یعود إلی أنّ جبرئیل (ع) فی استمراره بتعلیم المناسک لإبراهیم (ع) قال له: «یا إبراهیم! إزدلف إلی المشعر الحرام» (۱)؛ کما قال (ع): «وسمیت هذه البقعهٔ ب- «جمع» ذلک أن آدم (ع) جمع بین صلاهٔ المغرب و العشاء فیها، وصلّی المغرب والعشاء فیها، وصلّی کلاهما فی وقت واحد». (۲)

وعلی طول القرون الماضیهٔ یتوجه آلاف الزائرین إلی تلک البقعهٔ، و کل زائر یأخذ علی الأقل تسعاً وأربعین حصاهٔ من ذلک المکان لرمی الجمرات؛ من هنا کان من آیات الله البینات فی أرض المشعر أنّ المنطقهٔ علی الرغم من أنها لیست مکاناً لحدوث الفیضانات و عبور السیول لکی یظهر بواسطتها الحصی الناعم، لکن مع ذلک توفر کل ذلک الحصی الناعم دائماً، ولم ینفد لحد الآن.

۱- بحار الأنوار ۲۶۶: ۹۶.

۲- المصدر السابق.

ص: ۱۵۹

الفصل الثالث عشر منى

مع شروق شمس اليوم العاشر من ذى الحجة، يرد الحجيج إلى منطقة «منى» لأداء بعض المناسك الخاصة. و حدود منطقة منى تمتد من «العقبة» إلى «وادى محسَّر».

وحول مصدر تسمية هذه المنطقة باسم منى قال الإمام الصادق (ع): «إنّ جبرئيلَ (ع) أتى إبراهيم (ع) فقال: تمنّ يا إبراهيم!» (۱)، و قال الإمام على بن موسى الرضا (ع): «كانت أمنية إبراهيم (ع) والتى أعطاه الله إياها ابتداءً بأن يأمره الله سبحانه و تعالى بذبح كبشٍ بدلًا عن إسماعيل (ع)». (۲)

وطبقاً لما نقله الطريحى/ فإنّ منشأ تسمية منى بهذا الاسم، يعود إلى أنّ الدماء تمنى وتراق فى هذه البقعة؛ وكذلك فإنّ جبرئيل (ع) عند مفارقته لآدم (ع) قال له: تمنّ شيئاً، فقال آدم (ع): أتمنّى الجنّة. (۳)

وتقع أماكن الجمرات الثلاث، ومكان التضحية ومسجد الخيف، فى منى، و استناداً إلى بعض الروايات فإن سبعمائة نبى صلّى فى هذا المسجد (۴)، ويقع فى مكان مرتفع

۱- بحار الأنوار ۲۷۱: ۹۶- ۲۷۲.

۲- المصدر السابق.

۳- مجمع البحرين ۲۱۴: ۳.

۴- الكافى ۲۱۴: ۴.

ص: ۱۶۰

نسبياً، ولهذا السبب سمى ب- «الخيف» طبقاً لما جاء فى قول الإمام الصادق (ع)؛ حيث إنّ الأرض المرتفعة نسبياً عن الأراضى المحيطة بها، تسمى خيفاً. (۱)

يقول الفخر الرازى عن آيات الله سبحانه و تعالى فى أرض مكة وبخاصة فى منى: فى كل عام يقوم ستمائة ألف شخص (فى ذلك الوقت) برمى سبعين حصيّة فى الجمرات، ولكن من كرامات هذه الأرض أنه لا يمضى وقت طويل حتى يعود التقاط الحصيات منها بعد أن تكون قد خلت منها (۲)، ولكن فى السنوات الأخيرة يقوم موظفوا الدولة بتنظيف أطراف الجمرات وتسويتها، بينما لم يكن الأمر كذلك آنذاك.

ويوجد فى منى مسجدٌ يعرف باسم مسجد الكبش؛ والسرّ فى تسميته بالكبش أنّ كبش الأضحية وفداء إسماعيل (ع) قد ذبح فى ذلك المكان. (۳)

وكان إلى جانب هذا المسجد صخرةٌ ذبح عليها الفداء المذكور (۴)، و نقل عن أميرالمؤمنين الإمام على (ع) أنَّ ذبح الفداء كان بين الجمرة الأولى و الجمرة الوسطى على سفح الجبل المقابل، أى «جبل ثبير»، وليس فى المكان السابق؛ وما يؤيد هذا النقل، رواية عن ابن عباس أنّه قال: ضحّى الرسول الأكرم (ص) فى الموضع الذى ضحّى فيه إبراهيم (ع) فاتخذوه موضعاً للذبح، وكلّ أرض منى هى موضعٌ للذبح؛ وكان موضع ذبح أضحية الرسول الأكرم (ص) بين الجمرة الأولى والوسطى. (۵)

۱- بحار الأنوار ۲۷۱: ۹۶- ۲۷۲.

۲- التفسير الكبير ۱۵۹: ۸.

۳- مرآة الحرمين ۳۲۶: ۱.

۴- المصدر السابق.

۵- المصدر السابق.

ص: ۱۶۱

القسم الثالث مناسک الحجّ

الفصل الأول سرّ العبادة

العبادة، غایة الخلق لا الخالق

ص: ۱۶۲

الله سبحانه وتعالى حكيم، لهذا كان لأفعاله أهداف (۱)؛ نعم، إنّه تبارك وتعالى منزّه عن الهدف أيضاً بسبب غناه الذاتى، إلّا أنّ العالم نفسه له هدفٌ وجودىّ يناله ويبلغه؛ والهدف الأسمى والكمال النهائى للمخلوق يكمن فى صيرورته عبداً لله (). (۲)

ومن الواضح أنّ الله تعالى ليس محتاجاً حتّى يُعبد: () (۳)؛ فالعبادة- بظاهرها وباطنها- غايةٌ للمخلوق، وليست غاية للخالق الغنىّ المحض.

«الحجّ» مثل سائر العبادات، غاية للخلق، لا للخالق، لأنّه عين الغنى ومحض الكمال، وبذلك يظهر سرّ الكلام الإلهى واضحاً حيث يقول: () (۴)، لأنّ الحجّ

۱- المؤمنون: ۱۱۵.

۲- الذاريات: ۵۶.

۳- إبراهيم: ۸.

۴- آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۶۳

عبادة فرضت من الله تعالى على عبيده، وهم الذين يحتاجون لإقامة الحجّ والعمرة، فإذا كفروا- والحال هذه- فعليهم أن يعلموا أنّ الله غير محتاج للعالمين، فكيف يحتاج للخلق من الناس وعباداتهم؟!

العبادة، وسيلة الشهود الوحيدة

هدف الإنس والجنّ فی نظام التشريع هو تكاملهم العبادی، وإذا ما فتق الإنسان صاحب الروح العقلی المجرّد، روحَه، فإنّه سوف يصبح هدفاً للكثير من المخلوقات التی تقع دونه، وإن كان الهدف النهائی هو الله سبحانه وتعالی.

إنّ هدف خلق العالم هو اطّلاع الإنسان على علم الله وقدرته العظيمين () (۱)، والعلم الحصولی واليقين الاستدلالی وإن كانا كمالًا علميّاً وهدفاً مقصوداً إلّا أنّهما يعدّان وسيلةً- فقط- مقارنةً بالعلم الحضوری واليقين الشهودی (**) (۲)، أی أنّه يمكن الوصول إلى عين اليقين بعلم اليقين.

بناءاً عليه، يمكن اعتبار اليقين الشهودی بالمعارف هدفاً نهائيّاً للخلقة، وهذا اليقين الشهودی يعتمد دائماً على العبادة التی هی الوسيلة الوحيدة لشهود السالك وظهور الغيب () (۳)؛ وهذا مايعنی إمكانية الوصول إلى عين اليقين بعلم اليقين.

۱- الطلاق: ۱۲.

۲- التكاثر: ۵- ۷.

۳- الحجر: ۹۹.

ص: ۱۶۴

نعم، شكل الاعتماد على العبادة يتناسب فى كلّ نشأة مع تلك النشأة، ففى الدُّنيا تعتمد على العبادات التشريعيّة، وفى الآخرة تقوم على باطن تلك العبادات.

إنّ العبادة وإن كانت- بالمعنى الذى ذكرناه- غاية الخلقة، إلّا أنّها فى نفسها مقدّمة لليقين، واليقين هو الغاية ()، والحجّ أيضاً يمثّل إعداداً لهذا الهدف الرفيع للعبادة، أى اليقين؛ لأنّه نورٌ وبصيرة وشهود، من هنا جاء فى الروايات أنّ تارك الحجّ يحشر أعمى، وأنّه أعمى فى الدُّنيا وفى الآخرة كذلك وأضلّ. (۱)

ويُستنتج من الآية الشريفة: () (۲)، أنّ هدف ظهور العالم، أى ظهور الحقّ فى مرآة الخلق، هو اطّلاع الإنسان السالك على علم الحقّ وقدرته، وهذا العلم الشهودى يجعل العارف الواصل مظهراً للعليم القدير، بحيث إذا أذِنَ الله تعالى، يمكنه ببسم الله الرحمن الرحيم أن يفعل ما كان يتحقّق فى الآخرة بصرف الإرادة ... أن يفعله فى الدُّنيا كذلك، وكلّ ما يريد أن يعلمه فإنّه يشاهده.

كشف سبيل سرّ العبادة

إنّ ما يقع داخل إطار عمل الجوارح أو على مستوى خواطر الجوانح، يكون من أحكام العبادات أو من آدابها، وليس أىّ منهما سرّاً للعبادة، فقط ما يقع فى مدار شهود العقل النظرى وانبعاث العقل العملى .. هو ما يمكن عدّه سرّاً للعبادة.

۱- انظر وسائل الشيعة ۱۷: ۸- ۱۹.

۲- الطلاق: ۱۲.

ص: ۱۶۵

وكما تجب مراعاة قوانين الفقه الأصغر، دون أن تكفى فى نيل أسرار العبادات، فإنّ مراعاة الفقه الأوسط، أى فنّ الأخلاق الشريف، يظلّ لازماً أيضاً، لكنّه أيضاً لايكفى، بل المطلوب احترام إرشادات الفقه الأكبر، عنيت العرفان النظرى والعملى، حيث يُتمكّن من العثور على السبيل لمصدر نزول العبادة عبر الضمير الشاهد والسرّ الطاهر، ليتمّ عبر ذلك إنجاز الأمر من خلال السُبل الإدراكيّة والتحريكيّة للمعبود، كما يشير إلى زاوية من ذلك حديثُ قرب النوافل (۱)؛ وهناك لا يكتفى السالك الواصل ببلوغ سرّ العبادة، بل يصبح بنفسه فى موقع سرّ المعبود، ومخزن علمه: «هم موضع سرّه، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حُكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه». (۲)

حقيقة الإنسان الكامل سرّ العبادات كافّة

ثمَّة علامات لبلوغ سرّ العبادات، وتوضيح ذلك أنّ ما من الشروط الطولية لصحّة العبادات- لا الشرط العرضى- يحسب من أسرارها، فمثلًا الطهارة شرط صحّة الصلاة، إلّا أنّ هذا النوع من الاشتراط وإن اشتمل تقدّماً رتبيّاً، إلّا أنّه على مستوى معرفة السرّ يقع فى عَرْض العبادات المشروطة والموقوفة، لا فى طولها؛ لأنّ الشرط الطولى لقبول الطهارة والصلاة هو الورع والتقوى، قال تعالى: (). (۳)

إنّ قبول التقوى رهن بولاية الإنسان الكامل؛ لأنّ أىّ عبادة- بل تقوى- ليست مقبولةً دون تولّى المعصومين:، حتّى أنّ القبول بولايتهم دون الاعتقاد بولايتهم

۱- بحار الأنوار ۲۲: ۶۷: «ما تحبّب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىَّ ممّا افترضته عليه، وإنّه ليتحبّب إلىَّ بالنافلة حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يُبصر به، ولسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، إذا دعانى أجبته وإذا سألنى أعطيته ...».

۲- نهج البلاغة، الخطبة: ۲، الفقرة: ۱۰- ۱۱.

۳- المائدة: ۲۷.

ص: ۱۶۶

التكوينيّة التى هى سرّ كونهم ولاةً، هو الآخر غير مقبول (۱)؛ لأنّ القبول بولايتهم وإدارتهم- كالصلاة والصوم والزكاة والحجّ و ...- من فروع الدِّين (۲)، ولكلّ فرع أصل، يعدّ سرّاً لهذا الفرع، من هنا يُعلم أنّ حقيقة الإنسان الكامل هى سرّ العبادة، وكلّ سالك ينال سرّ العبادة بمقدار بلوغه من الكمال الإنسانى، وأكمل البشر هم المعصومون: الواصلون للسرّ النهائى للعبادة؛ لهذا كانوا الصراط المستقيم (۳)، وميزان الأعمال. (۴)

وبغية الوصول إلى هذا الهدف السامى، لا مجال سوى بإعمال العقل واليقظة والوعى فى مراقبة حرم القلب الآمن؛ فالحكمة لا تحصل دون تدبّر وتعمّق، وصيرورة الإنسان أهل رأى ونظر لا تحصل دون حمل السرّ وطهارة الضمير وصيانة الذات: «الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأى، والرأى بتحصين الأسرار». (۵)

۱- انظر: وسائل الشيعة ۹۰: ۱- ۹۶.

۲- انظر: وسائل الشيعة: ۷- ۱۹.

۳- راجع: الكافى ۴۱۶: ۱.

۴- انظر: المصدر السابق: ۴۱۹، ۴۳۳.

۵- نهج البلاغة، الحكمة: ۴۸.

ص: ۱۶۷

الفصل الثانی سرّ الحج وثمراته

الصورة الباطنیّة للحجّ

لکلّ عبادة بطنٌ وسرّ، وذلک:

أوّلًا: إنّ العبادات امور تحدّث عنها الله سبحانه فی کتابه.

ثانیاً: لکتاب الله ظاهر وباطن: «... إنّ لکتاب الله ظاهراً وباطناً» (۱)، وهذا معناه أنّ کلّ ما جاء فی القرآن- ومنه الحجّ- له ظاهر یعرفه الناس، وباطن لا یراه إلّا الشهودیّون والعرفاء، ولا یناله غیرهم.

بعبارة اخری: کلّ ما أثنی علیه الوحی الإلهی فله ظاهر یتواصل معه الناس بجسدهم وقوالبهم، وباطن یتّصل به الإنسان بالقلب ویناله به. وتنزل العبادات- ومن بینها الحجّ- حالها حال سائر موجودات العالم الاخری ... من خزائن الغیب الإلهی: () (۲)، إنها کغیرها من الموجودات تنزل إلی واقعیّات متّکئةً علی مخازن الغیب، وعلیه فمن یعرف هذه الامور العبادیة ویعمل بها یصل إلی اصولها وجذورها فی مخزن الغیب.

۱- بحار الأنوار ۹۰: ۸۹.

۲- الحجر: ۲۱.

ص: ۱۶۸

وهناک روایات واردة فی الصور الباطنیّة للأعمال العبادیّة، وهی تنظر إلی هذه النقطة التی أشرنا إلیها، حیث یتعرّف الإنسان فی البرزخ الصعودی أو النزولی علی تلک الواقعیّات، وطبعاً عدد قلیل من الناس یعرفون هذه الحقائق قبل تنزّل الأعمال لهذا العالم (فی البرزخ النزولی)، تماماً کما یعرف سائر الناس بعد الموت (فی البرزخ الصعودی) حقیقة الصلاة والحجّ والزکاة ویفهمونها، ویرون صورها الملکوتیّة.

وکما یقول الحدیث: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه فی قبره ستة صور، فیهنّ صورة أحسنهنّ، عن یمینه، واخری عن یساره، واخری بین یدیه، واخری خلفه، واخری عند رجله، وتقف التی هی أحسنهنّ فوق رأسه؛ فإن أتی عن یمینه منعته التی عن یمینه، ثمّ کذلک إلی أن یؤتی من الجهات الستّ، فتقول أحسنهنّ صورةً: ومن أنتم جزاکم الله عنّی خیراً؟ فتقول التی عن یمین العبد: أنا الصلاة، وتقول التی عن یساره: أنا الزکاة، وتقول التی بین یدیه: أنا الصیام. وتقول التی خلفه: أنا الحجّ والعمرة. وتقول التی عند رجلیه: أنا برّ من وصلت من إخوانک. ثمّ یقلن: مَنْ أنت؟ فأنت أحسننا وجهاً، وأطیبنا ریحاً، وأبهانا هیئة. فتقول: أنا الولایة لآل محمّد صلوات الله علیهم أجمعین». (۱)

تدلّ هذه الروایة علی أنّ للحجّ صورةً باطنیّة تظهر فی صورة ملکوتیّة عندما ینتقل الجمیع من عالم المُلک إلی عالم الملکوت، ویسافرون ویهاجرون حیث تتبدّل الدُّنیا إلی آخرة.

ولأماکن الحرم- مکاناً مکاناً- وکذلک لمناسک الحجّ والعمرة، أسرار ورموز، لاتنکشف إلّا لزائرین خاصّین یشاهدون صاحب البیت فی المجالی والتمظهرات المختلفة، وینالون اللِّقاء بربّ البیت وشهود الآیات الآفاقیّة والأنفسیّة له، ویمتثلون الحجّ الإبراهیمی والاعتمار الأصیل الحسینی (ع).

۱- بحار الأنوار ۲۳۴: ۶.

ص: ۱۶۹

ویوضح الإمام الصادق (ع) بعض أسرار الحجّ، والتی تشکِّل الوجهة الباطنیّة له، فیقول:

«... ثمّ اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبک، والبس کسوة الصّدق والصفاء والخضوع والخشوع، وأحرم عن کلّ شیء یمنعک من ذکر الله ویحجبک عن طاعته، ولبِّ بمعنی إجابة صافیة خالصة زاکیة لله عزَّ وجلَّ فی دعوتک، متمسّکاً بالعروة الوثقی؛ وطف بقلبک مع الملائکة حول العرش کطوافک مع المسلمین بنفسک حول البیت. وهرول هرباً من هواک وتبرّیاً من جمیع حولک وقوّتک. واخرج عن غفلتک وزلّاتک بخروجک من منی، ولا تتمنّ ما لا یحلّ لک ولا تستحقّه؛ واعترف بالخطایا بعرفات؛ وجدّد عهدک عند الله بوحدانیّته، وتقرّب إلی الله واتّقه بمزدلفة؛ واصعد بروحک إلی الملأ الأعلی بصعودک إلی الجبل؛ واذبح حنجرة الهواء والطمع عند الذبیحة؛ وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذمیمة عند رمی الجمرات؛ واحلق العیوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرک؛ وادخل فی أمان الله وکنفه وستره وکلاءته من متابعة مرادک بدخولک الحرم؛ وزُر البیت متحقّقاً لتعظیم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه؛ واستلم الحجر رضاءاً بقسمته وخضوعاً لعزّته؛ وودّع ما سواه بطواف الوداع؛ وأصف روحک وسرّک للقاء الله یوم تلقاه بوقوفک علی الصفا. وکُن ذا مروّة من الله نقیّاً أوصافک عند المروة ...

واعلم بأنّ الله تعالی لم یفترض الحجّ ولم یخصّه من جمیع الطاعات بالإضافة إلی نفسه بقوله عزّ وجلّ: () (۱)، ولا شرع نبیّه (ص) سنّة فی خلال المناسک علی ترتیب ما شرعه، إلّا للاستعداد والإشارة إلی

۱- آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۷۰

الموت والقبر والبعث والقیامة ...». (۱)

سرّ الحجّ فی السیر إلی الله

کما کان الحجّ لله ووجوبه منه: () (۲)، کذلک لابدّ أن یکون امتثاله والقیام به لله أیضاً؛ فإذا أراد شخص الحجّ بقصد السیاحة والتجارة وأمثال ذلک فإنّ حجّه هذا لیس له أیّ سرّ من حیث إنّه لیس سیراً إلی الله تعالی، فإنّ أهمّ أسرار الحجّ هو السیر إلی الله سبحانه، تماماً کما طبّقت بعض الروایات الآیة الکریمة: () (۳) علی الحجّ. (۴)

إنّ سفر الحجّ فرار من غیر الله إلی الله سبحانه، وحیث الله فی کلّ مکان (۵)، فلیس معنی «السیر إلی الله» هو السیر المکانی أو الزمانی، بل الفرار إلی الله معناه ترک الإنسان ما سوی الله وطلبه لله سبحانه، فإذا سافر إنسانٌ إلی الحجّ بقصد التجارة أو الشهرة أو ما شابه ذلک، فقد حقّق «الفرار من الله» لا «الفرار إلی الله».

إنّ مسیرة إقامة الحجّ التی تکمن فی الانقطاع عمّا سوی الله والهجرة إلیه سبحانه، کی یُنال لقاؤه ... کلّها «إلی الله» و «فی الله» و «مع الله» و «لله»، من هنا جاء فی بعض أدعیة الحجّ وأمثاله: «بسم الله وبالله وفی سبیل الله وعلی ملّة رسول الله». (۶)

زاد سفر الحجّ

۱- بحار الأنوار ۱۲۴: ۹۶- ۱۲۵.

۲- آل عمران: ۹۷.

۳- الذاریات: ۵۰.

۴- وسائل الشیعة ۵: ۸.

۵- البقرة: ۱۱۵، الزخرف: ۸۴، الحدید: ۴.

۶- بحار الأنوار ۱۲۰: ۹۶.

ص: ۱۷۱

لم يرد تعبير «الزاد» فی القرآن الكريم سوى فی الآيـة الشـريفة: () (۱)، حيث يشـتمل صدرها- بل وما قبلها وما بعدها من آيات- على بيان بعض أحكام الحجّ؛ وسـرّ المطلب وجود سـفر فی الحجّ: () (۲) وحيث كانت هناك حاجـة فی السـفر للزاد والمؤونة، لذا ذكّر الله سبحانه بذاك السفر الأصلی والأصيل الذی هو الآخرة، فأمر بالتقوى.

إنّ قوله تعالى: ():

أوّلًا: يرشد إلى الطريق، وبدلالته على تعيين الزاد، وهو التقوى، يبيّن أنّ المراد هنا هو السـلوك إلى الله تعالى، فإنّ الله هو أهل التقوى، كما أنّه أهل الجود والجبروت.

ثانياً: يحذّر الناس بأنّهم جميعاً مسافرون؛ لأنّ التزوّد علامة أنّ الإنسان مسافر.

ثالثاً: يُعلِم بأنّ المسافر من دون زاد لا يمكنه الحركة ولا التقدّم.

رابعاً: يرشد الجميع إلى أنّ أفضل الزاد هو التقوى.

خامساً: يبيّن أنّ الحجّ من أبرز مصاديق التقوى.

سادسـاً: يـذكّر بـأنّ أفضل نوع من أنواع التقوى هو التقوى الإلهيّـة، فَاتَّقُونِ، فإنّ زاد السالكين الـذين ينشأ ورعهم وتقواهم من الخوف من نار جهنّم أو الشوق إلى الجنّـة، ينتهی فی وسط الطريق، ولا يصـلون إلى لقاء الله فی سـفر الآخرة؛ لأنّ هدفهم كان الفرار من جهنّم أو الوصول إلى الجنّة، وبعد ذلك يقفون فی حركتهم، لأنّهم لا زاد معهم لغيرها.

۱- البقرة: ۱۹۷.

۲- الحجّ: ۲۷.

ص: ۱۷۲

أمّا تقوى الأحرار التى لا تنشأ من خوف النار ولا طمع الجنّة، وإنّما من محبّة الله سبحانه، فإنّها تستمرّ بهم إلى لقاء الله، فيصلون إليه، لما عندهم من الزاد، فالتقوى التى تنال الله تعالى ليست صفةً منفصلة عن روح المتّقى وذاته، فصاحبها متّق يحظى بلقاء الله.

إنّ سفر الحجّ للزائر الذى وصل للمقصد وعثر على مقصوده فى ذلك المقصد ثمّ رجع، هو سفرٌ «من الحقّ إلى الخلق بالحقّ»، وهذا المسافر لديه سفر نفسى إلى جانب السفر الافقى والآفاقى، وهو يدرك أنّ الله تعالى معه: () (۱)، إنّ مثل هذا الزائر يرجع إلى دياره ومعه مضيفه نفسه (۲)، بنورانيّة تجعله كأنّه ولد من امّه من جديد «مَن أَمَّ هذا البيت حاجّاً أو معتمراً مبرءاً من الكبر، رجع من ذنوبه كهيئة يوم ولدته امّه» (۳)، والناس مكلّفون بزيارة مثل هذا القادم من سفر الحجّ قبل أن يتلوّث حجّه بأىّ معصية أو ذنب، فينالون بذلك من النور الإلهىّ لِحجَّتِهِ. (۴)

تزكية الروح فى ضوء معرفة الأسرار

يقع قسم مهمّ من تزكية النفوس فى ضوء معرفة أسرار العبادات والأحكام الدينيّة، إنّ تعليم الكتاب والحكمة الوارد فى الآية الشريفة: ( ) (۵)، مفهوم يستوعب العقائد والأخلاق والأعمال العباديّة، كما يستوعب أيضاً القضايا الاقتصاديّة، والسياسيّة، والعسكريّة، وما شابهها، من هنا

۱- الحديد: ۴.

۲- ورد تعبير «الضيف» فى حقّ زوّار بيت الله الحرام فى عدد من الروايات، منها: «ثلاثة نفر من خالصة الله عزّ وجلّ يوم القيامة ... والحاج والمعتمر؛ فهما وفد الله، وحقّ على الله أن يكرم وفده» وسائل الشيعة ۸۴: ۳؛ و «إنّ ضيف الله عزّ وجلّ رجلٌ حجّ واعتمر فهو ضيف الله حتّى يرجع إلى منزله ...» وسائل الشيعة ۴۵۸: ۱۰.

۳- وسائل الشيعة ۶۴: ۸.

۴- المصدر السابق: ۳۲۷.

۵- البقرة: ۱۲۹.

ص: ۱۷۳

فالتزكيـة المذكورة فى هذه الآية أتت أيضاً لبيان باطن هذه الامور كافّة، وكما أنّ تزكية أىّ عمل تكون بنيل أسـرار ذلك العمل، فإنّ أىّ عمل له سرّ، يكون الاهتمام به أساساً لتزكية الروح.

والحـجّ، مثله مثل سائر العبادات والآداب والسـنن والفرائض، جاء لتهـذيب النفس، فمحرّمات الحجّ جاءت لتطهير القوى النفسانية التى تتورّط أحياناً بالمعاصى والمهلكات، كما أشارت الآية الشريفة: () (۱)، إلى ثلاثة محرّمات فى الحجّ، يتعلّق كلّ واحد منها بتطهير قوّة من القـوى الإنسانيّـة، ف- (لاـرفث) تنظر إلى تطهير القوّة الشـهوانيّة، و (لاـفسوق) لتطهير القوّة الغضبيّـة، و (لاجـدال) لتهـذيب القوى الفكريّة.

وبطهارة هـذه القوى الثلاث تطهر جملة أعمال الإنسان؛ لأنّ أىّ عمل يصدر من الإنسان يرجع بالتحليل الدقيق إلى هذه القوى الثلاث، وتفصيل هذا البحث موكول إلى علم الأخلاق.

والجـدير بالـذِّكر أنّ أىّ عمـل إنّمـا يصـدر من مصـدر خـاصّ ويحكى عن خصوصـيّاته، فالصـدر المشـروح يصـدر عنه عمل خالص ومشـروح، غير مبتلى بنقص ولا ملوّث بعيب؛ وعلى هـذا الأساس فإنّ زائر بيت الله الحرام، يغـدو حجّه خالصاً وخلوصاً ومشـروحاً أكثر بتبع درجـة معرفته بأسـرار الحـجّ نفسه؛ لأـنّ الخلوص الـذى هو معيـار الاسـتفادة من الثواب، وشـأنٌ من شؤون العقـل العملى، مسـبوقٌ بالمعرفـة؛ والمعرفـة من شؤون العقل النظرى، فعلى السالك- فى البداية- أن يفهم المراحل العباديّة ويعيها، حتّى يكون لديه فى مقابل فهمه ومعرفته إقدامٌ خالص على الفعل.

إذن، فبدون التعرّف على أسرار الأعمال لن يتيسّر طىّ مراحل الإخلاص كاملةً،

۱- البقرة: ۱۹۷.

ص: ۱۷۴

وهذا الأمر صادق فی حقّ التعرّف علی أسرار سائر العبادات أیضاً.

وعلیه، فعندما یشرع شخص- قبل التعرّف علی أسرار الحجّ- بالسفر إلی بیت الله، فحجّه وإن کان یمکن أن یکون صحیحاً بحسب الظاهر، إلّا أنّه بذلک لم‌یحقّق الحجّ الکامل والمقبول، ولم تکن الضیافة من نصیبه؛ لأنّ روح إقامة الحجّ لم تتعالی عنده بسبب عدم اطّلاعه علی أسرار هذه الفریضة.

ولمزید من التعرّف علی أسرار الحجّ، لابدّ من الرجوع إلی عادات وسیرة الحجّاج الصالحین الحقیقیّین؛ أعنی المعصومین:؛ لوضع حجّهم تحت مجهر المطالعة الدقیقة والتأسّی بهم فی ذلک؛ لأنّ هؤلاء کانوا یراعون- مع الآداب والسنن والفرائض والأعمال الظاهریّة للحجّ- العناصر التکوینیّة التی تقوم علیها هذه الأعمال.

ویظلّ استذکار هذا الأمر مفیداً، وهو أنّ سرّ الکثیر من العبادات غیر مخفیّ ولامستور عن القائمین بها، إلّا أنّ فهم أسرار مناسک الحجّ یبقی أمراً عسیراً وشاقّاً، فالکثیر من أسرار الحجّ یصعب شرحها بالعقل البشری أو لا یتیسّر ذلک أساساً؛ من هنا احتوت مناسک الحجّ عبودیّة محضة وتامّة، منسجمة مع التعبّد الشدید الزائد عن أمثاله فی سائر الأحکام الدینیّة، تماماً کما قال رسول الله (ص) عند التلبیة: «لبّیک بحجّة حقّاً تعبّداً ورقّاً». (۱)

التناغم بین سیرة الحاجّ وسرّ الحجّ

عدّ الله سبحانه الحجّاج والمعتمرین من شعائره؛ فقال: () (۲)، فالحاجّ عندما یعزم علی زیارة البیت یغدو

۱- المحجّة البیضاء ۱۹۷: ۲، وقد أسندت هذه الجملة فی بعض النصوص إلی أنس بن مالک.

۲- المائدة: ۲.

ص: ۱۷۵

جزءاً من الشعائر الإلهيّة.

نعم، من الواضح أنّ الذى يقصد من سفر الحجّ والعمرة، السياحة والتجارة والشهرة وما شابه ذلك، لا يكون ضمن الحُرمات الإلهيّة.

إنّ الزوّار المدعوين من جانب الحقّ سبحانه واللائقين بالتكريم الإلهى هم الواجدون للشروط والأوصاف الخاصّة، وقد بيّن القرآن الكريم هذه الأوصاف تارةً بنحو العموم، واخرى بذكر مصاديقها.

أمّا الشرائط العامّة فقد ذكرها فى العهد الذى عهده إلى بانى الكعبة ومساعده- أى إبراهيم وإسماعيل (ع)- حين قال: (). (۱)

وطبقاً للآية الشريفة: () (۲)، فإنّ مصداق «الركّع السجود» الذين أمر الخليل والذبيح (ع) بتطهير البيت لضيافتهم، هم الامّة الحقيقيّة لرسول الله (ص)، الذين يملكون- إلى جانب الصلاة والركوع والسجود- الصلابة الإبراهيميّة ضدّ النمرودیين ورؤوس الكفر والنفاق والطغيان، كما لديهم رأفة خليل الرحمن بالمسلمين المحرومين فى أنحاء العالم الإسلامى.

بناءاً عليه، فمَن كان ملوّثاً بالفكر الباطل أو العمل الطالح لن يكون ضيفاً للبيت الطاهر، فليس الساعى وراء الامتيازات والمقامات والمناصب ضيفاً لبيت المساواة والمواساة، وليس عبد الهوى أو عبد المستكبرين والملحدين ضيفاً للبيت العتيق الحرّ، بيت الحرية والأحرار، وليس من لديه مئات الأصنام بضيفٍ على بيت التوحيد، ومن

۱- البقرة: ۱۲۵.

۲- الفتح: ۲۹.

ص: ۱۷۶

وجّه وجهه للخلف وأدار ظهره للقبلة مصلّياً صلاته لا يكون ضيفاً على قبلة المسلمين، ومن وضع مكان التبرّى من الشرك والنِّفاق والكفر، الولاية لرموز الإلحاد كيف يكون ضيفاً على مطاف العاكفين؟! فليس من يخضع للاستعمار بضيف على بيت الراكعين والساجدين، ليس كلّ حاجّ بعارف لأسرار الحجّ، أو بممتثل للحجّ الكامل، إنّما هم الحافظون للسرّ الإلهى ولمخازن العلوم الربّانية من يطّلع الله على أسراره ليحفظوها، فهم مطّلعون على سرّ الحكم ويصلون لهذا السرّ.

السيرة اللا إنسانية لبعض الحجّاج

تصنع العقائد والأخلاق والأعمال والنيّات حقيقةَ أىّ إنسان، كذلك الحجّ- كما سائر العبادات- يبنى الإنسان، بل يتناغم سرّ الحجّ مع سريرة الإنسان، فيبنى على أساس ذلك، وإذا لم يوفّق شخص لبلوغ السرّ، فإنّ صورته تكون صورة الإنسان، إلّا أنّ حقيقته وسيرته ستكونان سيرة الحيوان: «فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان». (۱)

يقول أبو بصير للإمام الباقر (ع): «ما أكثر الحجيج وأعظم الضجيج! فقال (ع): بل ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج، أتحبّ أن تعلم صدق ما أقوله، وتراه عياناً؟ فمسح يده على عينيه، ودعا بدعوات فعاد بصيراً، فقال: انظر يا أبابصير إلى الحجيج؛ قال: فنظرت فإذا أكثر الناس قردةً وخنازير، والمؤمن بينهم مثل الكوكب اللّامع فى الظلماء ...». (۲)

وفى حديث آخر: قال علىّ بن الحسين (ع)- وهو واقف بعرفات- للزهرى: «كم تقدِّر من الناس هاهنا؟» قال: أُقدّر أربعة ألف ألف [ظ أربعمائة ألف أو] وخمسمائة

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۸۷، الفقرة: ۱۲.

۲- بحار الأنوار ۲۶۱: ۴۶.

ص: ۱۷۷

ألف؛ كلّهم حجّاج قصدوا الله بأموالهم ويدعونه بضجيج أصواتهم؛ فقال له: «يا زهرىّ! ما أكثر الضجيح وأقلّ الحجيج»، فقال الزهرى: كلّهم حجّاج أفهم قليل؟ فقال: «يا زهرىّ! أدن إلىَّ وجهك»؛ فأدناه إليه، فمسح بيده وجهه.

ثمّ قال: «انظر»، فنظر إلى الناس؛ فقال الزهرى: فرأيت أُولئك الخلق كلّهم قردة لا أرى فيهم إنساناً إلّا فى كلّ عشرة ألف واحد من الناس؛ ثمّ قال لى: «ادنُ يا زهرىّ»، فدنوت منه فمسح بيده وجهى، ثمّ قال: «انظر»، فنظرت إلى الناس. قال الزهرىّ: فرأيت اولئك الخلق كلّهم خنازير.

ثمّ قال لى: «ادنُ إلىَّ وجهك»، فأدنيت منه فمسح بيده وجهى فإذا هم كلّهم ديبة (ذئبة) إلّا تلك الخصائص من الناس النفر اليسير.

فقلت: بأبى وامّى أنت يا ابن رسول الله، قد أدهشتنى آياتك وحيّرتنى عجائبك؛ قال: «يا زهرىّ! ما الحجيج من هؤلاء إلّا النفر اليسير الذين رأيتهم بين هذا الخلق الجمّ الغفير».

ثمّ قال لى: «امسح يدك على وجهك»، ففعلت فعاد اولئك الخلق فى عينى اناساً كما كانوا أوّلًا.

ثمّ قال لى: «مَن حجّ ووالى موالينا وهَجَر معادينا ووطّن نفسه على طاعتنا ثمّ حضر هذا الموقف مسلّماً إلى الحجر الأسود ما قلّده الله من أمانتنا (أماناتنا) ووفيّاً بما ألزمه من عهودنا، فذلك هو الحاج والباقون هم من قد رأيتهم.

يا زهرىّ! حدّثنى أبى عن جدّى رسول الله (ص) أنّه قال: ليس الحاج المنافقون المعاندون لمحمّد وعلىّ ومحبّيهما الموالون لشانئيهما، وإنّما الحاجّ المؤمن المخلصون الموالون لمحمّد وعلىّ ومحبّيهما المعادون لشانئيهما، إنّ هؤلاء المؤمنين الموالين لنا المعادين لأعدائنا لتسطع أنوارهم فى عرصات القيامة على قدر موالاتهم لنا؛ فمنهم

ص: ۱۷۸

مَن يسطع نوره مسيرة ثلاث مائة ألف سنة وهو جميع مسافة تلك العرصات، ومنهم مَنْ تسطع أنواره إلى مسافات بين ذلك يزيد بعضها على بعض على قدر مراتبهم فى موالاتنا ومعاداة أعدائنا يعرفهم أهل العرصات من المسلمين والكافرين بأنّهم الموالون المتولّون المتبرّؤون، يُقال لكلّ واحد منهم: يا وليّ الله! انظر فى هذه العرصات إلى كلّ من أسدى إليك فى الدُّنيا معروفاً أو نفّس عنك كُرباً أو أغاثك إذ كنت ملهوفاً أو كفَّ عنك عدوّاً أو أحسن إليك فى معاملة فأنت شفيعه ...». (۱)

وطبقاً لحديث آخر عن الإمام السجّاد؛ فإنّ الأشخاص الذين يكون ملكوتهم بصورة إنسان هم المتمسّكون بالقرآن والعترة، والمعتقدون بالوحى والرسالة والولاية، وقد أحاط الدين وأمّن ظاهرهم وباطنهم؛ من هنا كان ظاهرهم وباطنهم إنسانيّاً، أمّا الذين كان باطنهم الفصل بين القرآن والعترة، ويقولون بأنّ الرسول اجتهد فى تعيين الإمام بعده، فهو فى الحقيقة جحود وإنكار للحقّ، وهو ما يظهر بصورة حيوانيّة.

وقد اتّضح من الرواية المُشار إليها دور الاعتراف بولاية الأئمّة المعصومين:، وكذلك إنكارهم، فى بناء سلوك الإنسان وحقيقته.

وفى هذا السياق نفسه، يقول سدير الصيرفى: كنتُ مع الصادق (ع) فى عرفات، فرأيت الحجيج وسمعتُ الضجيج، فتوسّمت وقلتُ فى نفسى: أترى هؤلاء كلّهم على الضلال؟ فنادانى الصادق (ع) فقال: «تأمّل!» فتأمّلتهم، فإذا هم قردة وخنازير. (۲)

وسرّ هذا الأمر هو ما جاء فى الحديث عينه، وهو أنّ الذى يتغافل النصّ الصريح للنبىّ الأكرم (ص) فيما يخصّ خلافة الأئمّة المعصومين: عامداً عالماً، وينكر ذلك، ولا يعتقد بولايتهم، فإنّ حقيقته ليست إنسانيّة.

۱- المصدر السابق ۲۵۸: ۹۶.

۲- المناقب ۲۳۴: ۴- ۲۳۵.

ص: ۱۷۹

ونتيجة الكلام أنّه وإن كان من الممكن أن يكون كلّ الحاضرين فى مراسم الحجّ زوّاراً لبيت الله الحرام فى إحصاء ظاهرىّ، إلّا أنّ الكثير منهم لا يحسبون إنساناً من حيث الإحصاء الباطنى والحقيقى لهم، على مستوى أسرار الحجّ.

إنّ هذا المشهد الذى رأيناه وإن حصل أن وقع فى عرفات، إلّا أنّه يمكن تحقّقه أيضاً فى الصفوف الطويلة لصلوات الجماعة التى قد يبلغ العدد فيها أحياناً مبلغاً كبيراً، بحيث لا نجد سوى القليل من المقيمين الحقيقيّين للصلاة.

والجدير ذكره هنا، أنّ هذا البحث وإن ورد فى باب الحجّ؛ إلّا أنّ مرجعه إلى سرّ الولاية، لا سرّ الحجّ، اللّهُمَّ إلّا إذا قيل: حيث كانت الولاية مُرخيةً بظلالها على جميع الأعمال والعبادات، لذا فإنّ حقيقتها سوف تظهر تحت عنوان سرّ الأعمال والعبادات، فمن لا يقبل بسرّ الولاية فقدْ فَقَدَ إنسانيّته ولو أدّى الصلاة، والصوم، والزكاة، والحجّ، انطلاقاً من فقدان أعماله السرّ والحقيقة؛ لأنّ سرّ العبادة هو ما يبنى الإنسان وينشؤه ويربّيه، ومن لم يبلغ هذا السرّ فلن تكون سريرته إنسانيّة.

ص: ۱۸۰

الفصل الثالث الإحرام

اشارة

الحرم هو الأمن الإلهى وهو أرض الحجّ، ميزةٌ لا يشاركه فيها شىء، ليس فقط فى موسم الحجّ، وإنّما على امتداد العام، حيث لا يمكن الدخول إليه إلّا مع الإحرام. كذلك الحال فى عدم حقّ غير المسلم فى دخول منطقة التوحيد ومهبط الوحى؛ لأنّ إحرامه غير صحيح، ودخول غير المحرم إلى الحرم ممنوع.

وقد حدّدت لكلّ من يريد الدخول إلى الحرم مواقيت للإحرام؛ يقصد بذلك حفظ حرمة الحرم الذى وجد بالمسجد الحرام والكعبة المشرّفة؛ فالإحرام من الميقات للدخول إلى الحرم مثل صلاة تحيّة المسجد التى وضعت لحفظ كرامة المسجد، مع فارق وهو أنّ تحيّة المسجد مستحبّة، فيما الإحرام لدخول الحرم واجب، ويجب على الحاجّ عند الإحرام أن يقصد أن يحرِّم على نفسه ما حرّمه الله عليه. (۱)

۱- مستدرک الوسائل ۱۶۶: ۱۰. وقد أورد هذا الكتاب- لا سيما فى قسم الحجّ- وفى مواضع متعدّدة، الرواية المعروفة برواية الشبلى، وحيث احتوت هذه الرواية على أسرار ولطائف كثيرة حول الحجّ؛ لذا ننقل نصّها الكامل هنا؛ لكن قبل ذلك يجدر الالتفات إلى بعض النقاط:

أوّلًا: هناك أشخاص متعدّدون معروفون بلقب «الشبلى»، وأقرب شخص منهم إلى عصر الأئمّة: هو أبوبكر دُلف بن جحدر، المولود بعد شهادة الإمام السجّاد ۷ بحوالى قرنين، وهذا معناه أنّه لايمكن للملقّبين ب- «الشبلى» أن يرووا بشكل مباشر عن الإمام السجّاد ۷، وهذا الحديث لا يشبه وزنه وطريقة البيان فيه ما هو المأثور عن الأئمّة المعصومين:، من هنا قيل: إنّه من الممكن أن تكون هذه الرواية من كلمات بعض العرفاء، نُسبت شيئاً فشيئاً إلى الإمام السجّاد ۷.

لكن مثل هذه الروايات المنسجمة مع سائر المعارف أو غير المخالفة لها، لا يشكِّل النقص فى السند فيها مانعاً عن الاستفادة من متنها الرفيع والنورانى.

ثانياً: لا يتساوى الترتيب الموجود فى هذه الرواية لمناسك الحجّ مع ترتيبها المعروف فى الفقه، ولعلّه يمكن القول: مبرّر ذلك أنّ الإمام السجّاد ۷ لم يكن فى هذا الحديث بصدد بيان أحكام مناسك الحجّ والتكاليف الظاهريّة للحجّاج.

أمّا متن الرواية فهو على الشكل التالى:

العالم الجليل الأوّاه السيّد عبدالله سبط المحدِّث الجزائرى فى شرح النخبة قال: وجدت فى عدّة مواضع أوثقها بخطّ بعض المشايخ الذين عاصرناهم مرسلًا، أنّه لمّا رجع مولانا زين العابدين ۷ من الحجّ استقبله الشبلى، فقال له: حججت يا شبلى؟ قال: نعم يا ابن رسول الله؛ فقال ۷: أنزلت الميقات وتجرّدت عن مخيط الثياب واغتسلت؟ قال: نعم. قال: فحين نزلت الميقات نويت أنّك خلعت ثوب المعصية ولبست ثوب الطاعة؟ قال: لا؛ قال: فحين تجرّدت عن مخيط ثيابك نويت أنّك تجرّدت من الرِّياء والنفاق والدخول فى الشبهات؟ قال: لا. قال: فحين اغتسلت نويت أنّك اغتسلت من الخطايا والذنوب؟ قال: لا؛ قال: فما نزلت الميقات ولا تجرّدت عن مخيط الثياب ولا اغتسلت.

ثمّ قال: تنظّفت وأحرمت وعقدت بالحجّ؟ قال: نعم؛ قال: فحين تنظّفت وأحرمت وعقدت الحجّ نويت أنّك تنظّفت بنورة التوبة

الخالصة لله تعالى؟ قال: لا؛ قال: فحين أحرمت نويت أنّك حرّمت على نفسك كلّ محرّم حرّمه الله عزّ وجلّ؟ قال: لا. قال: فحين عقدت الحجّ نويت أنّك قد حللت كلّ عقد لغير الله؟ قال: لا؛ قال ۷ له: ما تنظّفت ولا أحرمت ولا عقدت الحجّ.

قال له: أدخلتَ الميقات وصلّيت ركعتى الإحرام ولبّيت؟ قال: نعم؛ قال: فحين دخلت الميقات نويت أنّك بنيّة الزيارة؟ قال: لا؛ قال: فحين صلّيت الركعتين نويت أنّك تقرّبت إلى الله بخير الأعمال من الصلاة وأكبر حسنات العباد؟ قال: لا؛ قال: فحين لبّيت نويت أنّك نطقت لله سبحانه بكلّ طاعة وصمت عن كلّ معصية؟ قال: لا؛ قال ۷ له: ما دخلت الميقات ولا صلّيت ولا لبّيت.

ثمّ قال له: أدخلتَ الحرم ورأيت الكعبة وصلّيت؟ قال: نعم؛ قال: فحين دخلت الحرم نويت أنك حرّمت على نفسك كلّ غيبة تستغيبها المسلمين من أهل ملّة الإسلام؟ قال: لا؛ قال: فحين وصلت مكّة نويت بقلبك أنّك قصدت الله؟ قال: لا؛ قال ۷: فما دخلت الحرم، ولا رأيت الكعبة، ولا صلّيت.

ثمّ قال: طفتَ بالبيت ومسست الأركان وسعيت؟ قال: نعم؛ قال ۷: فحين سعيت نويت أنّك هربت إلى الله وعرف منك ذلك علّام الغيوب؟ قال: لا؛ قال: فما طفت بالبيت، ولا مسست الأركان، ولا سعيت.

ثمّ قال له: صافحت الحجر ووقفت بمقام إبراهيم ۷ وصلّيت به ركعتين؟ قال: نعم؛ فصاح ۷ صيحةً كاد يفارق الدُّنيا، ثمّ قال: آه آه؛ ثمّ قال ۷: مَنْ صافح الحجر الأسود فقد صافح الله تعالى، فانظر يا مسكين لاتضيّع أجر ما عظم حرمته وتنقض المصافحة بالمخالفة وقبض الحرام نظير أهل الآثام.

ثمّ قال ۷: نويت حين وقفت عند مقام إبراهيم ۷ أنّك وقفت على كلّ طاعة وتخلّفت عن كلّ معصية؟ قال: لا؛ قال: فحين صلّيت فيه ركعتين نويت أنّك صلّيت بصلاة إبراهيم ۷ وأرغمت بصلاتك أنف الشيطان؟ قال: لا؛ قال له: فما صافحت الحجر الأسود، ولا وقفت عند المقام، ولا صلّيت فيه ركعتين.

ثمّ قال ۷ له: أشرفتَ على بئر زمزم وشربت من مائها؟ قال: نعم؛ قال: نويت أنّك أشرفت على الطاعة وغضضت طرفك عن المعصية؟ قال: لا؛ قال ۷: فما أشرفت عليها، ولا شربت من مائها.

ثمّ قال ۷ له: أسعيتَ بين الصفا والمروة ومشيت وتردّدت بينهما؟ قال: نعم؛ قال له: نويت أنّك بين الرجاء والخوف؟ قال: لا؛ قال: فما سعيت، ولا مشيت، ولا تردّدت بين الصفا والمروة.

ثمّ قال: أخرجتَ إلى منى؟ قال: نعم؛ قال: نويت أنّك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟ قال: لا؛ قال: فما خرجت إلى منى.

ثمّ قال له: أوقفتَ الوقفة بعَرفة وطلعت جبل الرحمة وعرفت وادى نمرة ودعوت الله سبحانه عند الميل والجمرات؟ قال: نعم؛ قال: هل عرفت بموقفك بعرفة معرفة الله سبحانه أمر المعارف والعلوم وعرفت قبض الله على صحيفتك واطّلاعه على سريرتك وقلبك؟ قال: لا؛ قال: نويت بطلوعك جبل الرحمة أنّ الله يرحم كلّ مؤمن ومؤمنة ويتولّى كلّ مسلم ومسلمة؟ قال: لا؛ قال: فنويت عند نمرة أنّك لا تأمر حتّى تأتمر ولا تزجر حتّى تنزجر؟ قال: لا؛ قال: فعندما وقفت عند العلم والنمرات نويت أنّها شاهدة لك على الطاعات حافظة لك مع الحفظة بأمر ربّ السماوات؟ قال: لا؛ قال: فما وقفت بعرفة، ولا طلعت جبل الرحمة، ولا عرفت نمرة، ولا دعوت، ولا وقفت عند النمرات.

ثمّ قال: مررت بين العلمين وصلّيت قبل مرورك ركعتين ومشيت بمزدلفة ولقطت فيها الحصى ومررت بالمشعر الحرام؟ قال: نعم؛ قال: فحين صلّيت ركعتين نويت أنّها صلاة شكر فى ليلة عشر تنفى كلّ عسر وتيسّر كلّ يُسر؟ قال: لا؛ قال: فعندما مشيت بين العلمين ولم تعدل عنهما يميناً وشمالًا نويت أن لا تعدل عن دين الحقّ يميناً وشمالًا لا بقلبك ولا بلسانك ولا بجوارحك؟ قال: لا؛ قال: فعندما مشيت بمزدلفة ولقطت منها الحصى نويت أنّك رفعت عنك كلّ معصية وجهل وثبت كلّ علم وعمل؟ قال: لا؛ قال: فعندما مررت بالمشعر الحرام نويت أنّك أشعرتَ قلبك إشعار أهل التقوى والخوف لله عزّوجلّ؟ قال: لا؛ قال: فما مررت بالعلمين، ولا صلّيت ركعتين، ولا مشيت بالمزدلفة، ولا رفعت منها الحصى، ولا مررت بالمشعر الحرام.

ثمّ قال له: وصلتَ منى ورميت الجمرة، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصلّيت فى مسجد الخيف، ورجعت إلى مكّة وطفت طواف الإفاضة؟ قال: نعم؛ قال: فنويت عندما وصلت منى ورميت الجمار أنّك بلغت إلى مطلبك وقد قضى ربّك لك كلّ حاجتك؟ قال: لا؛ قال: فعندما رميت الجمار نويت أنّك رميت عدوّك إبليس وغضبته بتمام حجّك النفيس؟ قال: لا؛ قال: فعندما حلقت رأسك نويت أنّك تطهّرت من الأدناس ومن تبعة بنى آدم وخرجت من الذنوب كما ولدتك امّك؟ قال: لا؛ قال: فعندما صلّيت فى مسجد الخيف نويت أنّك لاتخاف إلّا الله عزّوجلّ وذنبك ولا ترجو إلّا رحمة الله تعالى؟ قال: لا؛ قال: فعندما ذبحت هديك نويت أنّك ذبحت حنجرة الطمع بما تمسّكت به من حقيقة الورع، وأنّك اتّبعت سنّة إبراهيم ٧ بذبح ولده وثمرة فؤاده وريحان قلبه وحاجه ظ أحييت سنّته لمَن بعده وقربةً إلى الله تعالى لمَن خلفه؟ قال: لا؛ قال: فعندما رجعت إلى مكّة وطفت طواف الإفاضة نويت أنّك أفضت من رحمة الله تعالى ورجعت إلى طاعته وتمسّكت بودّه وأدّيت فرائضه وتقرّبت إلى الله تعالى؟ قال: لا؛ قال له زين العابدين ٧: فما وصلت منى، ولا رميت الجمار، ولا حلقت رأسك، ولا أدّيت نسككك، ولا صلّيت فى مسجد الخيف، ولا طفت طواف الإفاضة، ولا تقرّبت. ارجع؛ فإنّك لم تحجّ.

فطفق الشبلى يبكى على ما فرّطه فى حجّه وما زال يتعلّم حتّى حجّ من قابل بمعرفة ويقين.

ص: ۱۸۱

فبعض الامور تحرم على الإنسان مؤقّتاً وحال الإحرام فقط. مثل قلع الشعر، والنظر فى المرآة، والصيد و ... لكن بعضها حرام مطلقاً مثل ما ورد فى حديث الشبلى من لزوم ترك تمام المعاصى حال الإحرام.

وعليه فالإحرام فى الميقات يعنى كأنّك تقول لله: «إلهى! إنّنى أتعهّد أن احرِّم على نفسى تمام المحرّمات، وأن أتركها دائماً وإلى الأبد».

حقيقة الإحرام

للإحرام أجزاء ثلاثة واجبة، يتحقّق الإحرام بوجودها، وهى:

۱- ارتداء قطعتى لباس من غير المخيط (للرجال).

۲- قصد الإحرام للحجّ أو العمرة.

۳- التلبية.

إنّ الإحرام كما جاء فى الكلام النورانى للإمام السجّاد (ع) يعنى مناداة الله: «إلهى! لقد قطعت تعلّقى بغيرك»، وعليه فهذا «العقد» والعهد، يلازمه «حلّ» الارتباط بغير الله سبحانه، فبدايةً تُقطع التعلّقات بغير الله ثمّ بعد ذلك يحصل الاتّصال والارتباط به سبحانه.

من الواضح جدّاً مدى ظهور التوحيد وتجلّيه البالغ فى الإحرام، مرفقاً بالتعرّى من كلّ زينة فى الحياة الدنيويّة، وكأنّ فى ذلك محاكاةً للحشر والمعاد اللّذين هما العودة إلى المبدأ.

ص: ۱۸۲

على هـذا الأسـاس، فمن لم يخـاطب- عنـد الإـحرام- الله بقلبه: «إلهى! غسـلت يـدىّ من غيرك، ولم أرتبـط إلّـا بولائك»، لم يـذهب للميقات حقيقةً ولم يحرم واقعاً! طبقاً لتوجيهات الإمام السجّاد (ع).

نعم المراد نفى الكمال، لا نفى الصحّة.

غسل الإحرام

سرّ اسـتحباب الغسـل فى الميقـات، كما يبيّن الكلام المنير للإمام السـجّاد (ع)، أن يقصـد الحاج به تطهير نفسه من الـذنوب والخطايا، فالنظافة فى الميقات تتعدّى تطهير البدن لتدلّل على تطهير القلب، وهذا أوّل سرّ من أسرار الحجّ.

وبناءاً عليه، يتعهّد الزائر مع غسل الإحرام:

أوّلًا: أن لا يلوّث نفسه بعد ذلك بالذنب والمعصية.

ثانياً: من الآن فصاعداً لا يخطو خطوةً إلّا فى طريق الطاعة.

ثالثاً: أن يجبر النواقص السابقة ويرمّمها.

إنّ غسل الإحرام سيكون بهذا القصد غسلًا للتوبة، وعند ذاك سيلبس زائر بيت الله الحرام لباس الطاعة بروحه وجسده الطاهرين.

صلاة الإحرام

تقرأ فى الميقـات صـلاة الإـحرام قبـل الغسل، ويفتى أكثر الفقهاء باسـتحباب هـذه الصـلاة، فيما يقول بعضـهم بالاحتياط الوجوبى فى أدائها، وبناءاً عليه من المناسب أن يوقع الإنسان الإحرام بعد الصلاة.

إنّ العازم على السفر إلى بيت الله الحرام يتوجّه إلى سرّ صلاة الإحرام ويقول:

ص: ۱۸۳

«إلهى! إنّنى أقتربُ منك بعمود دينك».

ارتداء لباس الإحرام

إنّ خلع الملابس المخيطة حال الإحرام يعنى الخروج من لباس المعصية، كما أنّ ارتداء لباس الإحرام غير المخيط ولا الملوّن، والمصنوع من الحلال والطهارة والنظافة، يعنى اشتمال لباس الطاعة.

السرّ الآخر لارتداء هذا اللِّباس الخاصّ هو تذكّر اليوم الذى يأتى فيه الإنسان بلباس غير مخيط، ألا وهو يوم الموت الذى يرتدى فيه الكفن، من هنا تتجلّى فى مناسك الحجّ ومراسيمه بعض أسرار القيامة، فسفر الموت والحضور فى عرصات القيامة يتجسّد فى نظر الحجيج.

كما أنّ ارتداء لباس الإحرام المتواضع والبسيط يزيل الامتيازات الظاهريّة الشكليّة بين الناس، ممّا يلغى أىّ أرضيّة لخلق رغبة فى التفاضل أو التفاخر أو التباهى.

النيّة

الحجّ (التمتّع- القران- الإفراد) والعمرة من العناوين القصديّة والقُربيّة، لهذا يجب فيه مراعاة شيئين وقصدهما: أحدهما عنوان العمل، وثانيهما: غاية الفعل وهدفه، ألا وهو التقرّب إلى الله تعالى.

كما أنّ كلّ الأركان والأجزاء الداخلة تحت هذا العنوان تصبح قصديّةً أيضاً، فيغدو امتثالها- كامتثال الحجّ والعمرة- باطلًا غير متحقّق إذا فقد قصد العنوان الخاصّ.

نعم، القصد الإجمالى الأوّل كاف؛ حيث يلقى بظِلاله على سائر الامور والأجزاء.

ص: ۱۸۴

ویجب فی الحجّ والعمرة- کسائر العناوین القصدیّة الاخری- المحافظة علی قصد العنوان حتّی آخر جزء من العمل؛ لأنّ العناوین القصدیّة لا یکفی فیها القصد بمجرّد الحدوث وفی مرحلته، بل لابدّ فیها أیضاً من القصد فی مرحلة البقاء.

وبعض الامور، یُضاف إلی کونها من الأعمال القصدیّة، أنّها من العبادات، فلا تتحقّق من دون قصد القُربة بنحو مستمرّ ودائم، فلا یمکن فیها عروض شائبة الریاء لا حدوثاً ولا بقاءاً؛ لأنّ ذلک یخلّ بخلوص قصد التقرّب؛ والحجّ والصلاة والعمرة والصیام من هذا النوع من الأعمال.

ویکفی فی قصد القربة أن ینوی الفاعل من بدایة فعله إلی نهایته أن ینجز هذا العمل بدافع الالتزام بالأوامر الإلهیّة، إنّ مثل هذا القصد عندما یستمرّ ویحفظ من عروض الریاء علیه یعدّ کافیاً فی تحقیق عبادیّة الفعل.

والإطاعة المذکورة لها غایة حتماً، لأنّ امتثال الأمر الإلهی لا یقع- غالباً- من دون دافع أو هدف، وغایة الامتثال هنا تتحدّد بقدر معرفة الممتثل وهمّته ونشاطه واطّلاعه؛ فإنّ الدرجة الوجودیّة لأیّ ممتثل تشکّل العلّة المعیّنة لمدی معرفته وقدر همّته واستعداده، کما أنّ مرتبة المعرفة ودرجة الهمّة تمثّلان علامةً دالّة علی الدرجة الوجودیّة.

إنّ الحجّاج والمعتمرین یقعون علی فئات ثلاث وفقاً لحدیث التثلیث المعروف (۱)؛ فإنّ عبادتهم إمّا من نوع عبادة العبید، أو عبادة الطالبین للمصلحة، أو عبادة الأحرار؛ لکن مع ذلک هناک مراتب لکلّ صفة من هذه الأوصاف الثلاثة: الخوف، والشوق، والحریّة، وأعلاها مرتبةً عبادة الأحرار، هناک یکون التعبّد الذی یحصل

۱- الکافی ۸۴: ۲.

ص: ۱۸۵

علیه الإنسان الکامل بطیّ مراحل قُرب الفرائض والنوافل (۱)، فیغدو هذا الإنسان محلًا للکون الجامع للحضرات الخمس، ومظهراً للإسم الأعظم فی تدبیر ما سوی الله بإذن الله.

بعض الناس یکون دافعهم العبادی راجعاً لما قد حصل ومضی، کالشکر لدفع نقمة أو رفعها، أو حدوث نعمة فیما مضی، وبعضهم صدق عبادتهم یعود للمستقبل؛ لدفع خطر أو جلب منفعة فیما سیأتی، وهذا یمتدّ إلی القیامة، حیث یسعی العابد للخلاص من نار الله العظیم الجبّار أو للوصول إلی جنّته العلیا. أمّا الفریق الثالث فدافعه من الامتثال أرفع من دفع ضررٍ أو جلب منفعة بلحاظ الماضی أو المستقبل، بل أرفع من تمام حالات الماضی والمستقبل؛ إنّهم یعبدون الله لأنّ الله عندهم أهلٌ للعبادة یلیق بها.

إنّ دافع الإنسان السالک الصالح من عباداته الواجبة والمستحبّة- لا سیما الحجّ والعمرة- أن یصبح خلیفة الله؛ فاولئک الذین یریدون الوصول إلی مقام الخلافة الرفیع، علیهم التحرّر- فی مناخ التربیة العبادیّة- من مضارّ المفاسد الحیوانیّة والشیطانیّة، حتّی یصلوا إلی قُلّة العلم وأوج العقل، فیکونون أهلًا لعنوان خلافة من لا عنوان له.

وبعد طیّ مقام «خلیفة الله» تصل النوبة لسفرٍ أرفع وأسمی، وهو أن یفوّض العبد تمام شؤونه وأوضاعه لمالکه الأصلی ومولیکه الحقیقی، حتّی یکون مولاه خلیفته؛ أی یکون الله خلیفة خلیفته.

من هنا لا یسند أیّ فعل فی هذا المقام الرفیع للعبد، بل یکون کما جاء فی التعبیر القرآنی: () (۲)، فالله هنا لایقول: إرم

۱- المصدر السابق: ۳۵۲.

۲- الأنفال: ۱۷.

ص: ۱۸۶

بإذن الله، وإنّما يقول: إنّ هذا الرمى الظاهرى لكَ هو رمى حقيقى واقعى من جانب الله.

إنّ الوقوع فى مقام خلافة الله معناه صيرورة العبد آيةً ومظهراً له سبحانه، كما أنّ جعل الله خليفةً للعبد معناه صيرورته قيّماً ووليّاً عليه، إنّ هذا المقام يأتى تحت ظلّ قرب النوافل، فمثل هذا العبد الذى يصبح تحت الولاية الإلهيّة، يتكلّم باللِّسان الإلهى، لا بلسانه، ويرى بعين الله، لا بعينه، ويسمع بسمع الله، لا بسمعه. (۱)

حقيقة النيّة

حقيقة النيّة هى قُرب العبد من ساحة قدس المولى، وهى لا تحصل دون انبعاث الروح والسير الملكوتى؛ إذ مجرّد تصوّر أنّ امتثال الحجّ والعمرة هو لله سبحانه، وإن صدق عليه أنّه نيّة بالحمل الأوّلى، إلّا أنّه غفلة بالحمل الشائع، فعندما لا يتخلّق الحاجّ والمعتمر فى حياته وسلوكه وسيرته بالأخلاق الإلهيّة، ولايرى أنّ هدفه النهائى من تمام شؤون حياته هو نيل رضا الله تعالى ولقائه، فإنّ نيّته على أرض الواقع تكون غفلةً؛ لأنّ قصد التقرّب لا يحصل دون تحقّق السير الملكوتى، ومجرّد تصوّر القصد المشار إليه لا يحقّق مصداق النيّة.

من هنا، ننتقل لموضوع آخر، وهو أنّ عباديّة أىّ فعل رهينة لقصد القُربة، وقصد القربة لا يتحقّق دون تحقّق القُرب، وحصول التقرّب قصدٌ بالحمل الأوّلى وغفلةٌ بالحمل الشائع .. إذاً فالتقرّب معتبر فى حقيقة أىّ أمر عبادىّ، تماماً كما جاء فى الصلاة: «الصلاة قربان كلّ تقىّ» (۲)، وقريب من هذا التعبير جاء فى الزكاة أيضاً، حيث

۱- الكافى ۳۵۲: ۲.

۲- الكافى ۲۶۵: ۳.

ص: ۱۸۷

ورد: «إنّ الزكاة جُعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام». (۱)

من هنا، لزم فى الحجّ والعمرة أن يُمزجا بالتقرّب من حيث كونهما عبادة؛ والتقرّب لا يحصل من دون السفر الباطنى.

ومن خلال ما تقدّم يمكن ترتيب مراتب نيّة القربة فى ظلّ الأسفار الأربعة، والمعيّن لمدارج هذا السير، ومعارج هذا السفر، ومعالى هذا الصعود، ومراقى هذا العروج .. هو معرفة السالك وهمّة الناسك.

التلبية

التلبية من الأجزاء الواجبة فى عقد الإحرام، وهى ذِكرٌ خاصّ يستحبّ تكراره أيضاً بعد الإحرام حتّى الوصول إلى مكان معيّن أو متخطياً زماناً خاصّاً، إنّ تكرار التلبية عند كلّ مرتفع ومنخفض، وعند كلّ ارتفاع وانحدار يعنى تجديد الإنسان فى كلّ آن عهده مع إلهه تبارك وتعالى.

ولعلّ السرّ فى كون الرسول (ص) هو أعظم مَظْهَر للأسماء الإلهيّة أنّه كان أفضل شخص حجّ، وفهم أسرار الحجّ، لا سيما التلبية، إنّ حجّ الرسول الأكرم كان يوازى معراجه، تماماً كما يقول الإمام الصادق (ع) فى بيانه لعلّة إحرام رسول الله (ص) من مسجد الشجرة: «... لأنّه لمّا اسرى به إلى السماء وصار بحذاء الشجرة، نُودى: يا محمّد! قال: لبّيك، قال: ألم أجدك يتيماً فآويتك، ووجدتك ضالًّا فهديتك؟ (۲)، فقال النبىّ (ص): إنّ الحمدَ والنِّعمة والمُلك لك، لا شريكَ لك ...». (۳)

رهبانيّة أمّة الإسلام

۱- المصدر السابق ۳۷: ۵.

۲- انظر: الضحى: ۶- ۷.

۳- وسائل الشيعة ۲۲۴: ۸- ۲۲۵.

ص: ۱۸۸

یقول رسول الله (ص): «ابدِلنا بها [الرهبانیّة] الجهادَ والتکبیر علی کلّ شرف». (۱)

إنّ تعبیر «التکبیر علی کلّ شرف» ناظر إلی ذکر التلبیة الذی یردّده زوّار بیت الله الحرام عند کلّ مرتَفَع، بصوت عال واثق: «لبّیک» فهذه هی الرهبانیّة الممدوحة والمحمودة التی دعا الله سبحانه عباده إلیها، قال تعالی: (). (۲)

إنّ احترام الله المأمور به فی هذه الآیة یعنی أخذ حریم اعتقادی له، بمعنی أنّ علی الإنسان التواضع والخشوع فی المحضر الإلهی الذی لا یری غیره، ولا یعتمد علی ما سواه، ولا یرتبط قلبه بما دونه، وهناک یعلن القول: لقد لبّیت أمرک وأتیتُ لمحضرک «لبّیک ...».

مثل هذا الحاجّ هو راهب الله، وهذا هو الحجّ الذی یشمل الرهبانیّة الممدوحة والمحمودة، التی دعینا إلیها. (۳)

تجلّی التوحید فی التلبیة

حول ذکر التلبیة: «لبّیک اللّهُمَّ لبّیک، لبّیک لا شریکَ لک لبّیک، إنّ الحمدَ والنِّعمة لکَ والمُلک، لا شریکَ لک لبّیک، لبّیک ذا المعارج لبّیک ...»، یقول الإمام الصادق (ع): «... واعلم أنّه لابدّ من التلبیات الأربع التی کُنّ فی أوّل الکلام، وهی الفریضة، وهی التوحید، وبها لبّی المرسلون، وأکثر من ذی المعارج؛ فإنّ رسول‌الله (ص) کان یُکثر منها، وأوّل مَن لبّی إبراهیم (ع) ...». (۴)

۱- المحجّة البیضاء ۱۹۷: ۲.

۲- البقرة: ۴۰.

۳- بحار الأنوار ۲۷۷: ۱۴.

۴- وسائل الشیعة ۵۳: ۹.

ص: ۱۸۹

وفی نهایة جوابه عن سؤال حول «إشعار البدن» (۱) الذی یعدّ بمثابة التلبیة فی بعض أقسام الحجّ ... یقول الإمام الصادق: «... ثمّ قُل: بسم الله، اللّهُمَّ منک ولک، اللّهُمَّ تقبّل منّی». (۲)

إنّ هذا الحدیث الشریف، مثل دعاء الإحرام: «اللّهُمَّ إنّی أسألُکَ أن تجعلنی ممّن استجاب لک، وآمن بوعدک، واتّبع أمرک، فإنّی عبدُک، وفی قبضتک، لا أوقی إلّا ما وقیت، ولا آخذ إلّا ما أعطیت» (۳) ناظرٌ إلی ما سبق أن تحدّثنا عنه حول تمثّل التوحید فی الحجّ، حیث المقصود من الحجّ لقاء الله، وطرد کلّ ما سواه.

إنّ التلبیة جواب خالص لله سبحانه، من هنا فهی تُذیب کلّ الخسائس والانحطاطات، وتطرد کلّ شیطان خبیث متمرّد، تماماً کما یقول الإمام الصادق (ع) حول البیداء (۴) التی لبّی منها رسول الله (ص): «ها هنا یخسف بالأخابث». (۵)

طرد الجاهلیّة القدیمة والحدیثة

یطرد الحجّ بتلبیته الخاصّة المذکورة کلّ جاهلیّة، ویکسر کلّ صنم أو علامة للشرک الجاهلی، ویحطّم کلّ أنواع الباطل القدیمة والجدیدة، وبناءاً علیه، فالحجّ شفاءٌ

۱- ینقسم الحجّ إلی ثلاثة أقسام: تمتّع، وإفراد، وقران، ولا ینعقد إحرام کلّ من العمرة المفردة، وعمرة التمتّع، وحجّ التمتّع، وحجّ الإفراد، إلّا بالتلبیة، أمّا فی حجّ القران فالحاجّ مخیّر بین التلبیة والإشعار أو التقلید، والإشعار یختصّ بالإبل المسوقة للأضحیة، فیما یشترک التقلید بینها وبین سائر أقسام الأضحیة. وفی الإشعار تشقّ بشکل بسیط الجهة الیُمنی لسنام الإبل، ثمّ یمسح الدم الخارج علی بدن الإبل. أمّا التقلید فیعنی تعلیق حذاء فی رقبة الهدی وهو الحیوان الذی یسوقه الحاج معه للأضحیة. ولمزید من الاطّلاع یمکن مراجعة کتب مناسک الحجّ.

۲- وسائل الشیعة ۱۹۹: ۸.

۳- المصدر السابق ۲۳: ۹.

۴- البیداء: منطقة قریبة من مسجد الشجرة الکافی ۲۴۵: ۴، ۳۳۳- ۳۳۴، وقد جاء فی بعض الروایات أنّه یخسف بجیش الکفر فی آخر الزمان فی هذه المنطقة حال توجّهه نحو مکّة بحار الأنوار ۱۱۹: ۵۲، ۱۸۶، ۱۹۱، ۲۰۳- ۲۰۴.

۵- وسائل الشیعة ۴۹: ۹.

ص: ۱۹۰

للقلوب من أمراض الشرك أو ما يتلوّث به، كالرِّياء والهوى والبخل والعُجب و ...

ولتوضيح هذه النقطة نذكّر بأنّ التلبية فى الحجّ فى العصر الجاهلى كانت نداءً للشرك وصرخةً للوثنيّة؛ لأنّ المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم: «لبّيك اللّهُمَّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك، إلّا شريكٌ هو لك، تملكهُ وما مَلك» (۱)؛ وبهذا الكلام كانوا يثبتون لله الشريك، رغم كون هذا الشريك مملوكاً لله نفسه!

أمّا التلبية فى الإسلام، فهى تضرّع واستغاثة بالمحضر الواحد المحض وصرخة صاعقة ضدّ مختلف أنواع الشرك الجلى أو الخفىّ، وهذا أمرٌ واضح لكلّ من شاهد صرخات التلبية فى الصحراء القاحلة، وداوم على ذكرها عند كلّ منخفض ومرتفع من الأرض.

إنّ نصوص أهل البيت: شاهدٌ على ما قلناه، ومن بينها أنّ أىّ شخص يعمل بسنّة الجاهليّة، أو يتلوّث بالمال الحرام، فإنّه يقال له عندما يلبّى: «لا لبّيك عبدى، ولا سعديك» (۲)، من هنا يقول الإمام الكاظم (ع): «إنّا أهل بيت، حجّ صرورتنا، ومهور نسائنا، وأكفاننا، من طهور أموالنا». (۳)

إنّ الحجّ صرخة ضدّ الجاهليّة، وهذا ما يجعلنا نفهم السبب فى أنّ الروايات الواردة فى تلبية إبراهيم الخليل وموسى الكليم وخاتم النبيّين: أكثر بكثير من الروايات الواردة حول سائر الأنبياء والرسل. (۴)

سرّ التلبية

۱- الكافى ۵۴۲: ۴.

۲- وسائل الشيعة ۱۰۲: ۸.

۳- المصدر السابق: ۱۰۳.

۴- المصدر السابق ۴۷: ۹- ۴۹، ۵۵.

ص: ۱۹۱

الإحرام والتلبيـة استجابة لنـداء الوحى والـدعوة الإلهيّـة، من هنا يقع الحجّاج الحقيقيّون عنـد التلبية فى خوف عقلى مهول، يغيّر لونهم فيصير مصـفرّاً، ويأخذ بأصواتهم، ويدهشون ويقولون: نحن نخشـى أن يُقال لنا بأنّكم لم تلبّوا نداء الحجّ على نحو الحقيقة، «لا لبّيك ولا سعديك». (۱)

إنّ الحـاج يعقـد فى الحقيقـة عهـداً مع الله عنـدما يلبّى، مضـمونه أنّنى لن أنطق بعـد الآـن إلّـا بطاعتـك، وسوف أقفـل فمى عن النطق بالمعاصى كلّها. (۲)

إنّ حجم اللِّسـان قليـل، لكنّ جرمه كبير وكثير، والتلبيـة تطهير للِّسـان عن كـلّ معصـية ترتبط به، من هنا كان اللِّسان الزائر لبيت الله هو اللسان الطاهر.

من هـذا كلّه يظهر أنّ سرّ التلبيـة هو إطلاق اللِّسان بالحقّ والطاعـة، ومنعه وتطهيره من مقولات الباطل والمعصـية، وهذا ليس فى زمان الحجّ والعمرة فحسب، بل و إلى الأبد.

مراتب التلبية والملبّين ودرجاتهما

تتفاوت مراتب الملبّين طبقاً لتفاوت مراتب التلبية، فبعضـهم يلبّون إعلان الأنبياء، وبعضـهم يلبّون دعوة الله سـبحانه، بعضـهم يقول: إنّنا نسـتجيب لمن دعانـا إلى الله، وقـد جئنـا نقول: «لبّيك داعى الله، لبّيك داعى الله» (۳)، وهؤلاـء هم المتوسّـطون من زوّار بيت الله حيث أجابوا دعوة إبراهيم الخليل، الذى دعا إلى الحجّ بأمر من الله سبحانه: (). (۴)

۱- بحار الأنوار ۱۶: ۴۷، و ۳۳۷: ۶۴.

۲- انظر حديث الشبلى المتقدِّم.

۳- الكافى ۲۰۶: ۴.

۴- الحجّ: ۲۷.

ص: ۱۹۲

وأعلى من هؤلاء، اولئك الذين يسمعون دعوة الله: () (۱)، ويستجيبون لهذه الدعوة.

نعم، إنّ جواب خليل الله هو جوابٌ لله سبحانه، ولا جواب لله من دون جواب دعوة الخليل، إلّا أنّ التفاوت يقع فى شهود الزائر العارف لبيت الله، فكلّ إنسان يقع فى درجة هويّته ومرتبة إيمانه، ويعرف الله طبقاً لها، ويمضى معه الميثاق كذلك، كما يمتثل أوامره بالطريقة عينها.

بعضهم يعرفون الله بالواسطة، وبعضهم مثل الأنبياء: يعرفونه بلا واسطة، ويعقدون معه العهد، ويعملون بأحكامه.

إنّ الذى يظهر فى نشأة الشهادة هو حصيلة عهد مرتبة الغيب، وبناءاً عليه، رغم أنّ الجميع عقدوا العهد مع نداء الله الجليل سبحانه، إلّا أنّ بعضهم كان بواسطة الخليل وبعضهم بلا واسطة، ولهذا لم تكن التلبية واحدة عند الجميع، بل يمكن أن يقول شخص: «لبّيك ذا المعارج لبّيك»، إلّا أنّه فى واقع الأمر يلبّى ()، ويُجيب دعوة الخليل، لا دعوة الجليل، فالتلبية فى مقام الظاهر تابعة لاستجابة الدعوة الإلهيّة فى عالم الميثاق الإلهى.

وتجليةً لهذه النقطة، نلاحظ أنّ الناس جميعاً يلبّون مرّتين، وهاتان المرّتان تقعان فى طول بعضهما، إنّ هذه الإجابة والاستجابة ليست أمراً تاريخيّاً حتّى يكون قد مضى وانتهى، وإنّما هى امتداد واستمرار.

لقد تحدّث الله سبحانه عن الاولى منهما بقوله: (). (۲)

أمّا الثانية؛ فكانت أمر الله لإبراهيم الخليل بإعلان الدعوة العامّة للحجّ: (

۱- آل عمران: ۹۷.

۲- الأعراف: ۱۷۲.

ص: ۱۹۳

)، وقد وصلت هذه الدعوة للناس جميعاً حتّى للّذين هم فى أصلاب آبائهم، واستجابوا لهذه الدعوة.

يقول الإمام الصادق (ع) فى هذا المضمار: «لمّا أُمِرَ إبراهيم وإسماعيل (ع) ببناء البيت وتمّ بناؤه، قعد إبراهيم على ركن، ثمّ نادى: هلم الحجّ، هلم الحجّ ... فلبّى الناس فى أصلاب الرجال: لبّيك داعى الله، لبّيك داعى الله عزّ وجلّ ... فمَن لبّى عشراً يحجّ عشراً ... ومَنْ لبّى أكثر من ذلك، فبعدد ذلك، ومَنْ لبّى واحداً حجّ واحداً، ومَن لم يلبِّ لم يحجّ». (۱)

إنّ مشهد التلبية لدعوة الخليل تشابه مشهدها لدعوة الله سبحانه فى عالم الذرّ والذرّية، فكما أنّ القضيّة مستمرّة فى المشهد الأوّل، كذلك هى فى المشهد الثانى؛ لأنّ حديثنا هنا عن استجابة الفطرة والروح، لا عن استجابة الذرّات فى الأصلاب والأرحام بوصف ذلك حدثاً تاريخيّاً.

إنّ تفاوت المراتب المذكورة للملبّين، حدثٌ يتكرّر فى الكثير من القضايا الدينيّة الاخرى، مثل تلاوة القرآن الكريم وتلقّى السلام الإلهى.

محرّمات الإحرام

الحجّ مجموعة منتظمة من سلسلة عباديّة خاصّة، تستحقّ كلّ حلقة فيها تأمّلًا ونظرة؛ فكما تحرم امور عديدة بأداء تكبيرة الإحرام فى الصلاة وتصبح غير منسجمة مع العبادة، لتظلّ محرّمةً حتّى يؤدّى المصلّى التسليم نهاية الصلاة، كذلك الحال فى الحجّ والعمرة، فبالإحرام والتلبية تحرم الكثير من الامور (۲) التى يكون البُعد التعبّدى فى

۱- الكافى ۲۰۶: ۴- ۲۰۷.

۲- محرّمات الإحرام على ثلاثة أقسام بلحاظ المكلّف هى:

أ- المحرّمات المشتركة بين الرجال والنساء، وهى: ۱- قلع الشعر عن البدن، أو بدن الآخرين سواء المحرم وغيره. ۲- إخراج الدم من البدن. ۳- قصّ الأظافر. ۴- قلع الأسنان. ۵- قلع شجر الحرم أو نباته.

۶- حمل السلاح إلّا فى حال الضرورة. ۷- الصيد إلّا مع الخوف منه. ۱۸- أنواع الاستفادة من الطِّيب.

۹- الاكتحال. ۱۰- النظر فى المرآة. ۱۱- الجدال. ۱۲- دهن البدن. ۱۳- العقد سواء الدائم أم المنقطع، وكذلك الشهادة على العقد.

۱۴- الاستمناء. ۱۵- العمل الجنسى مطلقاً؛ مثل النظر بشهوة، أو التقبيل، أو الجماع، وأىّ لذّة جنسيّة. ۱۶- لبس الخاتم للزينة وكذلك الحنّاء. ۱۷- الفسوق، وهو الكذب والافتخار والفحش والتباهى. ۱۸- قتل حشرات البدن أو رميها.

ب- المحرّمات الخاصّة بالرجال، وهى:

۱- تغطية الرأس. ۲- التظليل حال الحركة والسفر. ۳- لبس المخيط. ۴- لبس الحذاء أو الجوراب الساتر لظهر القدم بتمامه.

ج- المحرّمات الخاصّة بالنساء، وهى:

۱- تغطية الوجه. ۲- لبس الحلىّ للزينة.

وبناءاً عليه، فمحرّمات الإحرام عددها أربعة وعشرون. وللاطّلاع على خصائصها وتفصيل أحكامها، وكذلك كفّاراتها وما يترتّب على عدم مراعاتها، يمكن مراجعة كتب مناسك الحجّ.

ص: ۱۹۴

اجتنابها قويّاً، والاختبار الإلهى فيها كذلك، وبهذا تكون دورة الإحرام رحلةً تعبّديّة محضة وامتحاناً صرفاً. (۱)

وبالقيام بمناسك الحجّ والوصول إلى مراسم التحليل ينفكّ عقد الإحرام، ويخرج المحرم من دائرة المنع فى هذه المحرّمات.

إنّ الإحرام ورعايـة حدوده يحرّر الروح من أىّ قيد لا سـيما قيود الشـهوة والغضب، ويطهّر العقل من كلّ فكر باطل، وينجّى القلب من الخيـال الغافـل؛ لأـنّ كلّ ما يوجب ظلمـة الروح وتلوّن النفس قـد حرّم حال الإحرام، حتّى تكون الروح الطاهرة والنفس الخالصـة أهلًا للطواف فى بيت الله، ذلك البيت المنزّه عن كلّ لوث وقذارة.

بيت الله هو محور الحريّـة ومـدارها، فلا يحقّ للمحرم الآتى لزيارته أن يأسـر فيه الصـيد، أو يساعد على أسـره، أو ينفّره أو يدلّ الصـيّاد عليه؛ لأنّ هذه الأعمال كلّها تتنافى مع روح الرغبة فى الحريّة، وما لم يُحرِّر الإنسان نفسه فلن يكون لديه

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۹۲ القاصعة، الفقرة: ۵۳- ۶۵.

ص: ۱۹۵

صلاحيّة الطواف فی محلّة الحريّة.

من هـذا كلّه، وضع الله سبحانه مكاناً مقـدّساً بظروف مناطقيّـة غير ملائمـة ليجعله مركزاً للاختبار فی سـياق إيجاد التناغم بين التكوين والتشـريع، حتّی يتمكّن الخلق من التخلّص من الملوّثات والتعلّقات والأقـذار والتطهّر من الخبائث والنجاسات فی رياضاتهم الممدوحة التی تتمّ من خلال محرّمات الإحرام، وكذلك عبر مناسك الحجّ والعمرة. (۱)

وكـأنموذج علی الاختبـار المـذكور، جری تحريم الاسـتفادة من العطور والروائـح الجميلـة حـال الإحرام من جهـة، كما منع- من جهة اخری- من إغلاـق الأـنف ووضع اليـد عليه عنـدما يحتـكّ الإنسـان حال أداء مناسك الحـجّ والعمرة أو يجالس أشـخاصاً تفوح منهم الرائحة الكريهة، وكذلك عند العبور من مكان ذبح الأضاحی ... إنّ مثل هذه الامور تكسر أنانيّة الإنسان وعنجهيّته وكبرياءه وتفاخره، بحيث تحوّله بعد إنجاز أعمال الحجّ والعمرة إلی عبد حرّ مُنعتق لله.

هـذه الـدورة البانيـة للإنسـان، تؤثّر تـأثيراً كبيراً فی المجتمع، فاولئـك الـذين لم‌يكونوا ليتورّعوا عن أكـل العظايـة فی عصـر الجـاهليّة الوحشـی، وكانوا يتسابقون فی اصـطياد هذا الحيوان، أصبحوا الآن يترفّعون عن ظبی الصحراء، حتّی تمكّنوا فی عصر التمدّن الإسلامی من الانتصار علی كلّ الميول والرغبات الذاتيّة بتأثير من الأوامر الإلهيّة.

لـدورة الإحرام الغنيّـة بالمُعطيات تأثيرٌ كبير علی بناء الشخصـيّة الإنسانيّـة، تشاهـد نتائجها العمليّـة الرائعـة فی المجتمع المعتقد والملتزم بمحتوی الحجّ والزيارة.

۱- المصدر السابق.

ص: ۱۹۶

الفصل الرابع الطواف

أدب الدخول إلى المسجدالحرام

على الحاج- طبقاً للبيان النورانى للإمام السجّاد (ع)- أن يتذكّر لحظة دخوله إلى الحرم و قبل كلّ شىء حرمة غيبة أهل الإسلام، و عليه أن يبعث هذا القصد من أعماقه عندما يقول: إلهى! إنّنى لن‌أستغيب أحداً من المسلمين أو أفتّش عن عيوبه.

على الزائر عند دخوله مكة المكرمة أن يقصد هذه النيّة: إلهى! لقد أتيت إلى هنا قاصداً لك (۱)، و لم آتِ لا- بقصد التجارة، و لا الشهرة، ولا السياحة، ولاالفرجة، ولاالنزهة، ولا أمثال ذلك.

يستحبّ لزائر بيت الله الدخول إلى المسجدالحرام من باب «بنى‌شيبة» و من حيث كان الحج توحيداً أصيلًا خالصاً لا شرك فيه، بل تطرد عنده الأصنام كلّها، كان لهذا الاستحباب سرّ مرتبط بهذا الأمر، و هذا السرّ هو ما يذكره لنا الإمام الصادق (ع) عند ما يقول: «إنه موضع عبد فيه الأصنام و فيه أخذ الحجر الذى نحت منه هُبَل الذى رمى به على (ع) من ظهر الكعبة لمّا علا ظهر رسول‌الله (ص) فأمر به، فدفن عند باب بنى‌شيبة، فصار الدخول إلى المسجد من باب بنى‌شيبة سنّة لأجل ذلك». (۲)

۱- أنظر حديث الشبلى.

۲- وسائل‌الشيعة ۳۲۳: ۹.

ص: ۱۹۷

هذا المنهج، أی وضع هبل تحت أقدام المخطین لیُداس، یمثل أنموذجاً راقیاً لنسیان الشرک، و سحقه، و إسقاطه إلی أدنی الأشکال؛ فعندما یتجلّی الحق لایبقی مجال للباطل السابق أو اللاحق، قال تعالی: (قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما یُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما یُعِیدُ). (۱)

أدب الحضور

العالم کلّه محضر الله سبحانه، فله تعالی علم شهودی حضوری بکلّ ذرّات العالم و ما هو أقلّ من ذلک، و لا أفول لأی شیء عن مجال أفق شهوده، قال سبحانه: (وَ ما تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا کُنَّا عَلَیْکُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِیضُونَ فِیهِ وَ ما یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِکَ وَ لا أَکْبَرَ إِلَّا فِی کِتابٍ مُبِینٍ). (۲)

بل حتی أعضاء الإنسان، و جوارحه و ضمیره، یعدّ شاهداً و جاسوساً علیه «إنّ الله سبحانه و تعالی لا یخفی علیه ما العباد مقترفون فی لیلهم و نهارهم لطف به خبراً و أحاط به علماً؛ أعضاؤکم شهوده، و جوارحکم جنوده، و ضمائرکم عیونه، و خلواتکم عیانه. (۳)

فعلی الإنسان فی کلّ حالاته أن یراعی أدب الحضور فی المحضر الإلهی و کما یراعی الأدب فی مستحبات دخول المساجد و المکوث فیها (۴)، کذلک لابدّ أن یراعی

۱- سبأ: ۴۹.

۲- یونس: ۶۱.

۳- نهج‌البلاغة، الخطبة: ۱۹۹، الفقره: ۱۳- ۱۴.

۴- بحارالأنوار ۱: ۸۱- ۲۷؛ لقد کان الإمام المجتبی ۷ کلّما قام إلی الوضوء ارتعدت فرائصه و تغیّر لونه، و کان یبرّر ذلک بأنه لابدّ أن‌یکون الإنسان کذلک فی المحضر الإلهی، و عندما کان یصل إلی المسجد کان یقول: «إلهی ضیفک ببابک، یا محسن قد أتاک المسیء، فتجاوز عن قبیح ما عندی بجمیل ما عندک یا کریم». بحارالأنوار ۳۳۹: ۴۳

ص: ۱۹۸

الأدب أكثر فأكثر فی المساجد ذات الحرمة الخاصّة، و بالأخص فی حریم الكعبة التی هی أصل المساجد كافة، و التی تسند إلی الله تعالی بالإسناد التشریفی، حیث لم‌یسند أیّ بیت إلیه غیرها، حین قال: (بَیْتِیَ). (۱)

ینقل أهل المعرفة عند بیانهم لبعض أسرار الحج، قصصاً قد لاتكون لها واقعیة و حقیقة خارجیة، إلّا أن روحها وجوهرها حقّ، ومن ذلك ما قیل عن أحد أهل القلوب، أنّه دخل علی أحد الزعماء بلباس عتیقة متسخة فقالوا له: أتدخل بهذا اللباس علی شخص بهذا المقام والمنزلة؟ فأجاب: إنّ الحضور أمام الكبار بلباس متسخة لیس عیباً، إنما العیب لو عاد شخصٌ من عند هذا الكبیر بلباس بالیة قذرة، ذلك أن هذا یعنی أنه لم یره لائقاً بل ردّه، ولم یمنحه من عطایاه وهدایاه شیئاً.

إنّ مقصود قاصّ هذه القصّة أنّ المشكلة لیست فی الحضور بین یدی الله تبارك و تعالی محمّلین بالذّنوب، مادّین له أیدینا الخاطئة، إنّما العود من محضره سبحانه غیر مقبولین لدیه، و لا مغفوری الذنوب، بل ملطّخین بالآثام لما فعلناه فی سالف الأیام.

كذلك قالوا: دخل عارفٌ علی صاحب منصب و مكانة، فسألوه: ما الّذی أتیت به؟ فأجاب: لایسأل القادم علی العظیم: ماذا حملت معك؟ و إنّما یسأل: ما الذی تریدُ؟ فلو كان لدیه شیء لم یأت إلیه.

لا یمكن لأحد أن‌یقول: لقد أتیتُ إلی الله تعالی ملیئاً بالعلم و العمل، ممتلئةً جعبتی بالعمل و الجهد، لأنّ ذلك كلّه ملك له، قال سبحانه: (وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) (۲)، فلایذهب أحد إلی المحضر الإلهی بید ممتلئة، من هنا لایسأل الذاهب إلی

۱- البقرة: ۱۲۵؛ الحج: ۲۶.

۲- النحل: ۵۳.

ص: ۱۹۹

بیت‌الله الحرام- بیت الضیافة و الکرم الإلهی (۱)-: ما أحضرت؟ و إنّما یقال له: ماذا ترید؟ و لو قالوا له السؤال الأول لکان المقصود ما هو مقدار حاجتک؟ و ما الذی أحضرته من حاجتک حتی تأخذ مقداره؟

هذا کله مع الانتباه إلی أن الزائر یطلق لسانه عند حضوره فی بیت الحق قائلًا: «أللهم إنّ البیت بیتک، و الحرم حرمک، و العبد عبدک، هذا مقام العائذ بک من النّار» (۲)، تماماً کما یقول الإمام السجّاد (ع) بین یدی الله: «سیدی عبدک ببابک، أقامته الخصاصة بین یدیک». (۳)

الطواف

الطواف أحد أرکان الحج الهامة، و مظهرٌ من مظاهر تجسّد التوحید فی الحج، لأنّ الطواف حول الکعبة و إن کان بمنزلة الصلاة، «الطواف بالبیت صلاة» (۴)، إلّا أنه تتجلّی فیه العبادة الخاصة (فَأَیْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) (۵)، علی خلاف الصلاة التی یتحتم فیها الأمر الإلهی: (وَ مِنْ حَیْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ). (۶)

الکعبة تنزّل العرش و تمثله، تقع فی محاذاة العرش الإلهی و البیت المعمور (۷)، فإذا طاف بها العبد بشکل لائق فإنّه یصعد إلی البیت المعمور فی عالم المثال، وإذا ما أتمّ وظائف تلک المرحلة و وفی بحقوقها، فإنّه یرقی إلی مقام العرش الإلهی.

و الأرفع من ذلک، مقام العترة الطاهرة: الّتی تمنح الفخار لحقیقة الکعبة، لأنّ

۱- وسائل‌الشیعة ۸۴: ۳، و ۴۵۸: ۱۰.

۲- بحارالأنوار ۳۴۲: ۹۶، و بالمضمون عینه ما فی الکافی ۴۰۱: ۴- ۴۰۲.

۳- مفاتیح الجنان، دعاء أبی حمزة الثمالی.

۴- عوالی اللئالی ۲۱۴: ۱.

۵- البقرة: ۱۱۵.

۶- البقرة: ۱۴۹.

۷- بحارالأنوار ۵۷: ۹۶؛ و انظر: المصدر السابق، هامش صفحة ۸۶.

ص: ۲۰۰

عبادتهم و طوافهم یدور حول «سبحان الله» و «الحمد لله» و «لا إله إلّا الله» و «الله أکبر».

و لکی یرفع الله تعالی الإنسان إلی مستوی الملائکة، لتظهر علیه آثارهم، طلب منهم الصیام کی یتزهوا- کالملائکة- و یحذروا الأعمال الحیوانیة ...

إذا کان هذا هو الحال ... فإنه جعل الکعبة موازیةً فی الأرض للبیت المعمور، و تمثلًا لعرشه سبحانه، فأمر العباد بالطواف حولها، و الهمهمة فی ذلک بذکره سبحانه، و طلب المغفرة منه لنفسه و الآخرین، و بهذا تحصل المشابهة مع ملائکة العرش الإلهی و الاقتداء (۱)؛ لأنّ الملائکة تطلب المغفرة للمؤمنین و التسبیح للذات المقدسّة بطوافها حول عرش الحق سبحانه (۲)، و لا سیّما بعد الاختبار الذی خضعت له عند خلق آدم (ع) و السجود له. (۳)

ملاحظة

لکل اسم من أسماء الله الحسنی ظهور خاص به، یکون موجداً لأثر خاصّ بتلاقح الأسماء الأخری، إنّ العدد والرقم والکمیّة المتجلّیة فی رکعات الصلاة، وتلبیة الإحرام، وأشواط الطواف، والسعی، ورمی الجمرات ... کلّ واحدٍ من هذه یمکن أن یکون مظهراً لتزاوج الأسماء الإلهیة بحیث یعطی أثراً ضمن هندسة خاصّة، تماماً کما کان فی عدد الأربعین رسالة خاصّة، فإذا کان لرقم (ع) شواهده الخاصّة، مثل تکبیرة بدایة الصلاة، و عدد أشواط الطواف و السعی، فإن لعدد ثمانیة، الذی تغلب علیه

۱- المصدر السابق ۹۶: ۶- ۹۷، و انظر کذلک: ۲۹- ۳۰، کذلک صفحة ۱۱۳ بمتنها و هامشها.

۲- سجود الملائکة لآدم لم یکن طاعة له ولا عبادة، وإنّما طاعة لله تعالی وعبادة، وتکریماً وتحیّة وتعظیماً لآدم.

۳- بحارالأنوار ۷۷: ۶۵؛ مع الإشارة لقوله تعالی: الَّذِینَ یَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَیُؤْمِنُونَ بِهِ وَیَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِینَ آمَنُوا .... غافر: ۷.

ص: ۲۰۱

الصبغة الرحمانیة علائمه الخاصة به أیضاً؛ بمعنی أنه إذا کانت أبواب جهنّم ثمانیة (۱)، و حملة العرش یوم القیامة ثمانیة: (وَ یَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّکَ فَوْقَهُمْ یَوْمَئِذٍ ثَمانِیَةٌ) (۲)

، و أمثال ذلک، فإنّه لا شکّ فی وجود سرّ و رمز فی ذلک، مختفٍ و مستور عن المحجوبین فی نشأة الکثرة، مع انکشافه لشاهدی ساحة الوحدة.

کما أنّ وضع الکعبة علی الجانب لا فی المقابل عند الطواف، وکذلک جعل هذا الجانب هو الأیسر لا الأیمن مستنداً أیضاً إلی سرّ یمکن أن یکون الإطلاع علیه صوم الزائرین أو رزق کتاب أسرار الحج و رموزه.

الطواف الجاهلی

کان المشرکون فی العصر الجاهلی یطوفون حول الکعبة، إلّا أنّ القرآن وصف عبادتهم فی أطراف الکعبة بالصفیر و ضرب الکفّ، حیث قال: (وَ ما کانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَیْتِ إِلَّا مُکاءً وَ تَصْدِیَةً). (۳)

إنّ من یضع الکتاب الإلهی خلفه، و یضع الأصنام مکان الله سبحانه، هو مصداق (کَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) (۴)

، و کلام البهائم مبهم لا مبیّن، لهذا فکلّ ما یصدر من فمهم إنّما هو بمثابة الصفیر، و حیث إنّ تمتمة الشرک لیست بیاناً إنسانیاً، عبّر القرآن عن طوافهم المشوب بالشرک بالصفیر لا البیان، من هنا فالصفیر الواقعی و القولی کلاهما مصداق للآیة الشریفة.

إنّ الجاهلین بأسرار الحج یدورون حول الکعبة، کما کان أهل الشرک فی الجاهلیة یدورون کثیراً حولها، و عندها الأصنام و الأوثان، و کما یدور الکثیر من العصاة

۱- بحارالأنوار ۳۹: ۸، ۱۳۱، ۱۴۴، ۱۷۰.

۲- لحاقّة: ۱۷.

۳- الأنفال: ۳۵.

۴- الأعراف: ۱۷۹.

ص: ۲۰۲

حولها، فالزائر الذی لایلتفت إلی سرّ الطواف، قد یرتکب فی تلک الحال معصیةً، کما قال الإمام الصادق (ع): «إن امرأة کانت تطوف و خلفها رجل، فأخرجت ذراعها، فنال بیده حتی وضعها علی ذراعها، فأثبت الله یده فی ذراعها حتی قطع الطواف و أرسل إلی الأمیر و اجتمع النّاس، و أرسل إلی الفقهاء فجعلوا یقولون: اقطع یـده، فهو الذی جنی الجنایة، فقال: هاهنا أحد من ولد محمد رسول‌الله (ص)؟ فقالوا: نعم، علی بن الحسین قدم اللیلة، فأرسل إلیه فدعاه، و قال: أنظر ما لقیا ذان، فاستقبل القبلة و رفع یده، و مکث طویلًا یدعو، ثمّ جاء إلیهما حتّی خلّص یده من یدها، فقال الأمیر: ألا نعاقبه بما صنع؟ فقال: لا». (۱)

ففی هـذا المورد الخاصّ رغم أن فقهاءالجمهور حکموا بقطع الیـد إلّا أنّ الرجل و المرأة فتحت أیدیهما و نال الرجل العاصـی شـفاعة الإمام زین‌العابدین فنجی من الحدّ.

إنّ تفـاوت مراتب الطائفین یمکنه أن یکون مصـداقاً لهـذا الکلام النیّر للإمام الصادق (ع) فی ذیل الآیـة الشـریفة: (فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَیْراتِ بِإِذْنِ اللهِ) (۲)، حیث یقول (ع): «الظـالم یحوم حوم نفسه، و المقتصـد یحوم حوم قلبه، و السـابق یحوم حوم ربّه عزّوجلّ». (۳)

لأـنّ دین أیّ إنسـان، ینظمه له ربّه و یشـرّعه، فمن یکون إلهه هواه فسـیکون نبیّه رسول هـذا الهوی و جنته و نـاره صـنائع لهـذا الهوی أیضاً؛ و ما قاله رسول‌الله (ص): «یأتی علی النّاس زمان، بطونهم آلهتهم، و نساؤهم قبلتهم، و دنانیرهم دینهم» (۴)، ناظر إلی هذا الأمر، حیث لا یمکن أنیکون هناک شخص بلا دین.

۱- وسائل‌الشیعة ۳۳۸: ۹.

۲- فاطر: ۳۲.

۳- بحارالأنوار ۲۱۴: ۲۳.

۴- المصدر السابق ۴۵۳: ۲۲.

ص: ۲۰۳

استلام الحجر الأسود

لقد رغّب كثيراً فی استلام الحجر الأسود، نظراً للخصوصيات المعنويّة التی فيه، لهذا يستحب وصول يد الطائف إليه، و من اللائق و الجدير بالطائفين طوافاً مستحباً أن يفسحوا فی المجال لمن يطوف طوافاً واجباً أن يستلموا الحجر الأسود، و يقبّلوه، و يقدّمونهم علی أنفسهم، و لايشكّلون مانعاً أمامهم. (۱)

يقول الحكيم المتألّه الأستاذ إلهی قمشه‌ای ۱ فی هذا المضمار: إنّ الحجر الأسود هو الخال الذی علی شفتی المحبوب، فقبّل هذا الخال لحظة الوصال و الحضور بين يدی المحبوب. (۲)

إنّ الحجر الأسود يمين الله فی الأرض، (۳) و «كلتا يديه يمين» (۴)، فالله ليست له يدٌ كأيدی الناس حتی نفرض له يميناً وشمالًا، إنه مجرّدٌ محض، منزّه عن الجسم و الجسمانيات، فهذا الكلام إنّما هو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس.

إنّ المولی سبحانه و تعالی أمر- لكی يكون له محلّ ميثاق فی نشأة الحسّ و الطبيعة- بوضع حجر خاصّ فی أحد أركان الكعبة، تحت عنوان: «يمين الله عزّوجلّ فی أرضه- و- فی خلقه»؛ فالزائر عندما يستلم الحجر يبايع الله سبحانه بيده اليمين؛ لهذا لاحظنا أنه عندما سأل الإمام السجّاد (ع) الشبلی عن مصافحة الحجر الأسود، كيف اضطرب حاله، مشيراً إلی أنّ من يستلم الحجر الأسود فإنّما يصافح الله تعالی. (۵)

و النتيجة: إنّ سرّ ملامسة الحجر الأسود أن يتعهّد الحاج و الزائر بذلك بعهده مع

۱- وسائل الشيعة ۴۰۲: ۹- ۴۲۲.

۲- كليات ديوان إلهی قمشه‌ای، قسم أسرار الحج: ۹۵۶.

۳- وسائل‌الشيعة ۴۰۶: ۹.

۴- المصدر السابق ۴۳۲: ۱۱.

۵- تقدم حديث الشبلی فيما مضی، فليراجع.V

ص: ۲۰۴

الله سبحانه، أن لایضع یده فی حرام أو معصیة، فلا یأخذ الرّبا و الرشوة، و لایعطیهما، و لا یمضی أمراً باطلًا، و لا یخون أمته بعلاقته بالغرباء و الأجانب و الأعداء و ...

ص: ۲۰۵

الفصل الخامس صلاة الطواف

اشارة

لابدّ بعد الطواف- وفقاً للترتيب الواجب فی أعمال الحج و العمرة، و مناسکهما، من أداء صلاة الطواف، التی تحدّث القرآن عن مکانها بقوله: (وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِیمَ مُصَلًّی). (۱)

الکعبة مرجع البشر؛ لهذا کانت العودةلها کثیرة و الطواف حولها أکثر و لما کان الطواف متلوّاً دوماً بصلاته، عبّر عن مکان هذه الصلاة- و هو الموضع الذی وقف فیه النبی إبراهیم (ع)- بالمصلّی، فی تعبیر مشیر إلی الحضور المتواصل للمصلّین فیه، و هذا ما یرشد إلی أن انعقاده للصلاة صار ملکةً فیه، إذ لایقال: مصلّی، إلّا للمکان الذی تقام فیه الصلاة دائماً.

و لابدّ فی صلاة الطواف- انطلاقاً من روایات أهل بیت النبوة:- أنتکون إما إلی جانب مقام إبراهیم أو خلف المقام (۲)، بل التقدّم علی المقام کما لو فرض المقام مأموماً یعدّ هتکاً لحرمته، لهذا تحرم صلاة المصلّین و المقام خلفهم.

إنّ النبی إبراهیم (ع) هو أسوة سالکی حیّ الحق (۳)، و الاقتراب من موضع قدمه و

۱- البقرة: ۱۲۵.

۲- وسائل الشیعة ۴۷۸: ۹- ۴۸۲.

۳- الممتحنة: ۴.

ص: ۲۰۶

الحضور المادی إلی جانب مقامه الظاهری یشکل أرضیةً لإدراک مقاماته المعنویة التی منها: (وَ إِبْراهِیمَ الَّذِی وَفَّی) (۱) ، (إِنَّ إِبْراهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوَّاهٌ مُنِیبٌ) (۲)، (کانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِیفاً وَ لَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ* شاکِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ) (۳)، و الأوضح هنا قوله تعالی: (إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً). (۴)

ف- (ظاهر) صلاة الطواف هو أن یقف الإنسان فی المکان الذی وقفه إبراهیم (ع)، یصلّی عنده، أما (الباطن) فإدراک مکانةخلیل الله و الاستقرار فیها، و الصلاة کصلاته، و کما یفهم من الکلام التیّر للإمام السجاد (ع)، یجب الانفتاح علی کلّ طاعة، و الانزجار عن کلّ معصیة. (۵)

إنّ من یقیم الحج أو العمرة عارفاً بأسرار العبادة، إنّما یضع قدمه موضع قدم الأنبیاء و الأئمة: و مع الالتفات إلی ما وجّهه الإمام زین‌العابدین (ع) للشبلی من سؤال حول ما إذا صلّی کما صلّی إبراهیم و مرّغ أنف الشیطان فی التراب ... هناک یصل إلی مقام إبراهیم (ع) و یقف فی مکانته، و یصلّی صلاته و یذلّ الشیطان.

أما من یفقد عند الصلاة الخلوص و الخضوع و حضور القلب، و یقع فریسةً للوساوس و الدسائس و ... فلم یقف فی حقیقة الحال فی مقام إبراهیم (ع)، بل کان طعمةً للشیطان، قد مرّغ الشیطان أنفه فی التراب!!

التبرّک بماء زمزم

۱- النجم: ۳۷.

۲- هود: ۷۵.

۳- النحل: ۱۲۰- ۱۲۱.

۴- البقرة: ۱۲۴.

۵- تقدّم الحدیث سابقاً عن خبر الشبلی، فراجع.

ص: ۲۰۷

یستحب لزائر بیت الله، بعد الطواف و صلاته، التوجه إلی جانب بئر زمزم و الشرب منه، و أن یصبّ مقداراً منه علی رأسه و یتبرّک به. (۱)

و بعد شرب ماء زمزم یسأل الله تعالی العلم و غیره متّبعاً فی ذلک رسول‌الله (۲)، فی دعائه الذی یقول فیه: «أللهم اجعله علماً نافعاً و رزقاً واسعاً و شفاء من کلّ داء و سقم». (۳)

لقد سأل الإمام السجاد (ع) الشبلیَّ: هل تحدّث مع الله عند بئر زمزم و عاهده أن یقبل بکلّ طاعة له و یترک کلّ معصیة؟ و عندما أجاب الشبلیّ بالنفی، أجابه الإمام بأنه لم یشرف- إذاً- علی ماء زمزم. (۴)

و بناءاً علیه، فعلی الزائر العارف بأسرار الحج أن یقصد عندما یصبّ ماء زمزم علی رأسه و صدره کأنه ینادی الله قائلًا: إلهی! لقد شربت من کأس طاعتک، و ترکت کؤوس المعصیة کلّها.

۱- وسائل الشیعة ۳۵۰: ۹- ۳۵۲، ۵۱۴- ۵۱۵، و ۲۰۶: ۱۷- ۲۰۷.

۲- الکافی ۲۵: ۴.

۳- المصدر السابق: ۴۳۰.

۴- أنظر حدیث الشبلی فیما تقدّم.

ص: ۲۰۸

الفصل السادس السعی

اشارة

السعی بین الصفا و المروة أحد مناسک الحج و العمرة، فالسعی هرولة خاصّة من الله و إلی الله، هی فرار و هجرة و التجاء من الله إلیه و به، تماماً کما یقول الإمام الباقر (ع) حول الآیة الشریفة: (فَفِرُّوا إِلَی اللهِ) (۱)

: «حجّوا إلی الله عزّوجلّ» (۲)، و هذا هو التوحید الخالص.

لقد نصب العرب الجاهلیون علی جبلی الصفا و المروة أصناماً، و هذا ما دفع ببعض المسلمین أن یتجنّبوا السعی بین الصّفا و المروة علی أساس أنه سعی بین صنمین و هو غیر صحیح (۳)، فأنزل الله تعالی ما یرفع هذا التوهّم والحذر، فقال: (إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما) (۴)، فالسعی بینهما کسائر الشعائر الإلهیة علامة لتقوی القلب (وَ مَنْ یُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ). (۵)

۱- الذاریات: ۵۰.

۲- وسائل الشیعة ۵: ۸.

۳- الکافی ۴۳۵: ۴؛ و بحارالأنوار ۲۳۵: ۹۶.

۴- البقرة: ۱۵۸.

۵- الحج: ۳۲.

ص: ۲۰۹

و لیس للسعی بین الصفا و المروة استحباب نفسی، و ربّما من هنا کان جزءاً من الحج أو العمرة، لا مستحباً بنفسه، قال تعالی: (فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ).

أسرار السعی

۱. السعی بین الصفا و المروة هرولة نحو الله تعالی، کما أنّ التردّد بین هذین الجبلین تعنی الحالة الممدوحة فی الوقوف بین الخوف و الرجاء (۱)، فالمؤمن دائماً یعیش بین الخوف و الرجاء، حتّی مع اختلاف نسبته إلیهما فی مراحل حیاته المختلفة، و هذا ما یجلی لنا السرّ فی السعی بین الصفا و المروة.

۲. علی الحاج عندما یکون مستقبلًا فی سعیه الصفا أن یصفی نفسه، و یتحلّی بالصفاء الإلهی، و عندما یستقبل المروة فهو یسعی للاتصاف بالمروّة و الشهامة و النبل؛ لأنّ المروة من المروّة، و الصفا علامة التصفیة، و تهذیب الروح، کما قال الإمام الصادق (ع): «و اصف روحک و سرّک للقاء الله یوم تلقاه بوقوفک علی الصفا، و کن ذا مروّة من الله نقیاً أوصافک عند المروة». (۲)

إن أصل و منشأ تشریع الذهاب و الإیاب هذا هو ما حدث مع هاجر ۳، عندما سعت سبع مرّات بین الجبلین، آملةً الحصول علی ماء لولدها الصغیر (۳)، إلّا أنّ سرّ السعی هو ما أشرنا إلیه من تحصیل الصفاء و المروّة.

و بناءاً علیه، فعندما یحقق الحاج أو المعتمر سرّ السعی و یناله، فإنه لا یمدّ یده بعد ذلک

۱- راجع حدیث الشبلی المتقدم.

۲- بحارالأنوار ۱۲۴: ۹۶.

۳- جاء فی بعض الروایات تفسیر آخر لأصل هذا التشریع، و هو أن الشیطان ظهر بصورة متکررة لإبراهیم الخلیل ۷ فی الوادی بین الصفا و المروة، و کان إبراهیم کارهاً للحدیث معه، فکان یفرّ إلی هذه الناحیة تارةً و إلی تلک أخری. أنظر: وسائل الشیعة ۱۷۰: ۸؛ و بحارالأنوار ۱۰۸: ۱۲.

ص: ۲۱۰

إلی الأعمال المذلّة الدنیئة، لا والله لا أعطیکم بیدی إعطاء الذلیل، ولاأفرّ فرار العبید». (۱)

۱- بحارالأنوار ۱۹۱: ۴۴، و فی ۷: ۴۵، لم‌ترد الجملة الأخیرة بهذه الطریقة، بل «لا أقرّ لکم إقرار العبید».

ص: ۲۱۱

الفصل السابع التقصير

اشارة

التقصير أحد أعمال الحج والعمرة، مع اختلاف أنه واجب تعيينى فى حالات، وتخييرى فى حالات أخرى، وتفصيله موكول إلى كتب الفقه.

إنّ الحلق والتقصير أثناء الإحرام يعدّان من محرّمات الإحرام، إلّا أنهما من الواجبات فى نهايته، إذ بإنجازه تحلّ الكثير من الأمور التى كانت محرّمة على المحرم، فالحلق أو التقصير فى مناسك الحج كالتسليم فى فريضة الصلاة، فالتسليم الابتدائى والعمدى فى أثناء الصلاة حرام لكن فى نهايتها يصبح واجباً، وبالإتيان به يخرج المصلّى من حالةالصلاة، و تحلّ كلّ تلك الأمور التى كانت واجبةً عليه بهذا التسليم الخاص.

إنّ وجوب التقصير فى عمرة التمتع تعيينىّ، فيما هو تخييرى فى العمرةالمفردة، نعم الحلق للرجال أفضل من التقصير، أما التقصير للنساء فهو تعيينى.

و دليل رجحان الحلق على التقصير فى الرجال فى العمرة المفردة هو قول رسول‌الله (ص) فى الذين اعتمروا عمرة مبتولة مفردة: «أللهم اغفر للمحلّقين» و لما طلب منه أن يطلب المغفرة للمقصّرين كرّر «أللهم اغفر للمحلّقين»، و فى الثالثة أجاب: «وللمقصّرين». (۱)

۱- وسائل الشيعة ۵۴۳: ۹.

ص: ۲۱۲

یقول صاحب الفتوحات المکیـة معلّقاً علی هـذا الحـدیث: «الغفر الـذی هو الستر للمحلّقین، و هم الـذین حسـروا عن رؤوسـهم الشـعر فانکشفت رؤوسهم، فطلب من الله سترها، ثواباً لکشفها، والمقصّر لیس له ذلک، فلما لم یفهموا عنه، قال: و للمقصّرین، خطاباً لهم، إذ قد قال (ص): «خاطبوا النّاس علی قدر عقولهم ...». (۱)

تساوی الرجل و المرأة فی تحصیل الکمال

الروح الإنسانیـة لیست مـذکرةً ولا مؤنثـة؛ لأنّها موجود ملکوتیّ مجرّد، و هو منزّه عن الخصوصـیات المادیّة من الذکورة و الأنوثة، من هنا تساوت الأحکام الإسـلامیة بین الرجل والمرأة فی کلّ الجهات المرتبطـة بالروح الإنسانیـة، سواء من ناحیةتعلیم الکتاب و الحکمة، أم تزکیة الروح و تهذیبها، ولا یوجد هنا أیّ امتیاز لأحد صنفی البشریة فی تحصیل الکمالات النفسانیة، ولا یوجد أیّ کمال وجودی- من حیث هو کمال- مشروط بالذکورة أو ممنوع بالأنوثة.

نعم، هنـاک أمور تنفیذیـة تسـتدعی التواصـل المباشـر مع أفراد المجتمع- الأـعم من الرجـال والنّسـاء- مثـل قیـادة الأمـة، لها حساباتها الخاصّة، و إلّا فالولایة التکوینیة التی هی أرفع مقام منیع للإنسانیة یتساوی فیها الرجل والمرأة.

وغرضـنا من ذلک أنّ الکمالات الروحیـة متساویـة فی الصـنفین، لکنّ الوظائف البدنیـة لکلّ منهما تتناسب مع بنیتهما الجسدیّة، و من أشـکال الاختلاف البدنی بین الرجل و المرأة ما یظهر فی بعض أعمال الحج والعمرة، مثل قضـیة الحلق و التقصـیر، حیث الرجل مخیّر أحیانـاً بینهمـا و متعیّن علیه أحیانـاً أخری، فیما المرأة مکلّفـة دائماً بالتقصـیر و لاتکلّف أبـداً بالحلق أو تخیّر بینه و بین التقصـیر، حیث الحلق صعب جداً علی النساء و لایتناسب معهنّ.

۱- ابن عربی، الفتوحات المکیّة ۷۵۵: ۱.

ص: ۲۱۳

الفصل الثامن الوقوف فی عرفات

اشارة

الوقوف فی أرض عرفات فی النصف الثانی من یوم عرفة- و هو یوم التاسع من ذی‌الحجة- هو أوّل مرحلة من مناسک حج التمتع بعد إحرامه، کما عرض الله تعالی مناسک الحج لإبراهیم (ع) وعلّمه، وهو الحج الإبراهیمی الذی عُلّمه رسول‌الله (ص).

یکفی فی أهمیة عرفة ما قاله الإمام الصادق (ع): «من لم یغفر له فی شهر رمضان لم یغفر له إلی قابل، إلّا أن یشهد عرفة» (۱)، «إنّ من الذنوب ما لا یغفر إلّا بعرفة والمشعرالحرام». (۲)

أسرار الوقوف

یقول الإمام علی (ع) حول سرّ الوقوف بعرفات: «لأنّ الکعبة بیته والحرم بابه، فلما قصدوه وافدین، وقفهم بالباب یتضرّعون» (۳)، من هنا کان لیوم عرفة ولیلته أدعیة خاصة، تعدّ من فضائل هذا الیوم البارزة ووظائفه الهامة.

إنّ أسرار الوقوف بعرفات کثیرة، وقد أشیر إلی بعضها فی حدیث الشبلی المتقدم،

۱- الکافی ۶۶: ۴.

۲- بحار الانوار ۲۶۱: ۹۶.

۳- الکافی ۲۲۴: ۴، و انظر: المصدر السابق: ۴۶.

ص: ۲۱۴

وهی:

۱. علی الحاج بوقوفه فی عرفات أن یقف علی المعارف والعلوم الدینیة، ویطّلع علی الأسرار الإلهیة فی نظام الخلقة، ویعلم أنّ الله سبحانه واقف علی کل حاجاته، وقادر علی رفعها بأجمعها.

من هنا یقول الإمام السجاد (ع) للسائل الذی استجداه فی یوم عرفة:

«ویحک! أغیر الله تسأل فی هذا الیوم، إنّه لیرجی لما فی بطون الحبالی فی هذا الیوم أن یکون سعیداً». (۱)

إنّ من یطلب هنا من غیر الله تعالی یضرّ بنفسه، هؤلاء یقول الإمام السجاد (ع) فیهم: «هؤلاء شرار من خلق الله، الناس مقبلون علی الله وهم مقبلون علی الناس». (۲)

۲. علی الحاج أن یدرک فی عرفة أنّ الله تعالی مطلع علی ما یظهر ویعلن وما یسر ویخفی حتی ما یخفی علی الحاج نفسه و یکون مستکناً بطریقة لا شعوریة فی أعماقه، فعندما یعلم الإنسان أنّ قلبه فی محضر الحق تعالی ومشهده، یتجنب الذنوب الجوانحیة کما یتحاشی التلوث بالذنوب الجوارحیة، وینزه قلبه عن الخواطر السیئة والملوثة.

یقول الإمام السجاد (ع): «... الله عزّوجل إذا کان عشیة عرفة وضحوة یوم منی، باهی کرام ملائکته بالواقفین بعرفات ومنی، وقال لهم: هؤلاء عبادی وإمائی حضرونی ههنا من البلاد السحیقة البعیدة شعثاً غبراً، قد فارقوا شهواتهم وبلادهم وأوطانهم وأخدانهم ابتغاء مرضاتی، ألا فانظروا إلی قلوبهم وما فیها، فقد قویت أبصارکم یا ملائکتی علی الاطلاع علیها، فتطلع الملائکة علی قلوبهم فیقولون ...». (۳)

تملک الملائکة بعض الاطلاع علی الغیب، وعندها معلومات عن الکثیر من مسائل

۱- وسائل الشیعة ۲۸: ۱۰.

۲- بحار الانوار ۲۶۱: ۹۶.

۳- المصدر السابق: ۲۵۹.

ص: ۲۱۵

ما بعد الطبیعة، إلّا أنّ ستر الحقّ تعالی ولطفه ورحمته لا یسمحان للملائکة- من أولئک المعنیین بتسجیل أعمال البشر وخواطرهم- بفهم الکثیر من أسرار الناس، لکن وفقاً للحدیث المتقدم یطلع الملائکة فی یوم عرفة والعید بإذن من الله تعالی علی خفایا قلوب الزائرین، ویرون أنّ قلوب بعض الحجاج سوداء جداً تتعالی منها خیوط الدخان الأسود، وهنا یقول الله سبحانه للملائکة: أولئک الذین لم یصدّقوا النبی (ص) ولم یعتبروه صادقاً- والعیاذ بالله- ویقولون عن بعض ما یتصل بخلافة أمیرالمومنین علی (ع): إنّ رسول الله (ص) لم یفعل ذلک ولم یصدر منه هذا! ثم یری الملائکة فریقاً آخر قلوبهم نیّرة، وهنا یقول الله سبحانه: إنّ هؤلاء کانوا یطیعون الله ورسوله، ویعتبرون النبی (ص) أمیناً علی الوحی وأنه لم یقل شیئاً من عنده، وأنّ کل ما قاله وأتی به- بما فی ذلک الإمامة والقیادة من بعده- إنّما صدر عنه طبقاً لما جاءه من الوحی.

وسرّ ذلک کما أسلفنا فیما مضی، أنّ الولایة هی سرّ الأعمال کافة، فالمؤمنون الحقیقیون یبلغون سرّ الولایة، فیصلون أسرار الحج، فیظهرون فی أرض عرفات بصورة الإنسان الواقعی، فیفتخر الله بهم فی مقام الفعل.

نعم، إنّ ما جاء فی الحدیث الشریف لیس قضیّة تاریخیة، ولیس من نوع «قضیة فی واقعة» ینحصر بمراسم الحج وأیام عرفة، وعید الأضحی، إنّ هذا المشهد مستمر متواصل، غایته أنّ ظهوره التام یکون فی الحج.

۳. یصعد (۱) بعض الحجاج یوم عرفة علی «جبل الرحمة» (۲)، والسّر فی الصعود أعلی

۱- انّ ما ذکرناه فی المتن أعلاه من الصعود علی جبل الرحمة ناظر إلی حدیث الشبلی، والّا فبناءاً علی رأی مشهور الفقهاء، الأفضل الوقوف یوم عرفة أسفل الجبل وفی الأرض السهلة، فیما الصعود علی الجبل مکروه، فقد سئل الإمام الکاظم ۷ عن الوقوف بعرفات فوق الجبل أحبّ إلیک أم علی الأرض؟ فقال: «علی الأرض..»، وسائل الشیعة ۱۱: ۱۰. وقال الإمام الصادق ۷: «عرفات کلّها موقف وأفضل الموقف سفح الجبل»، الکافی ۴۶۳: ۴. وفی روایة أخری ورد: «عرفات کلّها موقف وما قرب من الجبل فهو أفضل»، وسائل الشیعة ۱۹: ۱۰.

۲- یقع الجبل الرحمة فی أرض عرفات، وقد وقف رسول الله ۹ علی مرتفع حجری فیه وألقی الخطبة المعروفة بعرفات، کما أنّ الإمام الحسین ۷ قرأ دعاء یوم عرفة علی سفح هذا الجبل، وتوجد هناک قبة باسم آدم ۷ تکره الصلاة عندها.

ص: ۲۱۶

الجبل أن يعلم الإنسان أنّ الله تعالى رؤوف رحيم بكل مسلم من ذكر أو أنثى و أنه متوليهم، فالله وإن كانت له بالنسبة للجميع ولاية تكوينية واحدة، وهو وليّ الجميع (۱)، ومع أنّ رحمته عامة وشاملة للموجودات كافة (۲)، إلّا أنّ له رحمة خاصّة بالمتقين، قال سبحانه: (وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ فَسَأَکْتُبُها لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ). (۳)

۴. يقع على جانب من أرض عرفات يماسّ الحرم جبلٌ يسمى ب- «نمرة» وفى تلك المنطقة مسجد يأخذ هذا الإسم أيضاً، إنّ معنى الحضور فى نمرة هو: يا الله! لا آمر بشىء إلّا أن أكون مؤتمراً به قبل ذلك، ولا أدع شيئاً إلّا وأكون قد حذرته من قبل وتجنبته.

لم ترد فى شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يكون الآمر والناهى عادلًا طاهر النفس، وإنّما المطلوب هناك هو العلم بالمعروف والمنكر، واحتمال التأثير فى الأمر والنهى؛ إلّا أنّه باطن ذلك يرجع وفقاً للأساس الذى يقوم عليه سرّ الوقوف فى (نمرة)؛ إنّ العدالة، أى أنّ على الآمر بالمعروف أن يأتمر بما يأمر به، والناهى عن المنكر أن ينزجر عما ينهى عنه.

۵- على الحاج عند حضوره فى وادى «نمرة» المعبّر عنه فى حديث الشبلى ب- «نمرات» أن يدرك أنّ هذه الأرض هى أرض شهادة ومعرفة وعرفان، أى كما أنّ الله تعالى وملائكته شاهدون، فإنّ هذه الأرض الواسعة هى أيضاً شاهدة على أعمال

۱- الكهف: ۴۴.

۲- الأنعام: ۵۴.

۳- الأعراف: ۱۵۶.

ص: ۲۱۷

زوار بیت الله الحرام، وتعلم بأی نیهٔ أتی؟ وبأی دافع یرجع؟ وبماذا تشهّد؟

عرفات أرض الدعاء

یتضح دور الدعاء فی الوصول إلی الرحمهٔ الإلهیهٔ الواسعهٔ من خلال کلام الإمام الصادق (ع)، حیث قال: «الدعاء کهف الإجابهٔ کما أنّ السحاب کهف المطر»؛ (۱) فکما أنّ السحاب مقرّ المطر، کذلک الدعاء مقرّ الإجابهٔ وموطنها، وبعبارهٔ أخری: الإجابهٔ تقع فی داخل الدعاء، تماماً کمایستقرّ المطر ویخزن فی الغمام.

إنّ حالات الحیاهٔ کلّها مناسبهٔ للدعاء والتضرّع، إلّا أنّ فترهٔ الحج الزاخرهٔ المعطاءهٔ والحضور فی مواقفه یمنح الدعاء هیبهً وعظمهً، ویقدم له تأثیراً إضافیاً وافراً، فکما أنّ الدعاء من ضمیر صاف مورد للقبول، وللإحرام وصوب الکعبهٔ الحرّ الطاهر أثراً خلاقاً فی تصفیهٔ هذا الضمیر، لذلک کان للتضرّع فی الحج والدعاء فی مواقفه أفضل الآثار وأسماها، وکان لکل برنامج فی الحج قوانینه ونظمه الخاصهٔ فی مجال الدعاء، وعمدهٔ ذلک کلّه هو دعاء عرفهٔ فی صحراء عرفات.

یوم عرفهٔ هو یوم الدعاء والتضرّع، فصحیح أن صیام هذا الیوم مستحبّ إلّا أنه لو کان الصوم موجباً لحصول الضعف للإنسان بحیث لا یتمکن من الدعاء، فإنّ الدعاء یکون مقدماً علی الصیام حینئذ. (۲)

لقد نقلت لنا روایات کثیرهٔ حول أعمال یوم عرفهٔ وعند الوقوف فی عرفات، لاسیما فیما یخصّ کیفیهٔ الدعاء، حیث تتحدث بعض هذه المرویات عن خصوص أدعیهٔ ذلک الیوم فیما یتحدث بعضها الآخر عن الترغیب فی الدعاء للآخرین، حتّی

۱- الکافی ۴۷۱: ۲.

۲- بحارالأنوار ۱۲۳: ۹۴- ۱۲۴.

ص: ۲۱۸

أنّ بعض تلامذة أهل بيت العصمة والطهارة: كان كلّ همّه فى هذا اليوم فى تلك الأرض التى تستجاب فيها الدعوات أن يدعو لغيره.

ينقل على بن إبراهيم فى هذا المجال عن والده إبراهيم بن هاشم أنه قال: رأيت عبدالله بن جندب فى الموقف، فلم أرَ موقفاً كان أحسن من موقفه، مازال مادّاً يديه إلى السماء، ودموعه تسيل على خديه حتّى تبلغ الأرض، فلما صدر الناس قلت له: يا أبا محمد! ما رأيت موقفاً قط أحسن من موقفك، قال: والله ما دعوت إلّا لإخوانى، وذلك أنّ أبا الحسن موسى (ع) أخبرنى أنّ «من دعا لأخيه بظهر الغيب نودى من العرش ولك مائة ألف ضعف مثله»، فكرهت أن أدع مائة ألف مضمونة لواحدة لا أدرى تستجاب أم لا. (۱)

قرب الله من عباده

للحج مواقف ومناسك، كل واحدة منها تحمل خصوصية لا تحويها التالية، أو تحوى قدراً بسيطاً منها، من هنا وبقرينة الحديث النبوى الشريف: «الحج عرفة» (۲)، ليس من البعيد أن تظهر فى عرفات معرفة لا تتحقق فى أى مكان آخر، فالحج سبب لتعالى الإنسان، ونيله أعلى قمم عالم الإمكان، أى «الخلق العظيم» ببركة هذه المعرفة الخاصة التى لا تتحقق إلّا فى عرفات.

فليوم عرفة وأرض عرفات مقام خاص ليس ميسّراً إلّا بأن يحقق الحاج خصائص الأزمنة والأمكنة الأخرى فى الحج ليكون مهيئاً لإدراك الدعاء، وبذلك تتعلّق الروح بعزّ العرش الإلهى، فتصل إلى معدن العظيم وتصبح عظيمةً. (۳)

إنّ لقرب الله تعالى من عباده مراتب ودرجات، حيث يمكن الوصول إلى المرحلة

۱- الكافى ۵۰۸: ۲، و ۴۶۵: ۴.

۲- المحجة البيضاء ۲۰۴: ۲.

۳- مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية.

ص: ۲۱۹

اللاحقة بطيّ ما قبلها، وخصوصية ذلك منحه شعاعاً جديداً من التضرّع، وانجذاباً مستحدثاً للدعاء، إنّ هذه المراتب بعضها أقرب من الآخر، وهي بناءاً على الآيات القرآنية كالتالي:

۱. وفقاً للآية الشريفة: (وَ إِذا سَأَلَکَ عِبادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ). (۱)

إنّ القرب الإلهي بلغ أنّ الله تعالى في هذه الآية لم يقل لنبيه: فقل لهم، بل بادر هو إلى الجواب بشكل مباشر، مذكّراً بقربه من عباده.

۲. إنّ الله قريب من المحتضر المشرف على الموت أكثر من قرب أقربائه ولكن الناس لاـترى ذلك، قال تعالى: (وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْکُمْ وَ لکِنْ لا تُبْصِرُونَ). (۲)

۳. قال تعالى: (وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ) (۳)، فهو أقرب من الإنسان من شريان حياته.

۴. إنّ الله تعالى أقرب إلى الإنسان من نفسه.

إنّ فهم هذه المرحلة فهماً صحيحاً وكذلك فهم الكلام التيّر لأميرالمومنين (ع): «هو في السماء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة» (۴)، إنما يسهل ذلك في ضوء قوله تعالى: (یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاکُمْ لِما یُحْیِیکُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ یَحُولُ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ). (۵)

على الحاج طيّ هذه المراحل الأربع ليبلغ نهايتها، وهذا ما لا يحصل إلّا

۱- البقرة: ۱۸۶.

۲- الواقعة: ۸۵.

۳- ق: ۱۶.

۴- بحار الأنوار ۲۷: ۴.

۵- الأنفال: ۲۴.

ص: ۲۲۰

للموحّدين الحقيقيين الخالصين.

وخلاصة القول، إنّه لاريب فى القرب الإلهى، والحجاب الوحيد بين العبد ومولاه هو العبد نفسه وذنوبه، «ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه» (۱)، و «أنّ الراحل إليك قريب المسافة، وأنّك لاتحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك» (۲)، ولكى يتحرّر الإنسان من هذا الحجاب لابد له من السفر عن ذاته والرحيل، وعليه أن يهاجر عن رغباته ومراداته لكى يكون مصداقاً لقوله تعالى: (وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً). (۳) وإذا استطاع الإنسان أن ينجو من رؤية الذات، فإنّ مشاهدة الأسرار الإلهية، ونيل جنة اللقاء يصبح ميسّراً مفتوحاً أمامه.

إنّ أيّام الحج ومناسكه لاسيما أرض عرفات هى أكبر فرصة للتحرّر من رؤية الذات، وللهجرة من بيت النفس، لقد بيّن القرآن الكريم هذه الهجرة فى المكانة بقوله: (وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (۴)، فمن يهاجر أرض الرجز والانحطاط، ويخرج من ضيق الطبيعة، ثم يواجه موتاً أمامه، فإنّ أجره سيكفله الله تعالى له، قال سبحانه: (وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً). (۵)

۱- بحار الأنوار ۳۲۷: ۳.

۲- مفاتيح الجنان، دعاء أبى حمزة الثمالى.

۳- النساء: ۱۰۰.

۴- المدثر: ۵.

۵- النساء: ۱۰۰.

ص: ۲۲۱

مقاطع من دعاء عرفة للإمام الحسين (ع)

تختزن أدعية الحج الخاصة الكثير من البركات الزمانية والمكانية وغيرها، وأفضل مناجاة وتضرع تبيّن كذلك الأبعاد السياسية والعبادية للحج والزيارة هو دعاء عرفة، لسيد شهداء حيّ الشهود والشهادة الإمام الحسين بن على (ع)، فهو فى هذا الدعاء أعطى الأوامر بمواجهة الكفر، ومحاربة سبيل الطاغوت، والوقوف الشجاع أمام المجرمين، بتأسيس منهج مواجهتهم وإسقاطهم، كما أنه من جهة أخرى دلّل على مدح الدولة الإسلامية وتقديرها، وظهور الولاية الإلهية، وعلى خط ثالث كشف عن التجلّى الوجودى للذات الإلهية الأقدس، وظهورها الشامل التام مع خفاء كل ما سواها فى ضوئها وشعاعها، وفهمه بها، وإسقاط قيمة غيرها، ومعرفة غيرها بها، لتكون ذاته الغنية عن أن يستشهد لها.

وهذه بعض ملامح ومؤشرات هذا الدعاء:

فى مقطع من هذا الدعاء يتحدّث عن القدرة الإلهية فيقول: «وهو للدعوات سامع، وللكربات دافع، وللدرجات رافع، وللجبابرة قامع».

وفى موضع آخر يتحدث الدعاء عن عناية الله تعالى بدولته، والعيش فى كنفها، والنجاة من الكفر وحكّامه، إنّه يخاطب الله تعالى فيقول: «... لم تخرجنى لرأفتك بى ولطفك لى وإحسانك إلىّ فى دولة أئمة الكفر الذين نقضوا عهدك وكذبوا رسلك، لكنك أخرجتنى للذى سبق لى من الهدى الذى له يسّرتنى وفيه أنشأتنى».

لقد بيّنت فى هذا الدعاء الشريف أعلى مراتب التوحيد، ففى بعضها جرى الحديث بشكل واضح وصريح، بأنّ فهم الله والوصول إليه عبر آثاره وآياته كبلوغ الشمس فى جوّ صاف ونيّر عبر ضوء الشمعة الضعيف، لأنّ الذات الإلهية الأقدس هى أظهر من كل ظاهر وأنور من كل نور، فلم تغب قطّ ولاتغيب أبداً، حتّى تحتاج

ص: ۲۲۲

إلى من يدل عليها، والعارف لايرى قبله سواه ثم يرى بعده آثاره.

لقد جاء فى بعض المقاطع الأخيرة لهذا الدعاء ما يلى: «إلهى تردّدى فى الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك، كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك؟ متّى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتّى بعدت حتّى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟ عميت (۱) عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً ...». (۲)

إنّ الإمام الحسين (ع) يخاطب هنا ربّه: إلهى! وإن كان العالم كلّه آيات توحيدك وعلاماته لكن لاترجعنى إلى هذه العلامات، فإنّك إن أرجعتنى إلى العلامات الآفاقية أو الأنفسية كى أصل عبرها إليك فسوف يطول الطريق، أظهر لى نفسك، فإنّ هذه الآثار عاجزة عن أن تجليك بصورة ناصعة تامّة، حتّى أرض عرفات ومكّة ومواقف الحج التى قلت فيها:

(فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ). (۳) لا تملك ظهوراً يُظهرك ويجليك.

إلهى! أنت (اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ) (۴)، فأنت أوضح من أى علامة وأقرب إلىّ منها، فلماذا تحيلنى عليها؟ ربى! إنّ الاستدلال يكون لبلوغ الغائب فمتى كنت غائباً حتّى ألتجئ إليك؟! فأنت بنفسك قلت: (أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (۵)، فأنت غير محتاج إلى دليل حتّى أستعين بالآيات فأصل إليك، فاظهر على قلبى بالشهود بلاواسطة حتّى أراك.

۱- أخطأ بعض المترجمين لهذا الدعاء عنالعربيةففسّروا «عميت» و «خسرت» بالدعاء على هذه العين والصفقة، مع أنهما إخبار لاإنشاء تنبئان عن أمرغير مشهود.

۲- مفاتيح الجنان، دعاء عرفة للإمام الحسين. ۷

۳- آل عمران: ۹۷.

۴- النور: ۳۵.

۵- فصلت: ۵۳.

ص: ۲۲۳

من المناسب أن یکون هذا الدعاء لبّاً لکل العبادات، فالعبادة لیست سوی ما یحقق مجالًا لظهور المعبود لا غیر، فلا یطلب بها سواه، ولا یقصد من ورائها إلّا معرفته بنفسه.

لقد منح هذا الدعاء الحکماء الإسلامیین المتألهین، برهان الصدیقین وعلّمهم إیاه، ودفع العرفاء لشهوده، وحذّر العباد ووعظ السالکین، حتّی یضعوا أقدامهم فی الوادی الأیمن، ویطأوا الطریق لبلوغ عین الهدف، فإنّ الوصول إلی الله من الله، یعنی نیل المقصود من المقصد.

حضور إمام الزمان فی الحج

یحضر بقیة الله الحجة بن الحسن (ع) کل عام مراسم الحج، لاسیما فی عرفات ومنی، وفی هذا یقول الإمام الصادق (ع): «یفقد الناس إمامهم، یشهد الموسم فیراهم ولا یرونه» (۱)، ویقول النائب الخاص لإمام الزمان (ع)، محمد بن عثمان العمری: «والله إنّ صاحب هذا الأمر لیحضر الموسم کل سنة، یری الناس ویعرفهم ویرونه ولا یعرفونه». (۲)

إنّ الکثیر ممّن تربّی علی یدیه وتلمّذ یکون حاضراً فی الموسم، ویطّلعون بعنایته الخاصّة علی ملکوت الأفراد.

الأمر الجدیر بالذکر هنا، أنّه لیس المقصود أنّ حلّ مشکلات الحجاج، أو أیّ عمل خارق للعادة، وکرامة تقع فی أیام الحج وفی أرض منی وعرفات، لابد أن تکون للید المبارکة لإمام الزمان (ع) دور مباشر فیها، فقد یتیه عجوز أو غریب عن

۱- الکافی ۳۳۷: ۱- ۳۳۸.

۲- من لا یحضره الفقیه ۵۲۰: ۲.

ص: ۲۲۴

منزله أو یظلّ بلا زاد ولا راحلة وسط الطریق، فیعینه ویرشده ولیّ من الأولیاء الإلهیین الذین تربوا فی مدرسة ولایته (ع).

إنّ التشرف والحضور المباشر فی المحضر النورانی لإمام الزمان- أرواحنا فداه- یحتاج لخواص ولیاقات لازمة، من هنا لا یوفق إلّا الأوحدی من الموحدین کی یحضر إلیه الوجود المبارک للحجة (ع)، نعم عنایته (ع) شاملة للأولیاء والصالحین والشهداء الذین ربّاهم، وهم یقومون بحلّ مشکلات الآخرین بأمر منه (ع).

ص: ۲۲۵

الفصل التاسع الوقوف فی المشعر الحرام

یجب علی الحاج- بأمر من الله تعالی- أن یخرج بعد غروب الشمس فی التاسع من ذی‌الحجة من أرض عرفات، ویتجه نحو المشعرالحرام، قال سبحانه: (لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّکُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْکُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْکُرُوهُ کَما هَداکُمْ وَ إِنْ کُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّینَ) (۱)، ویقضی لیلة هناک.

إنّ الوقوف فی المشعر من أرکان الحج کالوقوف بعرفات تماماً، وهنا یشتغل الحجاج فی بعض هذا اللیل بجمع الجمار لرمی الجمرات بها فیما بعد.

المشعر الحرام یقع فی الحرم وهو أوّل مدخل یؤتی الحرم منه (۲)، فمن یعرف فی یوم عرفة وأرض عرفات العلوم والمعارف الإلهیة ویتعبّد بالآداب الدینیة الخاصّة، یلیق به أن یرد الحرم وأن یبیت عند مدخله فیجمع الجمار کی یرمی بها فی الیوم العاشر جمرات منی والشیطان.

إنّ سرّ الوقوف فی المشعرالحرام والمبیت فیه أن یذکّر الحاج قلبه بشعار التقوی

۱- البقرة: ۱۹۸.

۲- الکافی ۲۲۴: ۴؛ وانظر المصدر السابق: ۴۶.

ص: ۲۲۶

ویجعل عنوان قلبه الخوف والورع (۱)، فیعرف بهما، وشعار کل قوم هو المعرّف لهم، وعلیه فالتقوی مع وجودها فی تمام مناسک الحج، إلّا أنّ تجلّیها الخاص یکون عند الوقوف فی المشعرالحرام ویظهر مشهوداً للواقفین علی الأسرار.

عندما یقف الحاج فی المزدلفة، ویجمع الحصیات، إنما یأخذ بذلک القوة، ویتسلّح لمحاربة الشیطان، ویهبّ مواجهاً لأی عصیان، ویحلق رأسه فی محضر الطاعات.

وعندما تطلع الشمس وینتهی المبیت فی المشعرالحرام، یتجه الحاج إلی منی فیدخلها، وهنا یستحبّ له عند حرکته إلیها أن یسیر برفق وهدوء، و لایتمایل یمیناً ولا شمالًا، ویطوی المسافة الفاصلة بین المشعر ومنی فی المسیر المحدّد، وسرّ هذا الحکم أن یتعلّم الحاج الحرکة علی الصراط المستقیم، فلایمیل إلی الشرق ولاإلی الغرب؛ لأنّ الیمین والیسار انحراف، والسبیل الوسط هو الصراط المستقیم. «الیمین والشمال مضلّة، والطریق الوسطی هی الجادّة». (۲)

۱- أنظر: حدیث الشبلی المتقدم.

۲- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۶، الفقرات: ۷- ۸.

ص: ۲۲۷

الفصل العاشر الإفاضة إلى منى والمبيت فيها

اشارة

يتوجّه الحجاج إلى منى بعد طلوع الشمس من العاشر من ذى الحجة، عقب مضيّهم الليلة السابقة فى سفرهم من عرفات إلى المشعر والوقوف فيه، وذلك لكى يؤدوا أعمال منى الخاصّة.

وهنا يتحدث الإمام السجّاد (ع) مع الشبلى فيقول له: «وصلت منى، ورميت الجمرة، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصليت فى مسجد الخيف، ورجعت إلى مكة، وطفت طواف الإفاضة؟...»

يحبّ الإنسان الخلود، من هنا يأمل فى تهيئة ما يظلّ معه دائماً، فالذى يفكر فى جمع المال يرتكب خطأ، ويكون فى واقع الحال قد ترك تهيئة نفسه، ولم يجمع سوى الوزر والوبال عليه، أما ذاك الساعى فى الإنتاج، والقانع فى المصرف والاستهلاك، والناجح فى توفير الحلال مما يملكه، أى إنه عزيز الإنتاج قليل الاستهلاك، لايكلّ ولايملّ، ويحل مشاكل الآخرين طلباً لرضا الله تعالى.. إنّ مثل هذا الشخص يرسل رأس ماله مسبقاً إلى القيامة والديار الأبدية، وبالموت يبلغ ماله ويصل إليه.

وخلاصة القول: إنّ الفريق الأول لديهم أمل مذموم، أما الفريق الثانى فعنده التمنى الممدوح، ومنى هى أرض نيل الأمانى الصادقة، لا تلك الكاذبة، و الآمال

ص: ۲۲۸

الباطلة، والمُنى الفاسده.

لقد سأل الإمام السجاد الشبلی فقال له: «أخرجت إلی منی؟ قال: نعم؛ قال: نویت أنک آمنت الناس من لسانک وقلبک ویدک؟ قال: لا؛ قال: فماخرجت إلی منی».

وعلیه، فعلی الناس أن ترتاح بخاطرها من لسان الحاج ویدیه وقلبه، بمعنی أنّ الحاج لا یذهب بماء وجه أحد، لا بنحو الجدّ ولا بنحو الهزل تحت مسمیات الطرفة والنکتة السافرة، الملفوظة أو المکتوبة، لیس ارتیاح الناس من لسان الحاج ویدیه، بل من قلبه أیضاً حیث لاینال بالسوء أحداً، فالضرر القلبی والأذیة القلبیة هی أن یختزن الصدر حقداً علی أحد أو یحسده ویضمر له السوء.

تصفیة المناسک من العادات الجاهلیة

لقد شرّع الله تعالی لعرفات والمشعر ومنی أحکاماً، ولکل حکمٍ من هذه الأحکام حِکَمٌ مبیّنة، کالأمر بالتعظیم، وذکر اسم الله، و تذکّره وشکره علی نعمة الهدایة الإلهیة. (۱)

ومن أرفع رسالات الحج نشر العقائد التوحیدیة، فإلی الیوم مازال هناک الملایین من الناس فی أرجاء العالم یعبدون الأوثان، نعم إنّ عبادة الأوثان الیوم لم تعد مذهباً ومدرسة عریقة راسخة، فتطوّر العلم سحب البساط من تحت الأصنام وعبادتها، لکن إذا لم یجر نشر العقائد التوحیدیة وبسطها فی أرجاء المعمورة، فإنّ الخطر سیظل قائماً فی ضلالة الملایین من الناس بإضلال من الآخرین، فیقعون فی الإلحاد واللادینیة، فبدل أن ینتقلوا من الدیانة الباطلة إلی الدیانة الفضلی، ینتقلون منها إلی اللادینیة!!

۱- البقرة: ۱۹۸- ۲۰۱.

ص: ۲۲۹

لقد جرت سنّة الجاهلية على أنه بعد الفراغ من الحج يجتمع الناس فی منی، ويتفاخرون بقوّتهم وأعرافهم وأنسابهم، فيذكرون أصولهم النسبية التی يُعرفون بها وآباءهم بالشعر والنثر، معتمدين فی ذلک علی القيم الجاهلية، ککثره عدة أفراد القبيلة وعدتها، وقدرتها علی الحرب والغارة.

أما نظام الحج فی الإسلام، فقد قضی علی هذا النظام الجاهلی المهترئ واستبدله ببيان نظام إلهی قيمی هدی الناس إليه، وأمر بعد إتمام المناسک فی منی بذکر الله کثيراً، وطلب المغفرة منه، وإرادة الحسنات.

وقد جاء فی إحدی الروايات:

قال رجل لعلی بن الحسين (ع): يا ابن رسول الله! إنّا إذا وقفنا بعرفات و منی وذکرنا الله ومجّدناه وصلّينا علی محمد وآله الطيبين الطاهرين ذکرنا آباءنا أيضاً بمآثرهم ومناقبهم وشريف أعمالهم نريد بذلک قضاء حقوقهم.

فقال علی بن الحسين (ع): «أولا- أنبئکم بما هو أبلغ فی قضاء الحقوق من ذلک؟» فقالوا: بلی يا ابن رسول الله. قال (ع): «أفضل من ذلک وأولی أن تجدوا علی أنفسکم ذکر توحيد الله والشهادة، وذکر محمد رسول الله والشهادة له بأنه سيد النبيين، وذکر علیّ ولیّ الله والشهادة بأنه سيد الوصيين، وذکر الأئمة الطاهرين من آل محمد الطيبين بأنهم عباد الله المخلصين، وبأنّ الله عزّوجلّ إذا کان عشية عرفة وضحوة يوم منی باهی کرام ملائکته بالواقفين بعرفات ومنی، وقال لهم: هؤلاء عبادی وإمائی حضرونی ههنا من البلاد السحيقة البعيدة شعثاً غبراً، قد فارقوا شهواتهم وبلادهم وأوطانهم وأخدانهم ابتغاء مرضاتی، ألا- فانظروا إلی قلوبهم وما فيها، فقد قويت أبصارکم يا ملائکتی علی الاطلاع عليها». قال: «فتطلع الملائکة علی قلوبهم، فيقولون: يا ربنا اطلعنا عليها، وبعضهم سود مدلهمة يرتفع عنها کدخان جهنم؛ فيقول

ص: ۲۳۰

الله: (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (۱)؛ تلک قلوب خاوية من الخيرات، خالية من الطاعات، مصرّة على الموذيات المحرمات؛ تعتقد تعظيم من أهنّاه، وتصغير من فخّمناه وبجّلناه؛ لئن وافونی کذلک لأشدّدن عذابهم ولأطيلنّ حسابهم، تلک قلوب اعتقدت أنّ محمداً رسول الله (ص) کذب علی‌الله، أو غلط عن الله فی تقليده أخاه ووصيّه إقامة أود عباد الله، والقيام بسياساتهم، حتی يروا الأمن فی إقامة الدين فی إنقاذ الهالکين، ونعيم الجاهلين، وتنبيه الغافلين، الذين بئس المطايا إلی جهنم مطاياهم. ثم يقول الله عزّوجلّ: يا ملائکتی! انظروا، فينظرون فيقولون: ربنا وقد اطّلعنا علی قلوب هؤلاء الآخرين وهی بيض مضيئة، يرتفع عنها الأنوار إلی السماوات و الحجب، وتخرقها إلی أن تستقرّ عند ساق عرشک يارحمان.

يقول الله عزّوجلّ: أولئک السعداء الذين تقبل الله أعمالهم، وشکر سعيهم فی الحياة الدنيا، فإنهم قد أحسنوا فيها صنعاً؛ تلک قلوب حاوية للخيرات، مشتملة علی الطاعات، مدمنة علی المنجيات المشرفات؛ تعتقد تعظيم من عظّمناه وإهانة من أرذلناه، لئن وافونی کذلک لأثقلنّ من جهة الحسنات موازينهم ولأخفّفنّ من جهة السيئات موازينهم، ولأعظمنّ أنوارهم، ولأجعلنّ فی دار کرامتی ومستقر رحمتی محلّهم وقرارهم؛ تلک قلوب اعتقدت أنّ محمداً رسول الله (ص) هو الصادق فی کل أقواله، المحقّ فی کل أفعاله، الشريف فی کل خلاله، المبرز بالفضل فی جميع خصاله، وأنه قد أصاب فی نصبه أميرالمؤمنين علياً إماماً، وعَلَماً علی دين الله واضحاً، واتخذوا أميرالمؤمنين إمام هدی وواقياً من الردی، الحقّ ما دعا إليه، والصواب والحکمة مادلّ عليه، والسعيد من وصل حبله بحبله، والشقیّ الهالک من خرج من جملة المؤمنين به والمطيعين له ...».

۱- الکهف: ۱۰۴.

ص: ۲۳۱

يقول أنس بن مالك، من ذلك عن الرسول الأكرم (ص) أنه قال: «إنّ الله تعالى يباهى بأهل عرفات الملائكة، يقول: يا ملائكتى! انظروا إلى عبادى شعثاً غبراً أقبلوا، يضربون إلىّ من كلّ فجّ عميق، فأشهدكم أنّى قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مُسيأهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألونى غير التبعات التى بينهم؛ فإذا أفاض القوم إلى جَمْع ووقفوا وعادوا فى الرغبة والطلب إلى الله، يقول: يا ملائكتى! عبادى وقفوا وعادوا من الرغبة والطلب، فأشهدكم أنى قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مسيئهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألنى، وكفلت عنهم بالتبعات التى بينهم». (۱)

وبناءاً عليه، من المناسب لزائرى بيت الله الحرام عند المبيت بمنى، التباحث حول الأصول والعقائد؛ فإنّ ليالى منى ليالى درس، وليست وقت إقامة حفلات الأنس والمسامرات. وهنا يتم الحديث عن التوحيد والرسالة والولاية وأمثال ذلك، فينال الحاج فضيلةً علمية ومعنوية، ويفى حقّ آبائه وأجداده بشكل أفضل؛ لأنّ نداءهم له بأنّ كل خير نزل علينا فإنما هو بتوفيق وإمداد إلهى، فهو خير حامد وخير محمود، فبدل التفاخر بفضائلنا، علينا أن نحمده، ونثنى على الأنبياء والأولياء الإلهيين: الذين كانوا واسطة فى الفيض بيننا وبينه.

الحج فيّاض بإسم الله وذكره

نظراً لما يمتاز به الحج من ذكر خاص يقل مثيله فى سائر العبادات، فإنه يغدو أساساً لنيل الحاج شهود أمورٍ لايشهدها غيره، فالحج وإن كان بنفسه مذكّراً بالله سبحانه، إلّا أنّ الذاهب إلى الحج يمنح فى بعض الأوقات حالةً ذكرية تنسيه غير الله ولا يعير غيرَ الله بها اهتماماً.

۱- مستدرک الوسائل ۴۲: ۱۰؛ ومجمع البيان ۷- ۱۲۹: ۸.

ص: ۲۳۲

ذکر الله هو لبّ الحج وروحه، کما أنّ نسیان الله وآیاته باعث علی عدم القدرة علی رؤیة شهود أسرار مناسک الحج، وهو عمی سوف یظهر فی یوم القیامة، تماماً کما قال تعالی:

(وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِکْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِیشَةً ضَنْکاً وَ نَحْشُرُهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ أَعْمی* قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِی أَعْمی وَ قَدْ کُنْتُ بَصِیراً* قالَ کَذلِکَ أَتَتْکَ آیاتُنا فَنَسِیتَها وَ کَذلِکَ الْیَوْمَ تُنْسی). (۱)

فالحج الذی یذکّر بالله تعالی، یری الحاج ما لایراه غیره ویکونون عاجزین عنه ومحرومین منه، ولعلّه لهذا السبب جعل الله الحاج حرماً، ولم یجز إحلاله من إحرامه، إنّ الحاج نفسه شعیرة من شعائر الله (۲)، وما لم یرتکب ذنباً یظل بنفسه نورانیاً .. «الحاج لا یزال علیه نور الحج مالم یَلُمَّ بذنب». (۳)

تفاوت مراتب الحجّاج

ینقسم الحجاج الحاضرون فی منی- وفقاً للآیة الشریفة (فَإِذا قَضَیْتُمْ مَناسِکَکُمْ فَاذْکُرُوا اللهَ کَذِکْرِکُمْ آباءَکُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِکْراً) (۴)، ومایلیها من آیة- إلی فریقین:

۱. من یذهب للحج للسیاحة، والتجارة، والشهرة، وأمثال ذلک، فمنطق هؤلاء ومطلوبهم هو الدنیا، أ کانت حلالًا أم حراماً، ولیس حسناتها، من هنا فهم لایقولون: (رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا حَسَنَةً) وهؤلاء لیس لهم فی الآخرة حظّ ولا نصیب، لأنّ منتهی أفق رؤیتهم لم یکن سوی نشأة الطبیعة، قال تعالی: (فَمِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ

۱- طه: ۱۲۴- ۱۲۶.

۲- المائدة: ۲.

۳- وسائل الشیعة ۶۸: ۸، ۳۲۸.

۴- البقرة: ۲۰۰.

ص: ۲۳۳

رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا وَ ما لَهُ فِی الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ). (۱)

۲. من یذهب للحج ویرید من الله حسنات الدنیا والآخرة، وهؤلاء هم من یعطیهم الله، قال سبحانه: (وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا حَسَنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ* أُولئِکَ لَهُمْ نَصِیبٌ مِمَّا کَسَبُوا وَ اللهُ سَرِیعُ الْحِسابِ). (۲)

فمن حسنات الدنیا، المالُ الحلال، والأرحام، والأقارب المؤمنون، وأهل الفضل، والقیام بالخدمات الاجتماعیة، ومجالس الأنس الإلهی، وتعلیم الکتاب والحکمة، والتزکیة، وصلة الرحم وغیر ذلک.

و الدنیا بدون هذه الأمور لیس فیها حسنة حتی تطلب من الله.

إنّ أرفع الحسنات وأعلاها مصداقاً، هو أجر رسالة النبی الأکرم (ص)، أی تولّی الأولیاء الإلهیین واتّباع العترة الطاهرین، قال تعالی: (قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً). (۳)

۱- المصدر السابق.

۲- البقرة: ۲۰۱- ۲۰۲.

۳- الشوری: ۲۳.

ص: ۲۳۴

الفصل الحادى عشررمى الجمرات

تجذب النباتات والحيوانات والإنسان- كلٌّ على طريقته- كلَّ مايلائمه كما تدفع عنها كلّ ما لاينسجم معه، والجذب والدفع علىمستوى الطبيعة وعلى مستوى الأفراد العاديين تارةً يظهر بصورة الشهوة، والغضب؛ وأخرى على صورة المحبّة والعداوة؛ وثالثة بصورة الإرادة والكراهة ..

أمّا فى المؤمنين فتظهر الصورة بشكل أرقّ، وهى التولّى والتبرى، فالحج الذى يبلغ مرحلة التولّى الحقيقى والتبرى الصحيح، يتجلّى جذبه و تولّيه فى المبيت بمنى فى ذكر الله تعالى، كما يظهر دفعه و تبرّيه فى مناسك أيامها.

وليكن القول- مع الأخذ بنظر الاعتبار- قوله تعالى حول ذبح الأضاحى: (لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ). (۱)

إنّ بيان القرآن حول مجلى التبرّى- وهو رمى الجمرات- هو أنّ الحجارة لاترجم الشيطان ولا تطرده، وإنما الذى يدفعه هو الانزجار الباطنى والداخلى لكم، فهذا هو الذى يجعل شياطين الجنّ والإنس تفرّ، ويجعلك محمياً من كل شيطنة داخلية وخارجية.

۱- الحج: ۳۷.

ص: ۲۳۵

ولابـد من الالتفات فی مسألة رمی الجمرات إلی أنّ تلک الجمرات لیست شـیاطین، ولا ذلک الرمی للحجارة رمیاً للشـیطان؛ لأنّ رمی الجمرات کان أمراً مرسوماً فی الجاهلیـة، کما أنّ بعض شـیاطین الإنس الیوم یمارسون رمی الجمرات هـذا، فمن البـدیهی أنّ الشـیطان لایطرد برمیةٍ فیها سبعة أحجار، وإنما السبیل الوحید لطرده والبقاء فی مأمن من ضرره هو الاستعاذة العملیة، والتحصّن بالحصن الإلهی، قال تعالی: (وَ إِمَّا یَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ). (۱)

إنّ رمی الجمرات بالحجـارة ما هو إلّا تعبیر رمزی وإشاری إلی رمی الشـیطان الـداخلی والخارجی، وطرد شـیاطین الجن والإنس، فإذا کان هناک شـخص هو بنفسه شـیطاناً إنسـیاً، فإنه لن ینال شرف التبری، والرمی الحقیقی ولا لیاقتهما، تماماً کما إذا کان الشیطان قریناً لشخص (۲)، فإنه لن یتمکن من رمی قرینه، أی شیطانه.

إشارة: جرت سـنّة العرب وعادتهم علی أنه إذا غضـبوا من شخص غضباً استثنائیاً، فإنهم یرجمونه فی حیاته ومماته، کما حصل مع أبی رغالة، قائد جیش أبرهة، فقد مات قبل الوصول إلی مکة، فعمد الناس إلی رجم قبره، وکذلک جریر الذی کان منافساً للفرزدق، نجده یقول:

إذا مات الفرزدق فارجموه کما ترمون قبر أبی رغال. (۳)

۱- الأعراف: ۲۰۰.

۲- الزخرف: ۳۶؛ النساء: ۳۸.

۳- دائرة معارف القرن العشرین ۴۶۵: ۹.

ص: ۲۳۶

الفصل الثانی عشرذبح الأضاحی

اشارة

یجب علی الحجاج بعد رمی جمرة العقبة، وقبل حلق رؤوسهم، أو التقصیر، ذبح بقرة أو غنم أو نحرجمل أضحیة یوم العید، قال تعالی: (وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَکُمْ حَتَّی یَبْلُغَ الْهَدْیُ مَحِلَّهُ ... فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَی الْحَجِّ فَمَا اسْتَیْسَرَ مِنَ الْهَدْیِ). (۱)

إنّ هذه السنّة الإلهیة الخاصّة فی الحج توجب تقرّباً خاصاً قلّما نجده فی أیّ عبادة أخری.

وتوضیح ذلک أنّ الذبح أو النحر، لم یسلما فی الجاهلیة من لوث الشرک، بل کانا کالتلبیة (۲)، وصلاة المشرکین (۳)، ممزوجین بالشرک، فطریقتهم أنهم بعد الذبح أو النحر کانوا یلطخون الکعبة بدم الأضحیة، ویعلّقون قسماً من لحمها علی الکعبة حتی یقبلها الله تعالی! (۴)

أما الإسلام، فقد جعل للأضحیة حرمةً خاصة، بحیث لا یجوز إحلالها، قال

۱- البقرة: ۱۹۶.

۲- الکافی ۵۴۲: ۴.

۳- الأنفال: ۳۵.

۴- بحارالأنوار ۲۷۵: ۶۷.

ص: ۲۳۷

تعالى: (لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْیَ وَ لَا الْقَلائِدَ). (۱)

ولإبعاد سنّة الجاهلية، وبياناً للتقرّب الناتج عن تقديم الأضحية، ربما سميت الأضحية أضحيةً، قال تعالى: (لَنْ یَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لکِنْ یَنالُهُ التَّقْوی مِنْکُمْ) (۲)؛ لأنّ هذه الآية الشريفة طهرت الكعبة من سنن الجاهلية التى أشرنا إليها، كما طردت التوهم القائل: «بما أنّ الله لايحتاج للعالم وللناس، فلا يجب النحر والذبح على الحاج!» وذلك أنها شرّعت أصل التضحية رغم أنّ الله لايحتاج إلى لحومها، فالذى يصل إلى الله تعالى روح الفعل ولبّ العمل، أى التقوى، لا اللحم ولا الدم.

ومن حيث إنّ التقوى نعت وصفة خاصة تتحد مع المنعوت، فلا فرق وجوديً بين التقوى، ونفس المتقى المتحد معها، وعليه فإذا بلغت التقوى أوجها وكمالها، ووصلت- بالمعنى المعقول- إلى الله تعالى، فهذا معناه أنّ الحاج الذى تكون أضحيته خالصة لله تعالى، يصل بنفسه إلى الله كما تصل تقواه إليه تعالى؛ لأنّ تقواه ليست شيئاً غيره فى عالم الوجود، ولعلّه لهذه التقوى الثمينة التى وعد بها فى النحر، أطلق على يوم النحر يوم «الحج الأكبر». (۳)

إنّ هذه التقوى ونيل نفس المتقى لله تعالى، هما الهدف الرفيع الذى يكون الحج وآدابه وسننه المتعالية مظهراً له، وقد سبقت الإشارة لذلك عند حديثنا عن سرّ الحج وثمراته، فليراجع.

وقفات حول التضحية و أسرارها

يمكن انطلاقاً مما تقدّمت الإشارة إليه، الحديث عن بعض النقاط ذات الصلة، وهى:

۱- المائدة: ۲.

۲- الحج: ۳۷.

۳- التوبة: ۳؛ وسائل الشيعة ۸۶: ۱۰- ۸۸؛ و انظر المباحث السابقة.

ص: ۲۳۸

۱. إنّ الحكمة من التضحية هى تقرّب المضحّى وتعاليه مع تقواه نحو الله تعالى، فما يصل إلى الله إنما هو روح العمل وباطنه، قال تعالى: (لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلادِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ). (۱)

وعليه، إنما تقبل الأضحية إذا كانت التقوى معها، وكان روح ذبحها أو نحرها هى التقوى، ووفقاً للآية الشريفة: (إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (۲)، لايقبل أى عمل بلا تقوى، كما أنه لو كان العمل مع التقوى لكن عامله لم يراع تقوى الله فى غير هذا العمل، فإنّ هذا العمل وإن قبل منه، لكن لايرتفع إلى الله كما ينبغى؛ لأنّ الله تعالى إنما يقبل العمل من العامل الذى تكون كل شؤونه- سواء فى هذا العمل أم فى غيره- قائمة على التقوى ومنتظمةً وفقها.

۲. كل عمل يقع بقصد القربة فهو أضحية، حيث ورد فى بعض الأحاديث «إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام». (۳)

۳. سرّ تقديم الأضحية أنّ الحاج والمضحّى يتمسّكان بحقيقة الورع، ويقطعان رقبة الشيطان ويقتلانه (۴)، وعليه فمجرّد ذبح البقرة، أو الماعز، أو نحر الجمل، ثم تركها دون تأمل فى سرّ هذا العمل، لايحقق أساس تعالى الحاج وتساميه.

۴. يقول الإمام الباقر (ع): «إنّ الله عزوجل يحبّ إطعام الطعام وإراقة الدماء» (۵)؛ ومن الممكن أن تكون الحكمة من ذلك فى ضمن حكمة استفادة الجوعى والمحرومين، وانتفاعهم من لحم الأضحية، رغم أنه فى هذا الزمان لايستفاد بشكل صحيح ومناسب من هذه السنّة الإلهية، وهذا النظام الجامع و المفيد.

۱- الحج: ۳۷.

۲- المائدة: ۲۷.

۳- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۹۹، الفقرة: ۷.

۴- أنظر حديث الشبلى المتقدم.

۵- وسائل الشيعة ۳۷۴: ۱۶، وفى صفحة: ۵۳۶ نقلت الرواية عن الإمام الصادق ۷ أيضاً.

ص: ۲۳۹

فی حدیث آخر نشاهد فیه الاهتمام بذبح القرابین والأضاحی؛ یقول الإمام الصادق (ع): «إنّ رسول الله (ص) ساق فی حجته مائة بدنة، فنحر نیفاً وستین، ثم أعطی علیّاً فنحر نیفاً وثلاثین، فلما قدم النبی (ص) مکة فطاف وسعی، نزل علیه جبرئیل ...». (۱)

وقد نقل هذا الحدیث بشکل آخر أیضاً.

۵. إنّ هذه الآیة الشریفة: (لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ) (۲). اعتبرت ذکر الله سبحانه هدفاً إلی جانب المنافع الصوریة والمعنویة للأمة الاسلامیة، وجعلت بدل ذکر اسم القربان، ذکر اسم الله تعالی، وذلک حتی یعلم أنّ الهدف من التضحیة هو تسمیة الله سبحانه، لامجرد الذبح والنحر، فبدل أن یقول: لیضحّوا، قال: أن یذکروا اسم الله أن رزقهم من الأنعام الحلال کالأغنام، بحیث تبدأ التضحیة باسم الله، ویذکر الله أیضاً علی تمام النعم التی قدّمها للناس جمیعاً علی‌امتداد حیاتهم.

۶. لم یذهب سید الشهداء الإمام الحسین (ع) إلی منی عام ۶۰ ه، إلّا أنه قدّم أضاحی کثیرة وثمینة، کما قدّم نفسه الشریفة فداء، لکی تبقی مکة ومنی؛ من هنا عرّف الإمام السجاد (ع) نفسه فی الشام بقوله: «أنا ابن مکة ومنی، أنا ابن مروة والصفا». (۳)

وعلیه، فمن یقدّم نفسه فداء لله تعالی، فإنه یرث من منی وعرفات، لأنّ الأرض مال الله وهو یورثها لمن یرید؛ قال تعالی: (إِنَّ الْأَرْضَ لِلّهِ یُورِثُها مَنْ یَشاءُ) (۴)، کما أنّ أرض الکمال تعود إلیه، ویمکنه أن یورثها من یشاء، وعلی هذا الأساس فإنّ کل

۱- وسائل الشیعة ۱۶۸: ۸.

۲- الحج: ۲۸.

۳- بحارالأنوار ۱۶۱: ۴۵، وقد تقدّم منا توضیح مفصّل نسبیاً حول علاقة الحج بالولایة فیما مضی من أبحاث فلیراجع.

۴- الأعراف: ۱۲۸.

ص: ۲۴۰

شهداء وسالكى طريق الإمام هم ورّاث عرفات، والمشعر، ومنى، وأسرارها.

ص: ۲۴۱

الفصل الثالث عشرحلق شعر الرأس

اشارة

لشعر الرأس تأثير كبير على الجمال الظاهرى للإنسان، ولاسيما الشباب، من هنا يندر أن نجد من يحلق شعر رأسه تماماً، وقد ورد أنّ من يحلق رأس غيره عن إجبار ويسلبه هذا الجمال، فإنّ عليه ديةً واجبة.

ومع ذلك، يجب على الحاج أن يقطع قلبه عن هذا الجمال الظاهرى والصورى الذى يظنه أمراً ذا قيمة، ويقوم- بأمر من الوحى الإلهى- بنثره أمام أقدام الجميل المحض، وطلباً لرضاه.

لقد بلغت صعوبة هذه القضية مبلغاً بين العرب، أنّ ابن أبى العوجاء- بعد خسارته فى المناظرة التى جرت بينه وبين الإمام الصادق (ع)- سئل عنه: كيف وجدت الإمام الصادق (ع) فى المناظرة؟ فأجاب مشيراً إلى الحجاج وقال: «... هو ابن من حلق رؤوس من ترون!». (۱)

إنّ حلق شعر الرأس فى منى إشارة إلى التطهّر من تمام التلوثات الأخلاقيه، والتنظف من صدأ الروح، والخروج من ثقل الذنوب وظلمتها. (۲)

۱- بحارالأنوار ۲۱۰: ۱۰.

۲- أنظر حديث الشبلى المتقدم سابقاً.

ص: ۲۴۲

ولعلّه لذلک یدعو الحاج ربّه، فیقول عند الحلق: «أللهم أعطنی بکل شعرة نوراً یوم القیامة». (۱)

استحباب دفن شعر الحاج فی منی

من وجب علیه فی الحج الحلق أو التقصیر، لزمه- إضافة إلی مراعاة ترتیب الأعمال یوم العاشر من ذی الحجة، أی رمی جمرة العقبة، ثم ذبح الهدی، ثم الحلق أو التقصیر- أن یقوم بهذا کله فی أرض منی، ولیس له الحق أن یحلق أو یقصّر عمداً خارج منی، لکنه لو نسی وکان عوده إلی منی عسیراً، أجزأه الحلق أو التقصیر خارجها.

إنّ أرض منی أکثر الأمکنة مناسبةً لدفن شعر الحاج، لیس فقط من باب عدم سلامة إخراج الشعر من منی عند الحلق فیها، بل حتی لو حلق خارج منی لزمه العود إلیها لدفن الشعر، أو إرساله کی یدفن هناک.

یقول الإمام الصادق (ع): «إنّ المؤمن إذا حلق رأسه بمنی ثم دفنه، جاء یوم القیامة وکل شعرة لها لسان طلق تلبی باسم صاحبه» (۲)، فعندما یقال: إنّ شعری یشهد بالتوحید، فإنّ هذا القول مأخوذ من الروایات. (۳)

۱- وسائل الشیعة ۱۹۰: ۱۰.

۲- المصدر السابق: ۱۸۴.

۳- بحارالأنوار ۱۳۹: ۴۵، و ۲۰۹: ۹۴.

ص: ۲۴۳

الفصل الرابع عشرنهايهٔ الحج

الدخول والخروج الصادق

كما كان الله تعالى مبدأ عالم الوجود و منتهاه (هُوَ الأَوَّلُ وَ الْآخِرُ) (۱)، كذلك مبدأ انطلاق كل الموجودات من الله وخاتمتها وأعمالها بالرجوع إليه (إِنَّا لِلهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ) (۲)، (ألا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ). (۳)

بناءاً عليه، لزم أن يبدأ كل موحّد عمله وأىّ عمل، باسم الله تعالى، و تكون خاتمهٔ عمله ذكره سبحانه، ولا يشرع بعمل دون اسم الله، ولا يخرج من أى عمل دون ذكر الله، إنّ معنى اسم الله وذكره، فى بدايهٔ ونهايهٔ أى عمل، هو حضور الاعتقاد التوحيدى فى بنيهٔ عمله، والانتباه إلى الحضور الإلهى فى أعماله ومستوياتها.

ومن أهم هذه الأمور الحج؛ لأنّ بدايته والدخول فيه يكون بالإحرام والتلبيهٔ، وعلى أساس التوحيد وصدق النيهٔ، كما أنّ الخروج منه، وإتمام الحج، ووداع الكعبهٔ، يقوم على أساس التوحيد وصدق الإرادهٔ. (۴)

۱- الحديد: ۳.

۲- البقرهٔ: ۱۵۶.

۳- الشورى: ۵۳.

۴- الإسراء: ۸۰.

ص: ۲۴۴

من هنا يقول الإمام الرضا (ع) عند وداع الكعبة: «أللهم إنى أنقلب على أن لا إله إلّا أنت» (۱)؛ أى إنى يا إلهى أنهى عملى، وأعود مجدداً إلى مكة على أساس التوحيد ونفى مختلف أشكال الطواغيت.

وعن هذا المحور العام يقول الإمام الباقر (ع) فى حديثه عن الدخول فى الكعبة، وهو المصداق الكامل (فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) (۲)، يقول (ع): «الدخول فيها دخول فى رحمة الله، والخروج منها خروج من الذنوب». (۳)

ومن آداب وداع الكعبة الدعاء والتضرّع لله سبحانه، يقول الإمام الصادق (ع): «أللهم اقلبنى مفلحاً منجحاً مستجاباً لى بأفضل مايرجع به أحد من وفدك من المغفرة والبركة والرضوان والعافية مما يسعنى أن أطلب ..». (۴)

ومن الآداب الأخرى، أن يضع الحاج أو الزائر يده على الكعبة عند آخر لقاء معها، ويقول مخاطباً ربّه: «المسكين على بابك، فتصدّق عليه بالجنّة». (۵)

الحج المقبول

يقول الرسول الأكرم (ص) فى بيانه لمعيار الحج المقبول: «من علامة قبول الحج، إذا رجع الرجل عما كان عليه من المعاصى، هذا علامة قبول الحج، وإن رجع من الحج، ثم انهمك فيما كان عليه من زنا، أو خيانة، أو معصية، فقد ردّ عليه حجّه» (۶)، و «آية قبول الحج ترك ما كان عليه العبد مقيماً من الذنوب». (۷)

۱- وسائل الشيعة ۲۳۲: ۱۰.

۲- البقرة: ۱۱۵.

۳- وسائل الشيعة ۳۷۰: ۹.

۴- المصدر السابق ۲۳۱: ۱۰- ۲۳۳.

۵- المصدر السابق.

۶- مستدرک الوسائل ۱۶۵: ۱۰- ۱۶۶.

۷- المصدر السابق: ۱۶۶.

ص: ۲۴۵

إنّ هذا ما يشير إلى سرّ آخر فى الحج؛ لأنّ أسرار العبادات تظهر فى القيامة، وهى اليوم الذى تظهر فيه بواطن الأفراد وأعمالهم. (۱)

وفى ذلك اليوم لايرى الإنسان نتائج عمله فحسب، بل أسباب ردّها أو قبولها أيضاً.

وبناءاً عليه، فمن تمكّن فى الدنيا أن يفهم قبول حجّه أو نكوله، فقد بلغ زاويةً من زوايا أسرار الحج، وتلقائياً سوف يدرس أسباب القبول أو الردّ حينئذٍ.

إنّ المعيار الذى قدّمه كلام رسول الله (ص) حول علامات الحج المقبول، يتحقق فى سائر العبادات أيضاً، تماماً كما يقول الله تعالى حول الصلاة: (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ) (۲)، فحقيقة الصلاة لها أثر تكوينى فى المصلّى، بحيث تؤدى إلى إيجاد تحوّلات وتعديلات فى دوافعه، و إراداته، ورغباته، وقراراته، وعزمه و ... فهو بالنسبة إلى الخير عازم ومصمم، وبالنسبة إلى الشرّ كاره ومستقذر، يختار الابتعاد عنه.

إنّ الأحاديث المتقدّمة تبيّن لنا أنّ روح الحج وحقيقته أمر تكوينى، و هى التى تحول دون عزم الحاج أو إرادته ما لا يليق ولا ينبغى.

وخلاصة القول: الحاج يتطهّر بالقيام بأعمال الحج من كل ألوان التلوّث، ومادام لا يلوّث بذنب أو قذارة فهو نورانى، كما يقول الإمام الصادق (ع): «الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يلمَّ بذنب». (۳)

۱- الطارق: ۹.

۲- العنكبوت: ۴۵.

۳- وسائل الشيعة ۶۸: ۸، ۳۲۸.

ص: ۲۴۶

إنّ مشاهدة هذه النورانیة تجعل الحاج آملًا بقبول حجّه من الله تعالی.

ارشادات النبی (ص) فی حجة الوداع

وختاماً نحاول أن نتعلّم من الکلمات النورانیة لخاتم النبیین (ص) فی حجةالوداع، بعضاً من نظام الحج وأسراره. (۱)

خاتم الأنبیاء (ص) إنسان کامل یتحلّی بالکمالات الظاهرة، والمقامات المعنویة، من هنا قال فی تعلیمه أحکام الحج الفقهیة والعملیة: «خذوا عنی مناسککم» (۲)؛ تماماً کما قال حول تعلیم أحکام الصلاة: «صلّوا کما رأیتمونی أصلّی». (۳)

وقد تحدث رسول الله (ص) حول تعلیم أسرار الحج وبیان بعض زوایاه فی حجةالوداع، و ذکر بعض التوجیهات، ومنها:

۱. تهذیب النفس وتزکیة الروح فی المحاور الثلاثة: التوحید، الارتباط بالإمام، والاتحاد والاتفاق وحفظ الانسجام العام بین المؤمنین، قال (ص): «ثلاث لایغل علیهنّ قلب امْرِءٍ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصیحة لأئمة المسلمین، واللزوم لجماعتهم». (۴)

وعلیه، فالحاج یعبد الله سبحانه، مع إخلاص العمل الکامل الذی لا تشوبه شائبة فی الدین، وینصح أئمته وقادته، ویرید الخیر لهم، ویلزم المجتمع الإسلامیة.

۱- حج رسول الله ۹ فی حیاته ۲۱ مرة، کانت واحدة منها فقط بعد الهجرة، ورغم أنه فی ذی‌القعدة من العام السادس والسابع والثامن بعد الهجرة قد اعتمر، عمرة الحدیبیة فی العام السادس، وعمرة القضاء فی العام السابع کما اشتهرت التسمیة، إلّا أنه ۹ بعد الهجرة لم تتسنّ له فریضة الحج إلّا مرة واحدة فی العام العاشر للهجرة، وهی المعروفة بحجة الوداع، وأحیاناً تسمی حجةالإسلام وحجة البلاغ، وقد تحدّثت النصوص الحدیثیة عن هذه الحجة، واعتبرت أساساً لأعمال الحج عند المسلمین. أنظر الکافی ۲۴۴ : ۴ - ۲۵۲؛ وبحارالأنوار ۳۷۸: ۲۱- ۴۰۷.

۲- عوالی اللئالی ۲۱۵: ۱.

۳- المصدر السابق: ۱۹۷.

۴- الکافی ۴۰۳: ۱ - ۴۰۴، والجملة الأخیرة جاءت فی تاریخ الیعقوبی ۱۰۹: ۲، علی الشکل التالی: «والنصیحة لأئمة الحق واللزوم لجماعة المؤمنین» وقد جاءت هذه الخطبة فی حجةالوداع فی مسجد الخیف فی منی.

ص: ۲۴۷

۲. إقامة الأمن على مختلف الصعد، وحفظ أموال الناس ودمائها من الاعتداء، قال (ص): «فإن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم ... واتقوا الله، و لاتبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا فی الأرض مفسدين، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها». (۱)

وعليه، فعلى الحاج أن يكون أميناً على أعراض الناس وأسرارها، فإنّ قلوب الأحرار كنوز الأسرار.

۳. حفظ مبدأ المساواة الشخصية والعرقية، قال (ص): «الناس فی الإسلام سواء ... لافُضّل عربیٌّ على عجمی ولا عجمی على عربی إلّا بتقوى الله»، فالحاج قاصد لمساواة الخلق، و لايرى نفسه خيراً منهم، ولا قومه خيراً من الآخرين، بل يساوى بين الناس والأمم والشعوب.

۴. تطهير المجتمع الإسلامی وتصفيته عن العادات الجاهلية فی قضايا المال والدم والبغض والحقد والضغينة، بمعنى أنّ الدماء التی كانت تراق فی الجاهلية على قانون الانتقام والثأر والأحقاد قد انتهت، وتهاوى الربا الذی يمثل امتصاصاً اقتصادياً لدماء الناس، قال (ص): «كل دم كان فی الجاهلية موضوع تحت قدمی ... وكل رباً كان فی الجاهلية موضوع تحت قدمی، و أول رباً أضعه ربا العباس بن عبدالمطلب».

۵. رعاية حقوق المرأة، وحسن التعامل معها، ومجازاتها بالعدل، قال (ص): «أوصيكم بالنساء خيراً ... ولكم عليهنّ حق، ولهنّ عليكم حق، كسوتهنّ، ورزقهنّ بالمعروف».

وعليه، فالحاج ناظر مراقب لمراعاة الآيات القرآنية الشريفة: (وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً

۱- تاريخ اليعقوبی ۱۰۹: ۲- ۱۱۲، إنّ ما سننقله بعد الآن من كلمات، هو جزء من خطبة أخرى للرسول ۹ فی حجة الوداع، وما ذكرناه أعلاه ذكره اليعقوبی فی الخطبة التی ألقيت عند بئر زمزم، وقد جاءت هذه الخطبة عينها بنص مختصر، وبعض الاختلاف فی العبارات، بوصفها خطبة للنبی فی عرفات أو منى، فی مصادر أخرى. أنظر: الكافی ۲۷۳: ۷- ۲۷۵؛ وبحارالأنوار ۳۸۰: ۲۱، ۴۰۵، و ۱۱۳: ۳۷، و ۳۴۹: ۷۳.

ص: ۲۴۸

وَ رَحْمَةً) (۱)، (هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ) (۲)، و (وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِی عَلَیْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ). (۳)

۶. احترام حقوق العمال والعبید، ورفع حاجاتهم فی المأکل، والمشرب، والملبس، «فأوصیکم بمن ملکت أیمانکم، فأطعموهم مما تأکلون و ألبسوهم مما تلبسون».

فالحاج یحبّ العاملین عنده، و لایری نفسه أرفع منهم، بل یجلس معهم علی سفرة واحدة، ویلبسهم مما یلبس.

(ع). مراعاة أصول الأخوة، والفضائل الأخلاقیة مع الأخوة فی الدین، والمحافظة علی مکانتهم، و ماء وجههم، وعلی أموالهم، ودمائهم؛ قال (ص): «إنّ المسلم أخو المسلم، لا یغشّه، ولا یخونه، ولا یغتابه، ولا یحلّ له دمه، و لاشیء من ماله الّا بطیبة نفسه».

إنّ الحاج یراعی مع أخیه المسلم قواعد الأخوة الدینیة، فهو طاهر و لایقصد إلّا ما هو طاهر نقی.

۸. تکریم القرآن، وأهل بیت النبوة والإمامة، وکسب الإلهام منهما، و عدم الانفصال عنهما: «إنی قد خلّفت فیکم ما إن تمسّکتم به لن تضلّوا: کتاب الله وعترتی أهل بیتی».

فالحاج یتمسک بحبل الله، ومن تمسّک بهذا الحبل نال الهدایة. (۴)

۹. أن یعتبر الجمیع مسؤولین أمام القانون الإلهی، ویدافع عن أحکام الإسلام، ویبلّغ ما رآه فی مشهد الحج وزیارة الکعبة لغیره، قال (ص): «إنکم مسؤولون، فلیبلّغ الشاهد منکم الغائب».

فالحاج فقیه لمن لم یحضر من المسلمین المشاهد والمواقف، ولم یدرک الحرمین، وما

۱- الروم: ۲۱.

۲- البقرة: ۱۸۷.

۳- البقرة: ۲۲۸.

۴- آل عمران: ۱۰۱.

ص: ۲۴۹

فیهما من لقاءات وتجمّعات.

۱۰. طرح ولایـة أمیرالمؤمنین علی‌بن‌أبی‌طالب (ع) وتعریف الأمة بإمامها، واعتبار إطاعته کطاعة النبی (ص)، وفی نهایة المطاف إیجاد حیاة إسلامیة معقولة، والنجاة من حیاة الجاهلیة.

عنـدما رجع الرسول (ص) إلی المدینـة، قـال فی غـدیرخم: «من کنت مولاـه فعلیّ مولاـه، أللهم وال من والاـه، وعـاد من عـاداه» (۱)؛ فبوصول الإمام علی (ع) إلی هذا المقام، تمت النعمة وکمل الدین. (۲)

۱- تاریخ الیعقوبی ۱۱۲: ۲، والکافی ۲۹۵: ۱.

۲- المائدة: ۳.

ص: ۲۵۰

القسم الرابع: الزيارة

القسم الرابع الزيارة

الفصل الأول إتمام الحج والعمرة بالزيارة

اشارة

ص: ۲۵۱

ثمـة فی «إتمام الحـج والعمرة» المأمور به فی الآيـة الشـريفة (وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلّهِ) (۱)، أبحاث فقهية حول دلالتها على تحصـيل الأـجزاء والشـرائط، وتجنب الموانع، كمـا جـاء فی بعض الروايـات أنّ تشـرّف الحاج بزيارة الإمام المعصوم (ع) هو من مصاديق إتمام الحج.

ومن الطبيعی أنه ليس المراد من الزيارة المـدعوّ إليها فی الحـج هو زيارة القبور فقط، وإن كانت هـذه الزيارة من حقوق الولاية، وإنما المراد لقاء القائد الإسلامی، والوعی بمراتب الولاية، وعرض النصرة عليه، تماماً كما أنّ الهدف من الحضور إلى

۱- البقرة: ۱۹۶. والإتمـام تـارة يكون بلحـاظ الامتـداد الزمـانی، مثل الإتمام المأموربه فی قوله‌تعالى: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ البقرة: ۱۸۷، وأخرى بلحاظ رعايـة تمام الشـروط والقيام بتمام الأجزاء وتجنب تمام الموانع المانعة عن الفعل المأموربه، وهذا مثل قوله‌تعالى: وَ أَتِمُّوا الْحَـجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ، وعلى هـذا الأساس فإتمام الحـج هو الإحرام من المواقيت المعينة وسائل الشـيعة ۲۳۴: ۸، ۲۴۱- ۲۴۳، وقد اعتبر لقـاء الإمام المعصوم ۷ من المصاديق الباطنيـة لإتمام الحـج، كما اعتبرت مراعاة التقوى الإلهيـة وتجنب اللغو واللهو من مصاديقه أيضاً، وفی هـذا يقول الإمام الصادق ۷: «إتمامها أن لارفث ولافسوق ولاجـدال فی الحج» وسائل الشـيعة ۱۱۰: ۹ وهـذا معنى أنّ الآية اللاحقـة لهـذه الآيـة هی المبينة للمراد من الإتمام، كما قال ۷ فی روايـة أخرى حـول ذلـك: «إذا أحرمت فعليـك بتقوى الله وذكر الله كثيراً وقلّة الكلام إلّا بخير، فإنّ من تمام الحج والعمرة أن يحفظ المرء لسانه إلّا من خير». الكافی ۳۳۸: ۴.

ص: ۲۵۲

قبره هو السلام عليه، والدعاء والتضرّع بمحضر الله المتعال سبحانه.

وهذه بعض الروايات الواردة فى هذا المجال:

۱. يقول الإمام الباقر (ع): «إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا ويخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم». (۱)

۲. يقول الإمام الباقر (ع): «تمام الحج لقاء الإمام» (۲)، أى أنه المصداق البارز لإتمام الحج، فالحج بدون لقاء الإمام غير تام.

۳. ويفسّر الإمام الصادق (ع) ظاهر الآية الشريفة: (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) (۳)، بتقصير شعر الشارب، وقصّ الأظفار وأمثال ذلك، لكنه يذكر أن باطنها (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ)، هو لقاء الإمام، كما أنّ (وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) هو القيام بمناسك الحج. (۴)

فعلى أساس هذا الحديث يكون ظاهر الآية إصلاح البدن، أما باطنها فإصلاح الباطن بلقاء الإمام (ع).

فضيلة التشرّف بزيارة المدينة بعد الحج

يستفيد الحاج لأداء مناسك الحج والعمرة عن طريق المدينة إلى مكة، أنه يكسب فضيلة الإحرام من مسجد الشجرة، وهو المكان الذى أحرم منه رسول‌الله (ص)، أما الذين يتوجهون إلى المدينه بعد الحج، فإنهم يكسبون فضيلة أخرى وردت فى الروايات، فقد سئل الإمام الباقر (ع) عن جعل مكة أو المدينة بدء سفر الحج؟ فقال: «إبدء بمكة واختم بالمدينة، فإنه أفضل» (۵)، وفى حديث آخر قال (ع): «ابدؤوا بمكة

۱- الكافى ۵۴۹: ۴.

۲- المصدر السابق.

۳- الحج: ۲۹.

۴- الكافى ۵۴۹: ۴.

۵- المصدر السابق.

ص: ۲۵۳

واختموا بنا». (۱)

وطبقاً لبعض الروايات (۲)، وللكثير من المنقولات الآتية من المشاهدات فى زمن الغيبة، إنّ حضور إمام الزمان (أرواحنا فداه) فى موسم الحج ومراسمه كل عام أمر مسلّم، لكن حيث إنّ التشرّف بلقائه (ع) لايكون إلّا نصيب الأوحدى من الناس، لذا ورد فى روايات متعدّدة، الأمر بزيارة قبور أهل بيت العصمة والطهارة:، وعرض مظاهر الأدب والمحبّة بين أيديهم وفى محضرهم. (۳)

۱- الكافى ۵۴۹: ۴.

۲- المصدر السابق ۳۳۷: ۱؛ من لايحضره الفقيه ۵۲۰: ۲.

۳- وسائل الشيعة ۲۵۱: ۱۰- ۴۵۵.

ص: ۲۵۴

الفصل الثانی الزیارة حضور فی مقام الإنسان الکامل

لأهل بیت العصمة والطهارة:- من حیث کونهم الإنسان الکامل ومظهر الإسم الأعظم الإلهی- مزایا وجودیة خاصة تستدعی حقوقاً واستحقاقات خاصّة أیضاً.

وللتعرّف علی وظائف الآخرین تجاه هذه الذوات المقدّسة، من اللازم الإشارة إلی بعض خصائصهم حتی یتسنّی العلم بواجب الآخرین تجاههم، أی العلم بمقامهم.

۱. أهل بیت الوحی: هم الجامعون للکلام التکوینی والتدوینی، والواجدون لکتاب الحقیقة والشریعة، الشاملون لنشأتی الحقیقة والاعتبار، ویقصد بجامعیتهم العلمیة والعینیة أنهم حائزون علی کل کمال ممکن بلانقص، وأنّ کل ما عندهم مصون من العیب، وکل ما عندهم فی مرحلة الحدوث فهو عندهم فی مرحلة البقاء أیضاً.

۲. لاسبیل لمعرفة الإنسان الکامل إلّا بصیرورة الإنسان کاملًا، وعلیه، فلا یمکن إدراک کنه ذواتهم النوریة لغیرهم، لا بالعلم الحضوری والمعرفة العرفانیة الشهودیة، ولا بالعلم الحصولی والمعرفة الحکمیة الفلسفیة، هم الکاملون و مظهرو الله الذی قیل فیه: «لا یدرکه بُعد الهمم ولا یناله غوص الفطن». (۱)

وبعد اتضاح أنّ إدراک مقام الإنسان الکامل غیر مقدور لغیره، نأتی للحدیث عن

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۱، الفقرة: ۱- ۲.

ص: ۲۵۵

وظیفـة الآخرین تجاهه، فوظیفـة المجتمع الإنسانی أن یدرک بعقله حقانیة أهل بیت العصـمة:، وبقلبه محبتهم، ویحیی بجسـمه وروحه ذکرهم و إسـمهم، کالعطشـان الـذی یبلغ الکوثر الزلالـ، فیـبرّد کبـده الحرّی به، ویقرّ عینه، ویبعث الحیـاة فی قواه المتهالکـة، فیبعث النشـاط فی نفسه، ویرطب فمه الجـاف «وبینکم عترة نبیکم وهم أزمـة الحق وأعلاـم الـدین وألسـنة الصـدق، فـأنزلوهم بـأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهیم العطاش». (۱)

ویمکن شـرح وظـائف المجتمع الإنسـانی بکلمـات الإمـام الهـادی (ع) النیرة فی الزیارة الجامعـة الکبیرة حیث یقول: «أشـرقت الأرض بنورکم، وفاز الفائزون بولایتکم، بکم یسلک إلی الرضوان، وعلی من جحد ولایتکم غضب الرحمن». (۲)

۳. الإنسان الکامل خلیفـة الله، والمظهر التام لبسـیط الحقیقة، وهو الآیة الکبری لـ: (لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ) (۳)، من هنـا لا یکون فی کل عصر أکثر من خلیفة مطلق واحد، وهو شخص واحد جامع لکافة الشؤون الکمالیة.

۴. جـاء عن رسول الله (ص): «نحن أهل بیتٍ لا یقاس بنا أحـد» (۴)؛ وهو مـا ذکره أمیرالمؤمنین (ع) بعبارة أخری حیث قال: «لایقاس بآل محمـد (ص) من هـذه الأمة أحد، ولا یُسَوّی بهم من جرت نعمتهم علیه أبداً؛ هم أساس الدین، وعماد الیقین، إلیهم یفیء الغالی، وبهم یُلحق التالی، ولهم خصائص حق الولایة، وفیهم الوصیة والوراثة». (۵)

أی لاـ یمکن أن یقـارن أو یقـاس إنسان عادی بأهل بیت العصـمة والطهارة:؛ لأنّ الخلفاء الواقعیین والإنسان الکامل یقاسون ببعضـهم، ولیس بسائر الناس.

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۸۷، الفقرة: ۱۴- ۱۵.

۲- مفاتیح الجنان.

۳- الشوری: ۱۱.

۴- بحارالأنوار ۴۴: ۶۵.

۵- نهج البلاغة، الخطبة: ۲، الفقرة: ۱۲- ۱۴.

ص: ۲۵۶

إنّ أهـل بیت الوحی: هم مجـاری النعم وأولیاؤها، ولا یقاس المتنعِّم أبـداً مع مجاری النعمـة وأولیائها، إنّ هـذه الـذوات النورانیـة هی مظهر للأسماء الحسنی الإلهیة، والذات الإلهیة الأقدس لاتقاس بأی شخص آخر ... «ولایدرک بالحواس، ولایقاس بالناس ...». (۱)

وعلیه، فلا یقاس أهل بیت العصمة و الطهارة بأحد أبداً، و هم بمثابة لیلة القدر فی الزمان، والکعبة فی المکان.

۵. مـن أفضـل وسائـل التقرّب إلی الله، ممـا أمر بـه و بابتغـائه و الاعتصـام بـه، هـو ذکر منـاقب آل طه ویاسـین، والشـعور بالسـرور فی موالیـدهم، والإحساس بالهم والألم فی ذکری مصائبهم؛ لأنّ الارتباط العقلی والعاطفـة بهـذه الذوات النوریة- وهی إنسان کامل- یعدّ أساساً للانتفاع بمعارف القرآن، والاستفادة بسنّة المعصومین:، تماماً کما یتوفر التعهّد الإلهی فی ظلّ الارتباط بخلیفة الله تعالی.

یقول الإمـام علی بن موسـی الرضـا (ع): «إنّ لکـل إمام عهـداً فی عنق أولیائه وشـیعته، وإنّ من تمام الوفاء بالعهـد وحُسن الأداء زیارة قبورهم؛ فمن زارهم رغبةً فی زیارتهم، وتصدیقاً بما رغبوا فیه، کان أئمتهم شفعاءهم یوم القیامة». (۲)

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۸۲، الفقرة ۱۴- ۱۵.

۲- الکافی ۵۶۷: ۴.

ص: ۲۵۷

الفصل الثالث الزيارة مظهر المحبة

الزيارة هى حضور المحبة فى محضر المحبوب، وابراز المودّة والمحبّة لقادة الدين هو إظهار للتواضع أمام الدين وأعلام الإيمان، وذلك:

أولًا: ليس الدين سوى المحبة. (۱)

ثانياً: حب محبوب الله هو حبٌّ لله تعالى، والزيارة مظهر من مظاهر المحبة.

يضاف إلى ذلك، من يحبّ مظهر المحبة الإلهية الكاملة وحبيب الله تعالى، أى رسول الله (ص)، فهو يطيعه، وإطاعة محور المحبة الإلهية هذا، يدفع الإنسان للتسامى، ومحبة الله تعالى له؛ قال سبحانه: (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ). (۲)

وهناك روايات كثيرة حول محبة النبى (ص) وعترته الطاهرين: نكتفى هنا بنقل أنموذجين منها:

۱. يقول أنس بن مالك: جاء رجل من أهل البادية- وكان يعجبنا أن يأتى الرجل من أهل البادية يسأل النبى (ص)- فقال: يا رسول الله! متى قيام الساعة؟ فحضرت الصلاة، فلما قضى صلاته، قال (ص): «أين السائل عن الساعة؟» قال: أنا يا

۱- بحارالأنوار ۹۴: ۲۷- ۹۵.

۲- آل عمران: ۳۱.

ص: ۲۵۸

رسول الله، قال: «فما أعددت لها؟» قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل: صلاة ولا صوم، إلّا أنى أحبّ الله ورسوله، فقال له النبى (ص): «المرء مع من أحبّ»، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشىء أشدّ من فرحهم هذا. (۱)

۲. وفى حديث آخر على حدّ سلسلة الذهب، يقول أميرالمؤمنين الإمام على (ع): «جاء رجل من الأنصار إلى النبى (ص) فقال: يا رسول الله! ما أستطيع فراقك، وإنى لأدخل منزلى فأذكرك فأترك ضيعتى، وأقبل حتى أنظر إليك حباً لك، فذكرت إذا كان يوم القيامة، و أدخلت الجنة، فرفعت فى أعلى علّيين، فكيف لى بك يا نبى الله؟ فنزل: (وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً) (۲)، فدعا النبى (ص) الرجل فقرأها عليه وبشره بذلك». (۳)

الجدير بالذكر- كما أشرنا مطلع هذا الفصل- أنّ زيارة قبور أهل بيت العصمة والطهارة: مظهر للمحبة، وجانب من وظائف المؤمنين فى حقّ هذه الأسرة، ومن الطبيعى أنّ المؤمنين ينتفعون بهذا العمل ويستفيدون منه، قال سبحانه: (قُلْ لاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى) (۴)، (قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ). (۵)

۱- بحارالأنوار ۱۳: ۱۷.

۲- النساء: ۶۹.

۳- بحارالأنوار ۱۸۸: ۸.

۴- الشورى: ۲۳.

۵- سبأ: ۴۷.

ص: ۲۵۹

الفصل الرابع أدب الحضور

بيّن الله سبحانه أنّ من شرط الدخول على النبى (ص) أخذ الإذن منه والدعوة، قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ... إذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ...). (۱)

وينهى الله تعالى المتشرّفين بمحضر رسول الله (ص) عن أعمال وأقوال وأفكار تؤذى النبى (ص): (وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ) (۲)؛ لأنّ مجلسه (ص) مجلس علم وحكمة وليس محفلًا للّهو والأنس، وسوف يأتى مزيد توضيح لهذه الآية إن شاء الله.

لقد دعا القرآن الكريم المؤمنين إلى مراعاة أدب الحضور عند النبى الأكرم (ص) إنه يقول: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) (۳)، وهذه التصرفات تستدعى إحباط الأعمال ومحوها: (وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ). (۴)

فى المقابل، تعد مراعاة قواعد الأدب هذه علامةً على التقوى القلبى، والغفران

۱- الأحزاب: ۵۳.

۲- المصدر السابق.

۳- الحجرات: ۲.

۴- المصدر السابق.

ص: ۲۶۰

الإلهی، قال تعالی: (إِنَّ الَّذِینَ یَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِکَ الَّذِینَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوی لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِیمٌ). (۱)

أما من لا یراعی الأدب معه (ص)، ویتکلمون معه بصوت مرتفع، فهم ممن لاعقل لهم: (إِنَّ الَّذِینَ یُنادُونَکَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْقِلُونَ). (۲)

وعلی أساس هذه الآیات، وآیات أخر مثل: (إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً* لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ) (۳)، یکون تجلیل النبی (ص) بوصفه شعاراً إسلامیاً، وظیفةً حیة تستمر فی حیاته وبعد وفاته، لأنّ مقام الرسالة حی علی الدوام، فالیوم عندما یتشرف الزوار بزیارة حرمه المطهر، یلزمهم أیضاً مراعاة أدب الحضور.

الجدیر بالذکر أنّ ما قلناه حول مراعاة حرمة وأدب اللقاء بمحضر رسول‌الله (ص) ومرقده وحرمه، یجری أیضاً فی حقّ خلفائه المعصومین وذریته الطّیبین، علی ما له (ص) من کرامة خاصة وحرمة.

۱- الحجرات: ۳.

۲- الحجرات: ۴.

۳- الفتح: ۸- ۹.

ص: ۲۶۱

الفصل الخامس ضيافة النبى (ص)

ثمة آيات فى القرآن الكريم تبيّن آداب التشرّف بالحضور عند رسول‌الله (ص)، وكيفية مناداته، والتحدّث إليه وأمثال ذلك، إنّ مراعاة آداب التشرف، والحضور هذه، لها دور فاعل فى الاستفادة من المواهب والعنايات الخاصّة.

يستفاد من الآية الشريفة: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ...) (۱)، عدة أمور:

أولًا: يسمح للمؤمنين فقط بضيافة الرسول الأكرم (ص)؛ لأنّ الخطاب هنا كان موجهاً إلى أهل الإيمان.

ثانياً: يجب أن يكون هذا الحضور عن استئذان مسبق من قبل الضيف أو الزائر، بأن يكون بإذن من المضيف أو دعوة، لهذا جاء: (إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ... وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ...)، وفى هذه الحالة سيكون الإطعام إطعاماً نبويّاً، قال سبحانه: (فَإِذا طَعِمْتُمْ ...).

إنّ هذا الإطعام كما يمكن أن يكون ظاهرياً ومادياً، كذلك يمكن أن يكون باطنياً ومعنوياً، أى من غذاء الروح لا الجسد، تماماً كما يقول الإمام الصادق فى ذيل قوله

۱- الأحزاب: ۵۳.

ص: ۲۶۲

تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ) (۱): «علمه الذى يأخذه عمّن يأخذه». (۲)

إنّ الله يتحدث عن شروط الاستفادة من التغذية العلمية والمعنوية للرسول الأكرم (ص): فى محضر النبى لاتجلسوا للمؤانسة، و لاتتحدثوا بكلام فاقد لأى نوع من المعرفة والحكمة، إنّ مجلس النبى مجلس علم وحكمة وليس محفلًا للإنس، والتلهّى وتمضية الوقت، فإذا أتيتم لكسب المعرفة ونيل الكمالات فلا تخوضوا بما يؤذى النبى (ص) .. (وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِى مِنْكُمْ). (۳)

إنّ الأكل السيّء، والتخمة، والاستئناس، والمؤانسة، ومجالس الأنس فى الفنادق، ومنازل المسافرين ... ذلك كلّه مانع عن الإحساس بلذة المناجاة والزيارة فى المدينة المنورة، ففى الرواية أنه أتى أبوحجيفة النبى (ص) وهو يتجشى، فقال (ص): «اكفف جشاءك، فإنّ أكثر الناس فى الدنيا شَبْعاً أكثرهم جوعاً يوم القيامة». (۴)

لابد من الالتفات إلى أنّ الباب والحائط وأمثالهما ليست حاجباً أو مانعاً عن الحضور، وإلّا لم يقل الزائر: «أللهم إنى ... أعلم أنّ رسولك وخلفاءك: أحياء عندك يرزقون، يرون مقامى ويسمعون كلامى ويردون سلامى ...» (۵)، «وأشهد أنك تسمع الكلام وتردّ الجواب». (۶)

لقد حددّ الله تعالى الغذاء المعدّ لضيوف الرسالة، ومنه صلاة الليل، وهى صلاة خاصة لرسول الله (ص) قال تعالى: (وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً) (۷)، إنّ الضيوف الحقيقيين للرسول الأكرم (ص) لايمكن أن يبقوا محرومين من

۱- عبس: ۲۴.

۲- الكافى ۴۹: ۱.

۳- الأحزاب: ۵۳.

۴- بحارالأنوار ۳۳۲: ۶۳.

۵- مفاتيح الجنان، إذن الدخول إلى الحرم والمشاهد المشرفة للأئمة:.

۶- المصدر السابق، زيارة الإمام الحسين ۷ فى النصف من رجب.

۷- الإسراء: ۷۹.

ص: ۲۶۳

إحياء الليل، فإنّ ضيافة النبى (ص) التهجّد، أما التهجّد فى الليل مع السَّبَح الطويل فى النهار والذى يسلب الإنسان مجال التهجّد فى الليل، فهو أمر غير متناغم ولا منسجم.

إنّ الزوار الحقيقيين ليسوا فقط ضيوفاً، بل ورّاث للرسول (ص)، وسهم الورثة ونصيبهم أرفع وأفضل وأكثر من حظ الضيوف، إنه ليبلغ حدّ صلاة الله وملائكته عليهم، قال سبحانه: (هُوَ الَّذِی یُصَلِّی عَلَیْکُمْ وَ مَلائِکَتُهُ لِیُخْرِجَکُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ). (۱)

وعليه، فإنّ حاصل ضيافة الرسول الأكرم (ص) هو صلوات الله وملائكته على الزوّار الحقيقيين، ونتيجة هذا السلام وهذه التحية الإلهية صيرورتهم نورانيين، والإنسان النورانى لايلحظ ولايرتبط بالظلمة وبالماديات فاقدة القيمة والاعتبار، إنه لايتعلّق بظواهر الدنيا الخادعة؛ فقد قال رسول الله (ص): «ليست الدنيا من محمد ولامن آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة، ما أسقى فيها كافراً شربة ماء». (۲)

۱- الأحزاب: ۴۳.

۲- بحارالأنوار ۲۰: ۴۳.

ص: ۲۶۴

الفصل السادس بيوت الحقّ الرفيعة

يقول الله تعالى- وهو مؤدب أولياءه-: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) (۱)، إنّ البيت فى هذه الآية وبعض الآيات الأخرى لايقتصر على المسكن المتعارف، بل قد يراد منه بيت النبوة والولاية وأمثالهما، كما قال النبى نوح (ع): (رَبِّ اغْفِرْ لِى وَ لِوالِدَىَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً). (۲)

من ناحية أخرى، لا تقف مصاديق البيوت الواردة فى الآية الشريفة: (فِى بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ) (۳)، عند المساجد وأمثالها، بل تتعدى لمشاهد المعصومين:، كما أنه- بالاستعانة بما قدمناه- تشمل مقام الرسالة والولاية والإمامة أيضاً.

ويؤيد ماذكرناه حديث جاء فيه أنّ قتادة جاء إلى الإمام الباقر (ع): ... والله لقد جلست بين يدى الفقهاء وقدام ابن عباس، فما اضطرب قلبى قدام أحد منهم ما اضطرب قدامك؛ فقال له أبوجعفر (ع): «أتدرى أين أنت؟ أنت بين يدى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ..». (۴)

۱- الأحزاب: ۵۳.

۲- نوح: ۲۸.

۳- النور: ۳۶.

۴- الكافى ۲۵۶: ۶.

ص: ۲۶۵

فمقام الرسالـة والولايـة والإمامـة بيت الله الرفيع؛ على هـذا، من المناسب للزائرين أن لايـدخلوا إلى حرم أئمة البقيع: بأحذيتهم، (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً) (۱)، وليس من التجليـل لهـذه الـذوات النورانيـة أن يرمى الزائر نفسه على القـبر، بـل من الأـدب والاحترام أن يكسب إذن الدخول أولًا عندما يرد البقيع، ثم يدخله حافياً وبهدوء وتروّ، وبكل مظاهر التواضع، وعندما تجرى علىلسانه أسـماء الحسن بن على المجتبى، وعلى بن الحسـين السـجاد، ومحمد بن على الباقر، وجعفر بن محمد الصادق:، أو يرى قبورهم يشـعر باللذة، ويمكنه أن يقول: «فما أحلى أسماءكم ...» (۲)، وما أحلى أثركم وما أشدّ جاذبية قبوركم.

وفى هـذه الحال وهـذا المقام، إذا أحسّ الإنسان فى نفسه بتغيّر حالته، فعليه أن يعلم بأنّ هؤلاء الأئمـة المعصومين: قد تركوا- بإذن الله تعـالى- أثراً، إن (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأـمِينُ* عَلى قَلْبِكَ) (۳)، أخـذ يتحـدّث إلى قلوب الزائرين، إذا شـعر الزائر بتغير حاله، فليعلم أنّ هذه الذوات النورانية تتحدث معه، وفى غير هذه الحالة سـتكون زيارته بدون روح، ومثل هذه الزيارة وإن لم تعدم الثواب، إلّا أنهّا كعدمها على المستوى الباطنى، وعليه أن يتضرّع إلى الله تعالى كى لايظلّ محروماً من نيل هذا الفيض العظيم.

إنّ قساوة القلب، وجمود العين الناشئين من الميل إلى الدنيا، لايسمحان للإنسان بالإحساس بنور الأئمة المعصومين:، وبسماع كلماتهم، باذُن القلب والروح.

والحمد لله رب العالمين

۱- طه: ۱۲.

۲- مفاتيح الجنان، الزيارة الجامعة الكبيرة.

۳- الشعراء: ۱۹۳- ۱۹۴.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹